روز أنطون

كاتبة نهضوية مَجْهُولة

إعداد
أحمد أصفهاني

إشراف
هدى وماريا فؤاد حداد

روز أنطون

كاتبة نهضوية مَجْهُولة

دراسة ونصوص

إعداد:
أحمد أصفهاني

إشراف:
هدى وماريا فؤاد حداد

تنويه وشكر

ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولا جهود عدد من الأشخاص الذين قدموا لنا مساعدات قيّمة:

- لورنس برنس، إبن كوزيت برنس، وحفيد روز أنطون ونقولا حداد. والذي قدم معلومات عائلية مهمة.
- هدى وماريا حداد، إبنتا فؤاد حداد، وحفيدتا روز ونقولا. وقد قدمتا معلومات متنوعة ومجموعة من الصور النادرة.
- سلمى مرشاق سليم التي كانت مرجعاً موسوعياً للفترة التي يغطيها الكتاب، إضافة إلى تزويدنا بنسخ مصورة لبعض المجلات المفقودة.
- محمد عويس الذي بذل جهداً محموداً لتصوير مجلدات «السيدات والبنات» و«السيدات والرجال» المتوافرة في دار الكتب الوطنية بالقاهرة.
- سلاف خليفة ومراد بطرس اللذان أخرجا الكتاب بهذا التصميم المميز.

لهم جميعاً الشكر والتقدير.

المحتويات

تمهيد 8

1. قضيّة المرأة من منظور النهضة..... 13

2. فرح أنطون (1874 - 1922) 21

3. نقولا الحداد (1872 - 1954) 33

4. روز أنطون (1882 - 1955) 41

5. مجلة «السيدات والبنات» في مرحلتها الأولى 51

6. مجلة «السيدات والرجال» في مرحلتها الثانية..... 73

مختارات 91

تمهيد

تعرّفتُ إلى سيرة روز أنطون للمرة الأولى في سياق قراءاتي لكتابات فرح أنطون، أحد أبرز كتاب «عصر النهضة» ومفكريه في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. المعلومات عنها آنذاك ركزت على إلتحاقها بأخيها في مقر إقامته بمدينة الإسكندرية حيث كان يصدر مجلة «الجامعة العثمانية»، ثم قيام فرح بتأسيس مجلة خاصة بها صدرت سنة 1903 تحت عنوان «السيدات والبنات». ويخرج القارئ من تلك المعلومات بانطباع مفاده أنها لم تلعب سوى دور هامشي في حياة أخيها، وفي العمل الصحافي أيضاً.

ثم وقفتُ على مزيد من التفاصيل عن نشاط روز الصحافي أثناء عملي بين 2007 و2008 على كتاب «مي زيادة صحافية» الصادر سنة 2009 عن «دار الساقي» في بيروت. فقد ركزتُ في كتابي ذاك على فترة تولي الأديبة الكبيرة مي زيادة الإشراف على القسم النسائي في مجلة «السياسة الأسبوعية» إبتداء من 6 تشرين الثاني سنة 1926 وحتى 26 شباط سنة 1927، فكانت تلك المرة الوحيدة والأخيرة التي تتحمل فيها مي مسؤولية عمل صحافي مباشر. ويومها ورد ذكر روز في إطار الرائدات الصحافيات اللواتي أنشأن أو أدرن مطبوعات نسائية عائلية في مطلع القرن العشرين.

غير أن غالبية المراجع التي عدتُ إليها في بحثي آنذاك لم تقدم أية إضاءات على روز أنطون الصحافية، لا في المرحلة الأولى (1903 ـ 1906) عندما عملت مع أخيها، ولا في المرحلة الثانية (1921 ـ 1930) عندما شاركت زوجها نقولا الحداد في إصدار مجلة «السيدات والرجال». بل أن سلامة موسى[1]، الذي عاصر تلك المرحلة وشارك بفعالية في النشاط الصحافي، عندما يتحدث عن الكتابات النسائية المبكرة في مصر يبدأ بـ «باحثة البادية» التي كانت مقالاتها تُنشر حوالى سنة 1910 في جريدة «الجريدة» التي تولى رئاسة تحريرها أحمد

لطفي السيد، ثم ينتقل فوراً إلى مي زيادة التي برزت على الساحة الأدبية إبتداء من سنة 1913.

يومها لم أتوقف طويلاً عند هذه المسألة، ولم أعطِ روز أنطون الاهتمام الذي تستحق. لكن حدث بعد سنتين أو ثلاث على صدور كتابي «مي زيادة صحافية» ما جعلني أعيد النظر جذرياً في ما تكوّن لدي من انطباعات. فقد أقترح عليّ أحد الأصدقاء مراجعة أعداد مجلة «السيدات والبنات» (الصادرة سنة 1903) والتي تولت روز الإشراف على تحريرها، ثم مجلة «السيدات والرجال» (الصادرة سنة 1921) بالتعاون مع زوجها نقولا الحداد. وسبب الاهتمام بهاتين المطبوعتين أن الدكتور خليل سعاده أقام في مصر خلال المرحلة الأولى، وقد ربطته علاقة صداقة مع كل من فرح ونقولا. وكنا نريد البحث عن مقالات محتملة له في المطبوعتين، كما كان يحدونا أمل بوجود مقالات لأنطون سعاده مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه في المرحلة الثانية.

يومها طلبتُ من بعض الزملاء في القاهرة تزويدي بصور لما هو متوافر في دار الكتب الوطنية بمصر من أعداد تلك المجلات. وبالفعل وصلني منهم، مشكورين، قرص مدمّج يحتوي على قسم كبير من أعداد «السيدات والبنات» و«السيدات والرجال». ومع أن المجموعة التي باتت بين يدي غير كاملة، إلا أن فيها من المقالات بقلم روز ما يكفي لاستخراج صورة عامة عن تفكيرها ومواقفها من القضايا الاجتماعية والعائلية والوطنية في تلك الفترة. وشجعني أكثر صدور كتاب الباحثة سلمى مرشاق سليم عن «نقولا الحداد الأديب العالم» (دار الجديد، بيروت سنة 2013) وفيه معلومات غنية عن عطاءاته الأدبية والعلمية والصحافية، خصوصاً عندما شارك زوجته روز في إعادة إصدار مجلة «السيدات والرجال» سنة 1921.

ومع أنني لم أعثر، في ما أتيح لي من أعداد، على مقالات للدكتور خليل سعاده أو لنجله أنطون المقيم في البرازيل آنذاك، إلا أن المادة المتوافرة بقلم روز تكفي لإعطائنا مؤشرات واضحة عنها كصحافية وكاتبة ذات شخصية مستقلة بمعزل عن شهرة الأخ وسمعة الزوج اللذين أحاطا بها منذ بداية حياتها العملية في الإسكندرية ثم القاهرة ثم نيويورك وأخيراً القاهرة مجدداً.

ويمكنني أيضاً إضافة أسباب عدة خاصة لاهتمامي بوضع بحث مطول عن روز أنطون. فلقد كان الدكتور سعاده على علاقة وثيقة مع فرح أنطون، وشكلا معاً بكتاباتهما ومواقفهما الفكرية والسياسية تياراً أعتبره بعضهم «المشروع السوسيوسياسي» في عصر النهضة [2]. وعندما فاجأت المنية فرحاً سنة 1922 وهو في الثامنة والأربعين من العمر، نظمت الجالية السورية في البرازيل حفلاً تأبينياً مهيباً كان الدكتور خليل من أبرز خطبائه.

وهناك سبب آخر أيضاً يتعلق بنقولا الحداد. إذ لم أكن أعرف أنه هو بالذات مؤلف كتاب «علم الاجتماع» الذي أشار إليه أنطون سعاده في كتابه «نشوء الأمم» بقوله في المقدمة: «ومنذ ألف إبن خلدون مقدمة تاريخه المشهور ووضع أساس علم الاجتماع، لم يخرج في اللغة العربية مؤلف ثانٍ في هذا العلم فظلت أمم العالم العربي جامدة من الوجهة الاجتماعية، يتخبط مفكروها في قضايا أممهم تخبطاً يزيد الطين بلة. ولا نكران أن الكاتب الاجتماعي السوري نقولا حداد وضع مؤلفاً معتدل الضخامة أسماه «علم الاجتماع». ولكن هذا الكتاب من النوع المدرسي ولا يأمن قارئه من الشطط. وهو مع ذلك المحاولة الأولى من نوعها، على ما أعلم، لفتح طريق علم الاجتماع الحديث».

أما السبب الأخير والمهم فيتعلق بالصديق روبير جريديني في لندن. فبينما كنا ذات يوم نتجاذب أطراف الحديث حول مفكري وأدباء وصحافيي عصر النهضة، وعندما أوردت ذكر روز أنطون في معرض الإشارة إلى كتابي عن مي زيادة... إذ به يفاجئني بالقول إن روز هي جدة زوجته هدى، إبنة فؤاد نقولا الحداد! فكانت تلك بداية التشمير عن الذراعين للإنطلاق في العمل الجدي بعد أن أتاح لي روبير وهدى الاطلاع على معلومات جمعها عدد من أفراد الأسرة، إلى جانب تزويدي بمجلد كامل لأعداد سنة 1922 – 1923 من مجلة «السيدات والرجال» الذي يتضمن الملحق الخاص بمناسبة وفاة فرح أنطون، وكذلك تسهيل الحصول على مراجع مهمة وصور لأعداد مفقودة سواء من بيروت أو القاهرة. كما أن السيدة سلمى مرشاق سليم زوّدتني، مشكورة، بصور لأعداد عدة من مجموعتها الغنية. وهذا الكتاب، في المحصلة النهائية، هو نتاج الجهد المشترك لنا جميعاً.

الهوامش:

1. «الصحافة حرفة ورسالة»، سلامة موسى. سلامة موسى للنشر والتوزيع - القاهرة 1963. صفحة 106).
2. «في اليقظة العربية: الخطاب السوسيوسياسي عند فرح أنطون»، مارون عيسى الخوري. جروس برس - طرابلس، لبنان 1994.

١

قضيّة المَرأة
من مَنظور النَهضَة

هل يمكن إنهاض المجتمع من «نومه الطويل»، على حد تعبير فرح أنطون، من دون بذل الجهد الكبير لإخراج المرأة من تخلفها وجهلها وعبوديتها؟ وهل يُعقل أن تقتصر خطوات النهوض على الرجل بينما نصفه الآخر المشرف على تربية الجيل الجديد يتخبط في مستنقعات التقاليد البالية؟ وما هي الأساليب المناسبة لترقية أحوال النساء في مجتمع تنظر غالبية رجاله إلى المرأة بوصفها «ناقصة عقل ودين»، وتدعم هذا الرأي مؤسسات دينية وإقطاعية وسياسية مهيمنة على شؤون الناس وشجونهم؟

هذه الأسئلة، وغيرها كثير مما يتفرع عنها، هي التي طرحها مفكرو «عصر النهضة» وكتابها على أنفسهم أولاً وعلى النخب الاجتماعية والثقافية ثانياً، إبتداء من منتصف القرن التاسع عشر حينما تعزز الاحتكاك الجدي بين «الشرق المتخلف» و«الغرب المتقدم». وقد حاول كل واحد منهم الإدلاء بدلوه في هذا الشأن، بعضهم لم يلامس سوى القشور الخارجية لمعضلة المرأة، وبعضهم الآخر غاص في أعماقها محاولاً اكتشاف المعادلات الاجتماعية الصالحة والكفيلة بترقية المجتمعات الشرقية المختلفة.

غير أن رواد التنوير في القرن التاسع عشر أجمعوا كلهم على أن ترقية المرأة لا يمكن أن تتم إلا في سياق ترقية المجتمع برمته. والخطوة الأولى في هذا التوجه تقوم على التربية والتعليم، يتساوى في ذلك الجنسان من حيث المبدأ. وقد عنى ذلك أن المسائل النسائية الخاصة مثل تعليم المرأة وخروجها إلى العمل والزواج المبكر وإباحة الاختلاط وتحديد الطلاق وتعدد الزوجات وإزالة الحجاب وغير ذلك من الشؤون كان يجب أن تنتظر إلى مرحلة لاحقة، خصوصاً أن دعاة التنوير الأوَل في بلاد الشام كانوا من المسيحيين في مجتمع ذي تعددية دينية، وبالتالي كانت هناك حساسية دقيقة جداً في إثارة موضوعات قد يعتبر الآخرون أنها «تمس بأصول الدين»! وهذا ما أوضحه الكاتب النهضوي المصري سلامة موسى بقوله: «لم يستطع يعقوب صرّوف أو فرح أنطون أن يفتحه لي من قبل (أي تحرير المرأة)، فإنهما لم يمسّا هذا الموضوع، أي حرية المرأة، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان. وكانا بالطبع يخشيان أن يُعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد الإسلامية».[1]

يتفق معظم المؤرخين الاجتماعيين لفترة القرن التاسع عشر على أن المعلم بطرس البستاني (1819 – 1883) كان أول من تعاطى بوضوح وعقلانية مع مشكلة المرأة. فهو «أول من لاحظ أن النهضة الحقيقية لا تقوم على الرجال وحدهم، وأن المرأة كعضو في المجتمع يجب أن تنال نصيبها من الحياة كما يناله الرجل».[2] وقد شرح موقفه هذا من خلال خطاب ألقاه في كانون الأول سنة 1849 بعنوان «وجوب تعليم النساء». ثم عاد وأسهب في هذا الموضوع بخطاب آخر ألقاه سنة 1869 بعنوان «الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والإفرنجية». وقد حددّ في الخطابين المواد التي ينبغي للمرأة أن تتعلمها بهدف تحصيل الفوائد الشخصية والاجتماعية منها: «علم الديانة للضرورة والواجب، اللغة العربية لغة قومها والأجنبية للانفتاح على ثقافات العالم، الكتابة للتعبير عن خواطرها، التربية لتنشئة أولادها تنشئة صحيحة، علم تدبير المنزل للمساعدة على ترجمة وظيفتها أماً وزوجة، علم التاريخ لإخبار بنيها القصص الحقيقية البعيدة عن الخرافة، علم الحساب لاحتساب المداخيل والنفقات وضبط ميزانية المنزل المادية».[3]

وسرعان ما تجاوبت النخبة المصرية مع هذه الدعوة، فإذا برفاعة رافع الطهطاوي (1801 – 1873)، الذي يعتبر من أبرز الرواد النهضويين في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر، يحمل لواء تعليم المرأة ليصدر كتاباً في سنة 1872 بعنوان «المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين». ومع أن الطهطاوي يركز في كتابه هذا على التعليم بصورة عامة، إلا أنه يدعو بوضوح وصراحة إلى أن تحظى النساء المصريات بحقهن المناسب في التعليم والتربية. ولم يشذ الشيخ محمد رشيد رضا (1865 – 1925) عن هذا التوجه، فهو «يرى أن تعليم المرأة واجب في حدود، ما عدا المعارف التي تخدم أنوثتها كتعليم تدبير المنزل والتربية والخياطة... فهي ضرورية بل واجبة».[4] وكما هو متوقع من رجل دين تقليدي، فالشيخ رضا يناقش مسائل الاختلاط وتعدد الزوجات والطلاق من وجهة نظر الفقه الإسلامي وتشريعاته.

وحده قاسم أمين (1865 – 1908)، من بين كل المفكرين والكتاب النهضويين في تلك المرحلة المبكرة، كان يمتلك الأدوات والصفات والجرأة التي تؤهله لمواجهة المؤسسات الدينية والاجتماعية التقليدية في مصر والعالم العربي بآراء جذرية

ثورية حول أوضاع المرأة. فهو مصري، مسلم، قانوني، مثقف بالآداب العربية والفرنسية، وله إلمام واسع بالفنون الجميلة من موسيقى ورسم... وسبق له أن أصدر سنة 1894 كتاب «مصريون» يدافع فيه عن الشعب المصري في وجه انتقادات أجنبية، ثم كتاب «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ» (سنة 1898) لمناقشة بعض المظاهر الاجتماعية في البلاد. وإنطلاقاً من ذلك كله، فإن أحداً في مصر لا يمكنه أن يشكك في دينه وفي وطنيته!

ثم جاءت المفاجأة التي هزّت المجتمع المصري على كل المستويات. ففي سنة 1899 أصدر قاسم أمين كتاب «تحرير المرأة»، وهو عنوان صادم يحمل قراراً بالتحدي من خلال ثلاثة موضوعات مترابطة: تربية المرأة وتعليمها، حجابها ووظيفتها الاجتماعية، المرأة في غمار الأمة. وللمرة الأولى يضع «مفكر مسلم» مسألة الحجاب تحت مجهر النقاش العام ليس من وجهة نظر مدنية فحسب، وإنما من المنظور الإسلامي أيضاً. وبذلك شُرّعت الأبواب لحوارات صاخبة أحياناً وهادئة احياناً أخرى، كان لها دور حيوي في جعل قضايا المرأة جزءاً أساسياً من أي نشاط نهضوي في مصر وبلاد الشام.

ويصف سلامة موسى تلك المرحلة بقوله: «وفي السنوات الخمس الأولى من هذا القرن (القرن العشرين) كانت الآفاق السياسية والاجتماعية في المجتمع المصري مقصورة على التيارات الجديدة التي أوجدها الشيخ محمد عبده في ضرورة تعميم الروح العصري في الأزهر، وفي دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة وإلغاء الحجاب، ثم في تنبيه الرأي العام إلى مكافحة الإنكليز بقلم مصطفى كامل».[5] لكن هذا الرأي غير دقيق تماماً لأنه يتجاهل شخصيات نهضوية أخرى كانت فاعلة آنذاك من أمثال فرح أنطون وشبلي الشميل والدكتور خليل سعاده وجرجي زيدان وغيرهم من النهضويين «الشوام». ويبدو أن موسى كان يعبّر عن مشاعر سلبية تجاه «الشوام المتمصرين»، وهو الذي يقول فيهم: «الصحفيون غير الوطنيين في مصر يعيشون كالملوك «فوق الأحزاب». فهم يتمصرون، ولكن تمصرهم لا يحملهم على الغلو في الوطنية. ولذلك فهم يستفيدون من الوطنية المصرية لأنهم يتحامون ما فيها من غلو».[6]

ولا بد هنا، في هذا السياق العام، من الإشارة أيضاً إلى زينب فواز (1844 - 1914) التي هاجرت من جبل عامل في لبنان إلى مصر لتصبح واحدة من أبرز الرائدات الكاتبات. فقد أصدرت كتاباً طبع في القاهرة سنة 1894 بعنوان «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور». وكانت تتخذ في مقالاتها المنشورة في عدد من الصحف مواقف جريئة في الدفاع عن حقوق المرأة، والدعوة إلى تحررها من كل القيود التي تعيق انطلاقها، إضافة إلى الموضوعات المعتادة مثل تنظيم الأسرة وتربية الأولاد وحق اختيار الزوج وحق الطلاق، وما شابه. وعلى الصعيد الصحافي نذكر بتسي نعّوم كبابه التي «أدارت «الأهرام» بكفاءة عالية منذ عام 1899 منفردة حتى عام 1912، ومع ابنها جبرائيل تقلا (ابن بشارة) حتى وفاتها عام 1924 (...) وشاركت في النهضة النسائية المصرية في القاهرة والإسكندرية. ودعت على صفحات «الأهرام» إلى تحرير الفتاة العربية وإطلاق حرية المرأة وحقها في العلم والعمل».[7]

ويتبين لنا من متابعة كتابات النهضويين الأوَل أنه، منذ مطلع القرن التاسع عشر، ارتبطت الحركة النسائية في العالم العربي بالمفاهيم الغربية من حيث الاعتقاد بأن تطور المجتمعات الأوروبية هو الذي أوصل المرأة إلى ما هي عليه من تقدم. ولذلك اعتبر مفكرو «عصر النهضة» من السوريين والمصريين أن على الشعوب الشرقية السير في الاتجاه نفسه، مع الأخذ في الاعتبار خصوصيات المجتمعات المحلية، وبالتحديد الحساسيات الدينية عند بعض التقليديين المتطرفين. والمدخل الضروري لتحقيق أي تقدم في هذا المجال يكمن في تعليم المرأة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المرأة الأولى التي كتبت مقالاً في مجلة «الجنان» (شباط 1871) هي السيدة وستين مسرّة، وقد تناولت فيه بالتحديد التعليم وأهميته في تربية الأطفال.

وهكذا بدأت النساء بشق طريقهن النهضوي المميز في الحقل العام، فكان التعليم الوظيفة الحديثة الأولى والوحيدة تقريباً المتاحة للمرأة المثقفة. جوليا طعمة دمشقية (1882 ـ 1954) التي تلقت علومها في مدارس البروتستانت، سرعان ما

بدأت التدريس في شفا عمر (فلسطين) وهي في الثامنة عشرة من العمر، قبل أن تطرق أبواب الكتابة الصحافية. ونجلاء أبي اللمع التي أصدرت مجلة «الفجر» سنة 1919 كانت معلمة أيضاً. وكذلك عفيفة صعب صاحبة مجلة «الخدر» سنة 1919. ولا ننسى سلمى صايغ الصحافية المعروفة التي كانت معلمة. ثم حدث الانتقال الطبيعي إلى عالم الصحافة، فأسست السورية هند نوفل قبل زواجها أول مجلة نسائية في القاهرة سنة 1892 بعنوان «الفتاة»، لكنها توقفت عن العمل بعد زواجها من حبيب دبانة وانصرافها إلى شؤون المنزل وتربية الأولاد. ونحن نعرف أن روز أنطون انتقلت من التعليم إلى الصحافة سنة 1903 برعاية أخيها فرح صاحب مجلة «الجامعة».

في ظل هذه الأجواء الفكرية والاجتماعية والسياسية والصحافية التي طبعت الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، وجد الثالوث المتشابك: فرح أنطون وروز أنطون ونقولا الحداد أنفسهم منخرطين بطريقة أو بأخرى في الحراك النهضوي الذي ترك بصمات راسخة في مستقبل مصر وبلاد الشام. وقد كانت لكل واحد منهم علامته الفارقة فكرياً وصحافياً واجتماعياً. ومع ذلك يبقى نتاج فرح القاعدة الأساسية التي بنت عليها روز ونقولا خطهما الاجتماعي والفكري العام، في حياة فرح وبعد رحيله المبكر.

الهوامش:

1. سلامة موسى، «تربية سلامة موسى». صفحة 81.
2. جورج ن. عطيه، «نشوء فكرة سوريا الكبرى وتطورها». أطروحة جامعية غير مطبوعة. صفحة 13.
3. مارون عيسى الخوري، «في اليقظة العربية: الخطاب السوسيوسياسي عند فرح أنطون». صفحة 45.
4. المرجع السابق، صفحة 23.
5. سلامة موسى، «الصحافة حرفة ورسالة». صفحة 62 ـ 63.
6. المرجع السابق، صفحة 6.
7. مسعود ضاهر، «الهجرة اللبنانية إلى مصر ـ هجرة الشوام». صفحة 261.

2

فرح أنطون

(1922 - 1874)

سنكتفي في استعراضنا لبعض من محطات حياة فرح أنطون العاصفة والقصيرة، وكذلك لقسم من نشاطاته الصحافية والأدبية والفكرية، على تلك المراحل التي جمعته بكل من شقيقته روز وصهره في المستقبل نقولا الحداد. فقد نشأت بين الثلاثة تقاطعات متنوعة كان لها تأثيرات واضحة على مساراتهم الفكرية والاجتماعية والمهنية، سواء في مصر أو في الولايات المتحدة الأميركية. ونحن لا نجد كثير فائدة في تكرار الحديث المفصل عن فرح أنطون. فهو غني عن التعريف، وقد أسهب نقاد الأدب ومؤرخو عصر النهضة، قديمهم ومعاصرهم، في تبيان أهميته الفكرية والأدبية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فقد وصفه مارون عبود بأنه «أبو النهضة الفكرية الحديثة في المشرق العربي». في حين قال عنه سلامة موسى: «ولو تتبعنا مكانة فرح أنطون بين معاصريه وقارئي آثاره، فإننا سنجدهم يؤكدون على عظيم ما قدمه في النهضة العربية الحديثة، إلى حد أنه اعتُبر الفاتح لدراسة النهضة الأوروبية الحديثة، وناشر الأفكار الديموقراطية الحرة، ومن أوائل من عرّفوا بالمذاهب السياسية والاجتماعية الحديثة في المشرق العربي».[1]

وُلد فرح أنطون في ناحية الميناء بمدينة طرابلس الشام سنة 1874 لعائلة أرثوذكسية المذهب. والده إلياس كان تاجر أخشاب يتنقل بين لبنان والأناضول. وفي حين أن مارون عيسى الخوري يقول[2] إن الأم هي من عائلة مالك من بلدة بطرام في الكورة ورزق منها بولدين هما فرح وميخائيل (توفي في الميناء سنة 1900 بعد إصابته بداء التيفوئيد) وثلاث بنات أبرزهن روز، فإن دونالد ريد[3] ينقل عن فؤاد الحداد (إبن روز) أن والدة فرح تدعى كريمة وتنتمي إلى عائلة اليازجي العريقة من بلدة مرمريتا الواقعة في وادي النصارى (سوريا)، وأنها أنجبت خمسة أبناء هم: مريانا وفرح وروز ورمزه وطفل أخر لا يذكر اسمه توفي باكراً (هو ميخائيل الذي ذكره الخوري).

بدأ فرح تعليمه في المدرسة الابتدائية الأرثوذكسية في طرابلس، قبل أن ينتقل إلى معهد كفتين في الكورة الذي زاحم أرقى المدارس الأجنبية في بلاد الشام. كان المعهد ذا نزعة وطنية علمانية، ينتمي أساتذته إلى أديان ومذاهب مختلفة. وقد قصده طلاب من شتى أنحاء بلاد الشام وصولاً إلى الأناضول. درس فرح في

المعهد أربع سنوات، تولى خلالها رئاسة تحرير الجريدة المدرسية. وقد توقف عن الدراسة لأن المدرسة أغلقت أبوابها لأسباب مجهولة. وعند تخرجه سنة 1890، عمل مع والده لمدة سنتين تقريباً في تجارة الأخشاب ما أتاح له مجال التجوال في أنحاء سوريا والأناضول.

لكن سرعان ما تبين له أن مستقبله يكمن في مجال آخر غير تجارة الأخشاب، وقد عُهدت إليه مسؤولية إدارة المدرسة الأهلية الأرثوذكسية في منطقة الميناء من دون أن يتخلى عن اهتماماته الصحافية والأدبية. فأخذ يرسل مقالاته إلى «المقتطف» في مصر، كما انضم إلى «جمعية النادي الأدبي» التي أسسها جرجي يني في طرابلس، ثم إلى «جمعية كفتين التعليمية» وأخيراً «جمعية روضة الآداب».[4]

لكن يبدو أن طموحات فرح الفكرية والأدبية كانت أوسع من دوائر طرابلس والكورة، وفي الوقت نفسه أكبر من أن تتحملها الرقابة العثمانية القاسية. فقرر الهجرة سنة 1897 إلى مصر حيث كان قد أنشأ بعض العلاقات الصحافية من خلال ما نشره في مطبوعاتها في غضون السنوات الماضية. وفور وصوله إلى مدينة الإسكندرية واستقراره فيها، باشر الترجمة عن الفرنسية والكتابة في عدد من الصحف بينها «الأهرام» و«المنار». وقد عمل محرراً في «الأهرام» ما أكسبه خبرة مهنية مفيدة. لكن هذه الصحيفة قررت الانتقال إلى القاهرة سنة 1899، فترأس فرح تحرير جريدة «صدى الأهرام» لصاحبيها الأخوين سليم وبشارة تقلا. غير أن هذه المطبوعة لم تعمر سوى أشهر عدة، فعرض عليه الأخوان تقلا الإلتحاق بالصحيفة الأم في القاهرة. إلا أن فرح كان قد وصل إلى قناعة بأن الوقت قد حان له لإصدار صحيفته الخاصة، وفي الإسكندرية بالذات.

وبعد سنتين على إقامته في الاسكندرية ونشاطه الصحافي فيها، أصدر فرح في منتصف آذار سنة 1899 العدد الأول من مجلة «الجامعة العثمانية». وظلت تصدر تحت هذا الإسم حتى العدد الثالث عشر حين أصبحت «الجامعة»، ما يعكس تغيراً في موقف فرح السياسي من السلطنة العثمانية في تلك المرحلة المبكرة. صدرت المجلة كل شهرين مرّة في السنة الأولى، ثم شهرية في السنة الثانية، وأصبحت غير منتظمة بعد ذلك (خمسة أعداد سنة 1902، ستة أعداد

سنة 1903، عددان فقط سنة 1904). وأدخل فرح ابتداء من العدد الثالث عشر تغييراً في المحتوى، مضيفاً باب التربية والتعليم وباب تدبير الصحة. وكان يساعده في شؤون «الجامعة» التحريرية والإدارية قريبه ميخائيل كرم في الفترة الأولى، ثم شقيقته روز في الفترة الثانية.

ويعطينا فرح في مقدمته للعدد الأول من «الجامعة» (15 آذار 1899) فكرة عامة عن هوية المجلة ورسالتها، إذ يقول: «وستصرف معظم همها إلى المباحث التهذيبية فيكون فيها ما عدا المباحث الأدبية والسياسية والتاريخية باب للتربية والتعليم مفتوح للكتاب والأدباء يبحثون فيه معنا في إصلاح طرق التعليم والتربية في مدارس الشرق، وباب آخر للمرأة والعائلة مفتوح للكاتبات الأديبات يبحثن فيه معنا أيضاً في تحسين حالة المرأة والعائلة في بلاد الشرق ليكون النسل الناشئ خلقاً جديداً فيه ما يجب من فضائل الغد وليس فيه شيء من رذائل الأمس فإن هذا دون سواه طريق كل إصلاح في كل هيئة اجتماعية». وبعض هذه الأفكار سنراه محققاً في مجلة «السيدات والبنات» التي ستصدر سنة 1903 وتشرف عليها روز أنطون.

وكانت روز قد هاجرت إلى مصر بموجب عقد وقعته مع المرسلين الأميركيين لإدارة مدرسة للبنات تقع في حي الإبراهيمية في الإسكندرية حيث عملت مدّة ثلاث سنوات. كما أن والدته وأخواته انضممن إليه في تلك الفترة. إن إقدام روز على هذه الخطوة لم يكن فقط للحصول على فرصة عمل، بل أيضاً للتواجد إلى جانب أخيها ومساعدته في عمله الصحافي. أما فرح فقد رأى في وجود روز ما يساعده على الترويج لأفكاره النهضوية في ما يتعلق بأوضاع المرأة في العالم العربي. ولذلك أسّس سنة 1903 مجلة «السيدات والبنات» في الإسكندرية، موكلاً إدارتها إلى روز. وكان يكتب فيها باسم مستعار «وكأن الرجل كان يحاول من وراء ذلك استكمال مشروعه الفكري، فبينما هو يلح في «الجامعة» على الشأن السياسي والاجتماعي عامة، تختص مجلة «السيدات» بالجانب النسائي وأهمية تعليم المرأة وتحريرها وتوجيهها بما ينسجم مع دورها البيتي والاجتماعي والإنساني سواء بسواء».[5]

في حزيران سنة 1902، حمل العدد الثامن من السنة الثالثة لمجلة «الجامعة» مقالة مطولة وضعها فرح حول حياة الفيلسوف إبن رشد وفلسفته ومبادئه العقلانية، أنهاها بعقد مقارنة بين طبيعة الاضطهاد في النصرانية والإسلام. ووصل إلى خلاصة مفادها أن التسامح في الدين الإسلامي «أصعب» منه في الدين المسيحي.[6] وما كان فرح يدري يومذاك أن هذه المقالة التي أرادها تعريفية تثقيفية ستؤدي من جهة أولى إلى مناظرة فكرية من أرقى المناظرات مع الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في تلك الفترة، ومن جهة ثانية إلى حملة تحريض طالته شخصياً كان وراءها مواطنه الطرابلسي الشيخ محمد رشيد رضا صاحب «المنار» التي حملت ردود عبده.

ستة ردود وست إجابات كانت حصيلة المناظرة بين فرح أنطون ومحمد عبده، وأسفرت عن صدور كتابين مهمين: «إبن رشد وفلسفته» لأنطون، و«الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية» لعبده. غير أن الأجواء غير السليمة التي أحاطت بهذه المناظرة أخرجت النقاش عن محوره الفكري الرصين. «ولكن نتيجة هذه الحادثة كانت بالغة السوء على «الجامعة» التي أخذت مئات من أعدادها ترد إلى إدارتها بلفظة «مرتجعة مع الشكر»، الأمر الذي قلل من نسبة مشتركيها، وبالتالي قزّم من دخلها المادي، فما عادت تقوى على سد نفقاتها الكثيرة».[7] وعلى الأثر أعلن أنطون توقف «الجامعة» عن الصدور لأنه منكبٌ على تأليف كتاب عن إبن رشد!! (صدر الكتاب سنة 1903)

شكلت الدعوة التي جاءت من أحد أقرباء أنطون في الولايات المتحدة الأميركية لإعادة إصدار «الجامعة» في نيويورك خشبة إنقاذ من الأجواء الخانقة التي أخذت تحيط به في القاهرة. ويضيف وديع فلسطين سبباً أخر بقوله: «هناك من اختاروا الهجرة فراراً من منغصات الحياة مثل الأديب فرح أنطون الذي ضاق بملاحقة سيدة من سكان حي شبرا، ولم يجد مفراً منها إلا بالهجرة إلى أميركا».[8] ومهما كان الدافع الحقيقي، فقد قرر فرح التلبية على الفور، وانتقل إلى نيويورك سنة 1905 على أن تنضم إليه لاحقاً شقيقته روز وخطيبها نقولا الحداد [9]. وقد صدر العدد الأول من «الجامعة» الشهرية في الأول من تموز سنة 1906.

وبعد تسعة أعداد، أعلن أنطون عن إصدار «الجامعة» اليومية في كانون الثاني سنة 1907 بشراكة مع أحد التجار السوريين في نيويورك ليرأس تحريرها الحداد، وتساعده فيها روز، إلا أنها لم تعمّر سوى خمسة أشهر. لكن «الجامعة» بصيغها الثلاث الشهرية والأسبوعية واليومية لم تستمر طويلاً، فقضت نحبها بالعدد العاشر من السنة السادسة بتاريخ تشرين الثاني سنة 1908. ومن أسباب الفشل، أن فرح لم يكن ذا حس تجاري: «فإن حرفتي البلاغ ووظيفتي النشر. ومن سوء طالعي أنني اتخذت هذه الحرفة سبيلاً لي في الحياة».[10]

في هذه الأثناء، كانت أحداث عاصفة تجري في كواليس السلطنة العثمانية. فقد تمت عملية خلع السلطان عبد الحميد بموجب فتوى من شيخ الإسلام في إستنبول، وبُويع أخوه محمد رشاد بالخلافة. فعمد على الفور إلى إطلاق الدستور الذي كان قد سنّه الصدر الأعظم الإصلاحي مدحت باشا. وما أن وصلت هذه الأخبار إلى نيويورك، حتى استبشر أنطون خيراً، وقرر العودة إلى مصر ليكون قريباً من قضايا الوطن. وهكذا حزم الثلاثة أمرهم، فرح وروز ونقولا، وقفلوا عائدين إلى القاهرة في النصف الأول من سنة 1909 ليختط كل واحد منهم طريقاً جديداً لحياته.

أصدر فرح في مطلع كانون الأول سنة 1909 العدد الأول من السنة السابعة لمجلة «الجامعة»، وبعد شهر أصدر العدد الثاني. وبهذين العددين غابت «الجامعة» إلى غير رجعة، وإن كان قد واصل النشر في مطبوعات أخرى منها «الجريدة» و«مصر الفتاة» و«المحروسة» و«البلاغ المصري» و«الوطن» و«الأهالي» و«الأهرام» وغيرها، وكذلك تأليف المسرحيات وترجمة أعمال أدبية فرنسية متنوعة. في حين واظب نقولا الحداد على الكتابة في الصحف والمجلات، إلى جانب تأسيس صيدلية في حي شبرا بالقاهرة. أما روز أنطون حداد فمن المرجح أنها ركزت اهتمامها في تلك المرحلة على شؤونها العائلية خصوصاً وأنها أنجبت ابنها البكر فؤاد سنة 1911. ويحيط الغموض بالفترة الممتدة من 1909 إلى 1921 (سنة إعادة صدور مجلة «السيدات والرجال») في ما يتعلق بنشاطات روز

المهنية، لكن الشيء المؤكد أن فرح أنطون لم يلعب دوراً ذا تأثير في حياة تلك المجلة لأنه أصبح آنذاك في وضع صحي متدهور أدى إلى وفاته في الرابع من تموز سنة 1922.

فرح أنطون و«النهضة»

ينطلق مشروع فرح أنطون النهضوي من ثنائية «الشرق» و«الغرب». فهو على بيّنة من التناقض الجلي بين نمطي حياة: الأول منهما غارق في الانحطاط والجهل والتعصب، بينما الثاني قد قطع أشواطاً بعيدة في مجالات الرقي والعلم والتسامح. وقد تمثلت لأنطون منذ بداية تفكيره صورة قاتمة لأوضاعنا الاجتماعية عبّر عنها بكلمات لا مجاملة فيها في أحد أعداد مجلته «الجامعة» حيث يقدم للقارىء: «ما عليه الشرق من سكون الموت وما هو فيه الغرب من حركة الحياة».[11] وطالما أن «الشرق» لا يريد الأخذ بالعناصر الحيوية المناسبة التي كانت في أساس انطلاق «الغرب» في معارج النهضة، فإن أية محاولة لتغيير العقلية «الشرقية» ستظل محكومة بالفشل الذريع.

ورأى أنطون أن مسؤوليته تجاه وطنه ومجتمعه هي أن يعمل من أجل تحقيق انتقال جذري سريع من «الحالة الشرقية» إلى «الحالة الغربية»، أي الخروج من وضعية «النوم الطويل» على حد تعبيره. وكما فعل كثيرون من المفكرين والكتاب النهضويين الذين سبقوه أو عاصروه، خصوصاً في سوريا ومصر، نظر أنطون إلى أوضاع المرأة في الشرق بوصفها قضية أساسية في مدماك أي مشروع نهضوي حقيقي. ولذلك كانت ترويسة «الجامعة» في أعدادها الأولى تحمل العبارة المشهورة التالية للفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو: «يكون الرجال كما يريد النساء، فإذا أردتم أن يكونوا عظماء وفضلاء فعلموا النساء ما هي العظمة والفضيلة».[12]

وفي سبيل هذه الغاية، وغيرها من الأهداف التنويرية المرتبطة بها، وجّه أنطون جهوده نحو أربعة اتجاهات في ما يتعلق بقضية المرأة:

أولاً، ترجمة الكتب التي تعنى بهذه الناحية، ومن أبرزها كتاب «يقع في أربعمئة صفحة للفيلسوف الفرنسي جول سيمون (1814 - 1896) تحت عنوان «المرأة في القرن العشرين»، وذلك بإذن خاص من المؤلف»[13]. وقد نُشرت فصول من هذا الكتاب في «الجامعة» سنة 1899، وأعيد نشر أجزاء منه في «السيدات والبنات» بين 1903 و1906. ويركز سيمون في كتاباته على قضايا تحرير المرأة ورعاية الأطفال والتربية الاجتماعية وإصلاح التعليم.

ثانياً، تخصيص باب أساسي في «الجامعة» يهتم بأمور المرأة والعائلة ويكون مفتوحاً «للكاتبات الأديبات يبحثن فيه معنا أيضاً في تحسين حالة المرأة والعائلة في بلاد الشرق ليكون النسل الناشئ خلقاً جديداً فيه ما يجب من فضائل الغد وليس فيه شيء من رذائل الأمس».[14]

ثالثاً، تأسيس مجلة نسائية متخصصة تحت عنوان «السيدات والبنات» (1903) كي تحمل أفكاره التنويرية مباشرة إلى الجهة المستهدفة، وقد عهد بأمورها التحريرية إلى شقيقته روز.

رابعاً، وضع الروايات الفكرية والاجتماعية التي يستطيع من خلالها بث دعوته بأسلوب قصصي شيق. «فأحرى بالروايات أن يكون غرضها السسيولوجيا أيضاً، أي البحث في حالات المجتمع البشري لترقيته وإنماء قواته النافعة وإفناء قواته المضرة. والروايات بعد الصحف أو قبلها من أهم ذرائع هذه الترقية. بل هي في الشرق أشد تأثيراً من الصحف في هذا الشأن».[15] وفي رواياته المتعددة نقف على مجمل أفكاره الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية.

كان أنطون شديد التأثر بأفكار الثورة الفرنسية لجهة الدعوة إلى الحرية وحقوق الإنسان والمساواة بين المواطنين بغض النظر عن الدين أو الجنس. وهو لم ينطلق من قواعد سبقه إليها رواد فجر النهضة في سوريا ومصر، بل من أفكار سيمون في ما يتعلق بالمرأة. «وكان منفتحاً على العلم الأوروبي والأفكار الثورية والتحررية التي تدعو إلى رقي المجتمع والأخذ بركاب العلم وتعليم المرأة والتحرر من القيود البالية».[16] وهذا ما حاوله دائماً في مجلة «الجامعة» عندما أصدرها في الإسكندرية أولاً ثم في القاهرة ونيويورك (شهرية وأسبوعية ويومية)، فالقاهرة

أخيراً. وكي نعرف منهج أنطون في تناول «الجامعة» لقضايا المرأة، علينا أن نعود إلى العدد الأول الذي يحدد تصوره المبدأي.

آمن أنطون أن للصحافة وظيفتين: اجتماعية وسياسية[17]. واعتبر أن البيت والمدرسة والصحافة هي أدوات النهوض في الشرق. ومن خلال الصحافة كان يريد الترويج لأفكاره في إصلاح البيت والمدرسة. وشكلت قضايا المرأة والعائلة، بالنسبة إليه، جوهر الوظيفة الاجتماعية. وقد استعرض في العدد الأول أبواب المجلة على الشكل التالي: المقالات، التربية والتعليم، المرأة والعائلة، الشعر والإنشاء، الأخبار الداخلية، الأخبار الخارجية، الروايات.[18] ونلاحظ أن بابين من الأبواب السبعة (التربية والتعليم - المرأة والعائلة) يتعلقان مباشرة بأوضاع المرأة وسبل تطويرها، وذلك وفق المبدأ التالي كما جاء في العدد الأول: «أساس الهيئة الاجتماعية الأمة. وأساس العائلة الأم، أي المرأة. ففي إصلاح شأن المرأة إصلاح الهيئة الاجتماعية كلها».[19] ويتابع أنطون في مقاله الافتتاحي: «أهم أغراض هذه المجلة غرضان مرتبطان متحدان، الواحد أدبي والثاني سياسي. الأول البحث في ما يكون فيه صلاح حال الأمة العثمانية والمصرية أدبياً، والثاني في ما يكون فيه صلاح حالها سياسياً. وكلا الأمرين، في رأينا، منوط بصلاح التربية. أتطلبون هيئة أدبية فاضلة؟ ربّوا المرأة لتربي أبناءها تربية فاضلة، فيكون منهم هيئة اجتماعية فاضلة. أتطلبون هيئة سياسية فاضلة؟ ربّوا المرأة لتضع لكم في نفوس الأمة ذلك الأساس الوطيد الذي يمكنكم أن تبنوا عليه بعد ذلك الفضائل السياسية...»[20]

صحيح أن أنطون يركز في مقاله هذا على التربية ودورها في ترقية حياة المرأة، وبالتالي حياة المجتمع. فتحرير المرأة ينطلق من تعليمها وفق مواد محددة. لكنه في الوقت نفسه يربط الاجتماعي بالسياسي، وإن كان يتجنب الدعوة المباشرة إلى انخراط المرأة في السياسة، ذلك أنه يعتبر أن مكان المرأة الحيوي والفاعل هو بيتها[21]. فالعمل السياسي بالمفهوم المتعارف عليه كان سابقاً لأوانه في تلك الفترة المبكرة، وفي تلك الظروف الاجتماعية المتزمتة. غير أن نظرية الإصلاح السياسي والاجتماعي ظلت عنده «مرهونة بأمر إصلاح المرأة وتعليمها. وفي الواقع فنحن قلما نجد عدداً من جامعته يخلو من بحث حولها».[22] ولعل أنطون أدرك مع الوقت،

خصوصاً بعد مناظرته الشهيرة مع الشيخ محمد عبده والحملة الشرسة التي تعرض لها شخصياً وتعرضت لها «الجامعة»، أن من الأفضل له ولمشروعه التنويري تجاه المرأة أن تكون هناك مجلة خاصة بالنساء تشرف على تحريرها إمرأة... «فسارع إلى إنشاء مجلة «السيدات والبنات» لأخته روز، حيث تخفى وراءها، وكتب على صفحاتها صراحة ومداورة كثيراً من المقالات التي تعنى بشأن الأنثى، فتاة أو زوجة أو أماً، متحدثاً عن ضرورتها في التربية والتعليم على صعيد البيت، وعن أهميتها الحياتية على صعيد الحياة الاجتماعية».[23]

هذه العبارة الأخيرة يجب أن لا تدفعنا إلى الاعتقاد بأن مجلة «السيدات والبنات»، والمشرفة على تحريرها روز، كانت ستاراً تخفى وراءه فرح بهدف إطلاق مواقف لا يجرؤ على الجهر بها باسمه الصريح علناً. وعندنا نموذج في هذا المجال هو الصحافي سليم سركيس الذي كان قد أصدر في القاهرة سنة 1896 مجلة «مرآة الحسناء» متخذاً لنفسه اسم مريم مزهر. ولا نظن أن فرح كان بهذا الوارد، خصوصاً وأنه لم يتردد قط في فتح مواجهة قاسية مع المؤسسة الدينية المصرية ممثلة بمفتي الديار المصرية آنذاك الشيخ محمد عبده. كما وأن روز نفسها كانت ذات شخصية فكرية وصحافية واجتماعية مستقلة، وإن كانت تعيش في تلك المرحلة الأولى في ظل شهرة أخيها الواسعة.

الهوامش:

1. «فرح أنطون»، ميشال جحا. رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن 1998.
2. «في اليقظة العربية: الخطاب السوسيوسياسي عند فرح أنطون»، مارون عيسى الخوري. دار جروس برس ـ طرابلس 1994.
3. 'The Odyssey of Farah Antun'
Donald M. Reid. Bibliotheca Islamica Inc. Minneapolis & Chicago 1976.
4. مارون عيسى الخوري، مرجع سابق. صفحة 70.
5. المرجع السابق، صفحة 78.
6. «فرح أنطون: المؤلفات الفلسفية»، أدونيس العكره. صفحة 9.
7. مارون عيسى الخوري، مرجع سابق. صفحة 82.
8. وديع فلسطين، «من مقالات وديع فلسطين في الأدب والتراجم». صفحة 77.
9. يقول دونالد ريد إن روز ونقولا تزوجا في القاهرة قبل السفر إلى أميركا. (الصفحة 117 من مرجع سابق). ويضيف أن فرح لم يكن مرتاحاً في البداية إلى هذا الزواج لأن نقولا كان قد أصدر كتاباً عن الحب والزواج سبق لمجلة «الجامعة» أن وصفته بأنه مناف للأخلاق!
10. «الخطبة لدى شلال نياغرا»، مجلة «الجامعة» أيلول سنة 1908. نقلاً عن «فرح أنطون»، ميشال جحا. صفحة 242.
11. «الجامعة»، عدد 15 حزيران سنة 1899.
12. مجموعة «الجامعة» الكاملة، صفحة 469.
13. «فرح أنطون: الأعمال الروائية»، تقديم د. أدونيس العكره. صفحة 7.
14. العدد الأول من «الجامعة»، نقلاً عن كتاب «فرح أنطون»، ميشال جحا. صفحة 40.
15. «الجامعة»، الجزء الثامن، السنة الخامسة 1906. نقلاً عن كتاب «فرح أنطون»، ميشال جحا. صفحة 180.
16. «فرح أنطون»، ميشال جحا. صفحة 19.
17. من دون أن ننسى أن الصحافة في ذلك الوقت كانت عملاً تجارياً مجزياً بقدر ما هي فعل تثقيفي. ومن أمثلة النجاح آنذاك: الأخوان تقلا، ويعقوب صروف، وفارس نمر، وجرجي زيدان وغيرهم.
18. «الجامعة العثمانية»، العدد الأول في 15 آذار سنة 1899.
19. المرجع السابق.
20. المرجع السابق.
21. Donald M. Reid, The Odyssey of Farah Antun. Page 95
22. «في اليقظة العربية: الخطاب السوسيوسياسي عند فرح أنطون»، مارون عيسى الخوري. صفحة 126.
23. المرجع السابق، صفحة 127.

3

نقولا الحداد

(1954 - 1872)

تعتمد هذه النبذة الموجزة عن حياة نقولا الحداد وأعماله الصحافية والأدبية على مصدرين أساسيين: الأول عبارة عن توليفة من سبع صفحات باللغة الإنكليزية جمعها أحد أحفاد الحداد استناداً إلى مرويات الأبناء والأصدقاء وبعض الأقارب. والثاني كتاب أصدرته السيدة سلمى مرشاق سليم[1] في سنة 2013 يمكن اعتباره أكمل سرد مرجعي لنشاطات الحداد على المستويات الصحافية والأدبية والفكرية والعلمية. ويضاف إلى هذين المصدرين مراجع أخرى ستتم الإشارة إليها في مواضعها.

وقد تعمدنا الاختصار في هذه النبذة لأن المعلومات عن الحداد متوافرة في كثير من مصادر الدراسات الصحافية والأدبية في العالم العربي. ذلك أن هدفنا الأساسي في هذا البحث هو إلقاء الضوء على مراحل من حياة الحداد ونشاطاته ذات العلاقة المباشرة مع فرح أنطون أولاً، ومن ثم مع روز أنطون لاحقاً، وبالتالي تبيان طبيعة الأواصر التي جمعت الثلاثة في أعمال صحافية وفكرية في مصر والولايات المتحدة الأميركية مطلع القرن العشرين. ومن ثم زواج نقولا وروز الأمر الذي مهّد لهما بعد سنوات مجال المشاركة العملية في إصدار مجلة «السيدات والرجال» سنة 1921.

وُلد نقولا إلياس الحداد في قرية جون بقضاء الشوف (جبل لبنان) يوم عيد الميلاد 25 كانون الأول سنة 1872، وذكرت مصادر أخرى أنه من مواليد 1870 لكن التاريخ السابق أصح[2]. ولا توجد معلومات موثقة عن والده أو والدته، ويرجح أنه كان وحيداً لأبويه. وقد توفي الوالد ونقولا في السابعة من العمر، فآلت إليه مسؤولية الأسرة. وجاء في مقال كتبه شخصياً سنة 1932 لمجلة «الإصلاح» الصادرة في بوانس أيرس (الأرجنتين) ويرأس تحريرها الدكتور جورج صوايا «أنه تلقى تعليمه في مدرسة الأميركان في صيدا، ثم التحق بالجامعة الأميركية في بيروت (كانت تعرف آنذاك باسم «الكلية السورية الإنجيلية»). ولكنه انقطع فترة عن الدراسة وسافر إلى مصر حيث عمل في جريدة «الرائد المصري» لصاحبها نقولا شحادة. وبعد ثلاث سنوات استأنف دراسته الجامعية وحصل على شهادة الصيدلة سنة 1902».[3]

ويقول الباحث جان داية[4] في مقال له حول مجلة «الكنانة» الخطية التي أصدرها سنة 1900 طلاب في الجامعة الأميركية في بيروت: «ونقرأ في العدد 8 الصادر في 28 آذار 1901 خبر انتخاب الهيئة الإدارية للجمعية الكيمية، وكان من الفائزين نقولا حداد الذي انتقل بعد التخرج إلى القاهرة وتزوج من الأديبة روزا أنطون أخت الكاتب فرح أنطون...».

لا نعرف بالضبط طبيعة الأسباب التي أجبرته على التوقف عن دراسته الجامعية في بيروت، ولا نعرف أيضاً سنة وصوله إلى القاهرة. لكن الأكيد أنه كان مولعاً بالأدب والكتابة منذ نعومة أظافره. ويُروى عنه أنه أنشأ أثناء دراسته في صيدا جريدة حائط تحت اسم «المحبة»، وكان ينظم الشعر في الجامعة بحيث حصل على لقب «شاعر الكلية». وتقول سلمى مرشاق سليم[5] إن أول مقال له في مجلة «الهلال» كان حول «تربية الأطفال» في سنة 1893، ما قد يعني أنه هاجر إلى مصر في مطلع تسعينات القرن التاسع عشر ليعمل في الصحافة والترجمة. غير أن إقامته هناك لم تطل، إذ عاد إلى بيروت ليكمل دراسته الجامعية ويحصل على شهادة في الصيدلة سنة 1902 وكان آنذاك في الثلاثين من العمر.

بعد التخرج، رجع نقولا إلى القاهرة ليتابع عمله في الصحافة. كان فرح أنطون قد أسس مجلة «الجامعة العثمانية» في الإسكندرية سنة 1899. ويرجح أن الحداد ساعده في بعض أمورها التحريرية. ويُعتقد بأن التعارف بين نقولا وروز كان عن طريق فرح، خصوصاً بعد أن ساعد هذا الأخير شقيقته في إصدار مجلة «البنات والسيدات» في 11 نيسان 1903. وعندما قرر فرح السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية سنة 1905، وقف نقولا إلى جانب روز لمعاونتها في مواصلة إصدار المجلة لأشهر عدة في غياب شقيقها. ويُظن بأن الخطوبة بينهما تمت في تلك الفترة.

قلنا إن فرح سافر إلى نيويورك سنة 1905 لأسباب تناولناها في القسم السابق. والهدف المعلن من «الهجرة» الجديدة هو إعادة إصدار مجلة «الجامعة» التي كانت قد توقفت في مصر. وكان من الطبيعي أن يلتحق به نقولا ومن ثم روز.

وتذكر سجلات الهجرة الأميركية التي حصل عليها أحفاد الحداد أن نقولا وصل إلى نيويورك في 13 تشرين الأول سنة 1906، وهو أعزب مصري الجنسية مهنته الصيدلة وعمره 34 سنة (ما يعزز الرأي بأنه من مواليد سنة 1872). والهدف من الزيارة اللقاء بصديقه فرح أنطون. أما روز فقد وصلت إلى نيويورك بتاريخ 9 حزيران سنة 1907، عزباء سورية الجنسية مهنتها الصحافة عمرها 26 سنة والهدف من الزيارة اللقاء بأخيها فرح.[6] وتجدر الإشارة إلى أن دونالد ريد[7] يقول إن نقولا وروز سافرا إلى نيويورك وهما متزوجان. وإذا صحت هذه المعلومة، فالأرجح أنهما لم يكونا قد سجلا بعد وثيقة زواجهما في القاهرة، بحيث أن سجلات الهجرة الأميركية ذكرت أنهما كانا عازبين لحظة وصولهما الشواطئ الأميركية.

وهكذا اجتمع شمل العائلة مرة أخرى في نيويورك. ويشير المقال في مجلة «الإصلاح» المذكورة أعلاه إلى أن نقولا سافر مع «خطيبته» روز لمساعدة فرح في «الجامعة» التي صدر العدد الأول منها في نيويورك بتاريخ أول تموز سنة 1906. «ولكن فرحاً لم يلبث بعد تسعة أعداد من صدور «الجامعة» الشهرية أن أعلن عن قرب ظهور «الجامعة» اليومية، بشراكة رشيد سمعان (أحد التجار السوريين في نيويورك)، وأنه سيسند رئاسة تحريرها إلى الصيدلي القانوني والأديب الشاعر نقولا أفندي الحداد الذي غادر مصر إلى المهجر ملتحقاً به، وبمساعدة شقيقته روز التي ستلحق بأخيها فرح أيضاً في أقرب وقت».[8] وقد عمل نقولا مع فرح بدوام كامل آنذاك. إلا أن النسخة اليومية لم تعمّر طويلاً بسبب تراجع الشريك التجاري، فأجبر فرح على إيقافها ثم الإعلان عن إصدارها مجدداً لكن أسبوعية هذه المرة.

غير أن الفشل كان نصيب المجلة الجديدة بصيغها المختلفة، شهرية وأسبوعية ويومية، فقضت «الجامعة» نحبها مع العدد العاشر من السنة السادسة بتاريخ تشرين الثاني سنة 1908. وحاول نقولا أن يجرب حظه في تجارة السجاد، فلم ينجح أيضاً. لذلك قرر الجميع العودة النهائية إلى مصر. ويشير الحداد في التمهيد لروايته «العالم الجديد: رواية العجائب والغرائب الأميركية» (القاهرة 1924) إلى تلك المرحلة بالقول: «بعد أن قضيت ثلاثة أعوام في الولايات المتحدة

الأميركية بين 1907 و1910 طفت فيها القسم الشرقي من تلك البلاد العجيبة الأطوار، والتي تعد الآن في قمة مدنية العالم...».

ويحيط الغموض بمكان وتاريخ زواج نقولا من روز. أوساط العائلة تذكر أن الزواج تم في نيويورك لأن سجلات الهجرة تشير إلى أنهما وصلا الولايات المتحدة وهما عازبان. وإذا كان إبنهما البكر فؤاد من مواليد تشرين الثاني سنة 1911، فالمرجح أنهما عادا إلى القاهرة في تموز سنة 1909 وهما زوج وزوجة. ولنلاحظ هنا أن تاريخ العودة سنة 1909 لا يتوافق مع ما ذكره الحداد نفسه في الفقرة السابقة.

إستأنف نقولا في القاهرة عمله الصحافي في جريدة «المحروسة» لصاحبها إلياس زيادة والد الأديبة المعروفة مي زيادة، وكان يكتب بين الحين والآخر مقالات في «الأهرام». ثم أسس صيدلية في شارع شبرا الرئيسي بالعاصمة المصرية حققت شهرة واسعة وكانت مصدر الدخل الأساسي للعائلة. في هذه الأثناء، غابت روز عن السمع حتى سنة 1921 عندما قررا معًا إعادة إصدار مجلة «السيدات والرجال» التي ظلت متوقفة منذ سنة 1906.

صدر من مجلة «السيدات والبنات» أحد عشر مجلداً،[9] ثم توقفت. ولكن الحداد واصل الكتابة الصحافية والتأليف العلمي والروائي إلى جانب عمله الصيدلي. وفي كانون الأول سنة 1949 تولى رئاسة تحرير «المقتطف» لصاحبها الدكتور فارس نمر حيث نشر عشرات المقالات والأبحاث والقصائد. ويبدو أنه تناول في بعضها موضوعات تمس الاعتقادات الدينية، فأعفاه نمر من رئاسة التحرير في آب سنة 1950. ومع ذلك ظل ناشطاً على المستوى الثقافي إلى أن توفي في آذار سنة 1954.

ويقدم لنا الأديب المصري وديع فلسطين صورة بانورامية معبرة للحداد: «إذا توسط المجلس فقد استحضر في ذهنه كل ما طالعه في صحف الصباح من أخبار وفصول، فضلاً عما حصّله في الحياة من علوم وتجارب، فيدهشك منه تدفقه في الكلام بلهجته الشامية في كل موضوع مثار، يجري فيه الحديث بلسان خبير مجرب. وربما اختلف معك في النتائج أو في الرأي، لكنه اختلاف بين

وجهتي نظر، وليس منازعة جنائية بين خصوم. وكان يدهشني منه أنه وهو واهي العظام لا يترك القلم أبداً بمجرد أن يستقر في البيت، فيكتب في العلم ـ وهو ميدان تخصصه الأصيل كصيدلي ـ وفي الأدب وفي السياسة، ويؤلف الروايات والمسرحيات (ويسميها بالحوارات) وينظم الشعر في أغراض الحب وفي أغراض الفلسفة والعلوم. فقد عاش في عصر الموسوعيين، وكان واحداً منهم، ولم يقنع حتى وهو في سنه تلك إلا بالإحاطة الشاملة للمعارف أياً كان مصدرها. وكان في تفسيره وتعليله لجميع الظواهر في الحياة الفكرية يأخذ بالمنحى المادي، منكراً كل ما لا ينتسب إلى العلوم المادية والتطبيقات العملية». [10]

الهوامش:

1. «نقولا الحداد الأديب العالم»، سلمى مرشاق سليم. دار الجديد ـ بيروت 2013.
2. وديع فلسطين، «نقولا الحداد الذي احتل «المقتطف»: شخصية موسوعية نهضوية». جريدة «الحياة» اللندنية، 12 نيسان 1995.
3. سلمى مرشاق سليم، مرجع سابق، صفحة 21.
4. جريدة «الحياة» اللندنية، 22 كانون الثاني سنة 2000.
5. المرجع السابق، صفحة 9.
6. «كان جميع المهاجرين (في مصر) يعتبرون كالمصريين تماماً من رعايا السلطنة العثمانية». وقد أعطت معاهدة لوزان سنة 1924 الحق لجميع رعايا السلطنة السابقين باختيار الجنسية التي يرغبون بها. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة: مسعود ضاهر، «الهجرة اللبنانية إلى مصر (هجرة الشوام)». صفحة 16 وما بعدها.
7. Donald M. Reid, The Odyssey of Farah Antun, page 53.
8. «في اليقظة العربية: الخطاب السوسيوسياسي عند فرح أنطون»، مارون عيسى الخوري. دار جروس برس - طرابلس 1994. صفحة 83.
9. وديع فلسطين، «نقولا الحداد الذي احتل «المقتطف»: شخصية موسوعية نهضوية». جريدة «الحياة» اللندنية، 12 نيسان 1995.
10. المصدر السابق.

4

روز أنطون

(1882 - 1955)

عاشت روز أنطون في ظلال عملاقي فكر وصحافة هما شقيقها فرح أنطون وزوجها نقولا الحداد، فضاعت عطاءاتها وتناستها الدراسات الصحافية والأدبية. وذابت شخصيتها في خضم الاهتمام بما أنتجه فرح ونقولا على حساب ما قدمته هي نفسها في حقل الصحافة التي مارستها عملياً منذ العام 1903 عندما ساعدها شقيقها على أنشاء مجلة «السيدات والبنات» في الإسكندرية، وأعانها في تحريرها لمدة سنتين.

وقد استمرت هذه الظلال في التعتيم عليها حتى يومنا هذا، على الرغم من توسع الأبحاث التي أزالت كثيراً من الستائر عن دور المرأة في النهضة الأدبية والاجتماعية والفكرية في النصف الأول من القرن الماضي. ولعل روز، بسبب شهرة أخيها وزوجها، كانت الأكثر عرضة لظلم مؤرخي الصحافة والأدب... إلى حد أن كتاباً موسوعياً بعنوان «قضية المرأة» الصادر في ثلاثة أجزاء (تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب) لم يتضمن أي مقال لها على الإطلاق.

ويبدو لنا أن روز كانت على دراية بذلك الواقع المؤلم، إذ نراها تقول في محاضرة بعنوان «تأثير الأم في تربية الأولاد»: «حتى إذا عملت المرأة عملاً خارجاً عن دائرة اختصاصها نسبوه للرجل لا لها. فإذا كتبت أو ألفت أو نظمت قالوا الرجل هو الذي كتب وألف ونظم (...) وكم كان هذا سبباً ليأس النساء في شرقنا، مع أن النجاح في فنون الكتابة والإنشاء والنظم إلى غير ذلك ميسور للمرأة كما هو ميسور للرجل على السواء». (مجلة «السيدات والرجال»، العدد السابع، السنة السادسة، أيار 1925).

ولدت روز في طرابلس الشام (لبنان)، وفيها التحقت بمدرسة البنات الأميركية. هاجرت إلى مصر ملتحقة بأخيها فرح الذي كان قد سبقها إلى الهجرة في سنة 1897، ووقعت عقداً مع المرسلين الأميركيين لإدارة مدرسة للبنات تقع في حي الإبراهيمية في مدينة الإسكندرية حيث عملت مدّة ثلاث سنوات. وكان فرح قد أسس في 15 أيار سنة 1899 مجلة «الجامعة العثمانية»، فأخذت روز تكتب فيها بين الحين والآخر. وعندما انتهى عقد العمل مع المرسلين الأميركيين، قررت البقاء إلى جانب أخيها في الإسكندرية، فساعدها في الحادي عشر من نيسان سنة 1903 على تأسيس مجلة شهرية خاصّة بها، دعتها «مجلة السيدات والبنات»

توقفت عن الصدور في عامها الثاني، ثم عاودت الظهور في عامها الثالث بعنوان «مجلة السيدات». وظلت تصدر حتى سنة 1906.

بعد ذلك هاجرت روز مع أخيها فرح وخطيبها الأديب الصيدلاني نقولا الحداد إلى الولايات المتحدة الأميركية سنة 1907 للعمل على إصدار مجلة «الجامعة» من مدينة نيويورك. وقد شاركت بفعالية في إدارة المجلة وتحريرها هناك، كما ساعدت أيضاً في أعمال العائلة التجارية بعد فشل المشاريع الصحافية المشتركة. ثم تزوجت من نقولا في 20 آب سنة 1909 ورزقا ثلاثة أبناء هم فؤاد وكوزيت ولورا (ولدوا بعد الرجوع إلى مصر). ويؤكد صديق العائلة وديع فلسطين واقعة الزواج في أميركا، من دون أن يحدد التاريخ.[1]

في أعقاب عودة الحياة الدستورية إلى السلطنة العثمانية سنة 1908 وبروز بوادر إنفراج سياسي في المنطقة، قررت العائلة مجتمعة العودة إلى مصر سنة 1909 حيث استأنف فرح إصدار مجلة «الجامعة» التي لم يظهر منها سوى عددين: الأول في كانون الأول سنة 1909 والثاني في كانون الثاني سنة 1910، ثم توقفت نهائياً عن الصدور. وفي حين واصل فرح الكتابة في مطبوعات عدة منها «الجريدة» و«المحروسة» و«اللواء» و«البلاغ المصري» و«مصر الفتاة» و«الوطن»، عمد نقولا إلى تأسيس صيدلية في حي شبرا بالقاهرة، وعمل في الوقت نفسه في مجلة «المحروسة» لصاحبها إلياس زيادة والد الأديبة المعروفة مي زيادة.

لا تتوافر بين أيدينا معلومات كثيرة موثقة عمّا قامت به روز في الفترة التي أعقبت عودتهم من نيويورك. لكن يمكننا تصور أنها اهتمت بمتابعة شؤون العائلة ريثما يكون الأبناء قد كبروا، وإلى أن تستقر أوضاع الزوج العملية. إضافة إلى بعض النشاطات الاجتماعية والفكرية المختلفة. ويذكر وديع فلسطين أن روز كانت من العضوات البارزات في «نادي سيدات القاهرة» الذي كان «يضم نخبة من كرائم السيدات، مصريات وأجنبيات، وله بدوره نشاطه الاجتماعي والثقافي العريض».[2] وما أن أطل العام 1921 حتى قررت روز إعادة إصدار مجلة «السيدات» التي ظلت تحمل هذه التسمية لغاية سنة 1925 عندما تغيرت إلى «السيدات والرجال»، وكان شعارها «نهضة الشرق بنهضة نسائه»...

لكن هذه المرة بالتعاون مع زوجها الذي كان المدير المسؤول، وفي الوقت نفسه محرر القسم الرجالي في حين تولت هي تحرير القسم النسائي. وبقيت المجلة تصدر في القاهرة لغاية سنة 1932.

لم تكن مجلة «السيدات والبنات» الأولى من نوعها في مصر، فقد سبقتها جريدة «الفتاة» التي أصدرتها هند نوفل في الإسكندرية سنة 1892. ثم تتابعت المطبوعات التالية: «الفردوس»، لويزا حبالين 1896. «مرآة الحسناء»، مريم مزهر (الإسم المستعار لسليم سركيس) 1896. «أنيس الجليس»، ألكسندرا أفرينوه 1898. «العائلة»، أستير أزهري مويال 1899. «شجرة الدر»، سعدية سعد الدين 1901. «المرأة»، أنيسة عطاالله 1901. «السعادة»، روجينا عواد 1902. «الزهرة»، مريم سعد 1902. «الموضة»، مريم وسليم فرح 1902. ثم «السيدات والبنات»، روز أنطون 1903. وكل هذه المجلات صدرت إما في القاهرة أو الإسكندرية.

ونرى لزاماً هنا أن نذكر الكاتبة الصحافية السورية ماري عجمي التي أسست مجلة «العروس» سنة 1910 لتكون أول مجلة نسائية باللغة العربية في سوريا، والتي واصلت إصدار هذه المطبوعة الأولى من نوعها على الرغم من ظروف القهر العثماني (المختلفة تماماً عن شروط الحرية النسبية في مصر). فقد ارتبط كفاح ماري من أجل المرأة بالدفاع عن أحرار سوريا المطالبين بالاستقلال. ومواقفها من شهداء السادس من أيار سنة 1916 فريدة حقاً بالنسبة إلى امرأة في ذلك الزمان.[3] ونقترح إبقاء هذه التفاصيل في أذهاننا ونحن نتابع مقالات روز في النصف الثاني من عشرينات القرن الماضي، عندما راحت تتناول سياسات الانتداب الفرنسي والانتداب البريطاني في بلاد الشام.

وفي هذا السياق، علينا أن نضع هذه المطبوعات في إطار تباشير عصر النهضة الذي عاشته المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين. فقد احتلت مسألة ترقية أوضاع المرأة مكانة مهمة كخطوة لا بد منها لإنهاض المجتمعات العربية كما يبدو ذلك واضحاً في الشعار الذي اتخذته مجلة «السيدات والرجال» لنفسها: «نهضة الشرق بنهضة نسائه». ويمكننا

تلمس تطور الاهتمام بالموضوعات النسائية من خلال متابعة تخصيص المطبوعات الأولى قسماً من صفحاتها للمسائل «العائلية». فقد صدرت مجلة «المقتطف» سنة 1882 وفيها باب «نسائي» تحت عنوان «باب تدبير المنزل» ما يعكس نظرة المجتمع آنذاك إلى دور المرأة. لكن الأمر تطور لاحقاً عندما أصدرت نوفل مجلتها «الفتاة» سنة 1892 لتطالب بتخليص المرأة من قيود الجهل. وبعد ذلك تفتحت الأبواب، فأبدت «الهلال» التي أصدرها جرجي زيدان سنة 1892 اهتماماً بصحة العائلة بصورة عامة، قبل أن يتحول ذلك إلى قسم نسائي قائم بذاته سنة 1902.

ونلاحظ في المطبوعات المبكرة تفاوتاً في المواضيع التي «يجرؤ» بعض الأقلام على تناولها. ففي حين ركزت المجلات النسائية، خصوصاً تلك التي يصدرها «الشوام المسيحيون»، على تربية الأولاد والتعليم بما في ذلك التعليم المهني والعناية بالصحة والمهن اللازمة للمرأة ومشاكل الزواج ومكارم الأخلاق والرياضة البدنية والتدبير المنزلي وغيرها... كانت مجلة «الجامعة» تفتح صفحاتها أمام قاسم أمين لمناقشة إشكاليات اجتماعية حساسة مثل تعدد الزوجات والطلاق والمهر والحجاب والاختلاط.

لكن بصورة عامة، ظلت المواضيع الخاصة بالمرأة في صحافة تلك الأيام محكومة بنظرة المجتمع التقليدي إلى الجنس اللطيف. «وكان من الأمور المفترضة أيضاً أن مواضيع النساء أقل أهمية من مواضيع الرجال. وساد الاعتقاد بأن النساء يكتبن عن الحب والأسرة والزواج والأطفال، بينما يكتب الرجال عن الحرب والإيديولوجيا والدين».[4] غير أننا سنلاحظ كيف أن روز تمكنت بذكاء من توسيع إطار موضوعاتها لتتناول مسائل اجتماعية وسياسية حساسة وصعبة، خصوصاً في السنوات الأخيرة من عمر «السيدات والرجال»، أي في النصف الثاني من عشرينات القرن الماضي. ولعل ذلك يرتبط بتغير أوضاع مصر التي بدأت «حقبة جديدة بعد إعلان استقلال مصر الرسمي عام 1923 هي الحقبة الليبرالية، وتراجعت مكانة الأزهر بعض الشيء ومعها مكانة العلماء المحافظين (...) فانقسمت الصفوة بين مؤيدين للعلمانية وبين رافضين لها».[5]

يمكننا التأكيد على أن روز وجدت في «السيدات والبنات» ثم في «السيدات والرجال» مجالاً واسعاً للتعبير عن آرائها في مجمل القضايا المتعلقة بأوضاع المرأة «الشرقية»، خصوصاً في مصر وبلاد الشام. وقد احتضنت هاتان المطبوعتان معظم نتاجها الذي كان، بصورة إجمالية، عبارة عن مقالات صحافية في مجالات متنوعة... إلى أن أنشأت لنفسها واحة دائمة تحت عنوان «في مجالس السيدات» أصبحت هي المنبر الذي من خلاله تستعرض روز مع سيدات أخريات النزعات الاجتماعية والمقاربات السياسية والقيم الأخلاقية في مجتمع يشهد انفتاحاً متسارعاً على العالم الخارجي.

لم تصدر روز أي كتاب طيلة حياتها، على نقيض زوجها نقولا الذي نشر عشرات الكتب العلمية والروائية والاجتماعية. ويقول وديع فلسطين إن روز «كانت تعتز بكتاب من تأليفها، عنوانه «مقام المرأة الاجتماعي في التاريخ»، تم جمع مادته وطبعه على هيئة ملازم انتظاراً لمقدمة وعدت هدى شعراوي، رائدة الحركة النسائية، بكتابتها. لكن مرض الرائدة ثم وفاتها سبقا كتابة المقدمة الموعودة، فبقي الكتاب مهملاً كملازم في إحدى المطابع ولم يصدر أبداً، وإن كانت استطاعت استنقاذ نسخة كاملة من هذه الملازم أهدتني إياها (سنة 1954)».[6] وقد علمنا من الباحثة سلمى مرشاق سليم أن وديع فلسطين أهداها هذه الملازم الطباعية، وقد زودتنا ـ مشكورة ـ بصور عن بعض الفصول ومن بينها التمهيد والفهرست. وتعتقد السيدة سلمى، إنطلاقاً من نوع الورق والحروف المستخدمة للطباعة، بأن هذه الملازم أعدت في دار مجلة «المقتطف» عندما تولى نقولا الحداد رئاسة تحريرها لمدة تسعة أشهر بين 1949 و1950. ونشير إلى أن روز نشرت بعض المقالات في «المقتطف» في تلك المرحلة يتصل معظمها بقضايا المرأة.

يتألف الكتاب المخطوط من أربعة عشر فصلاً: المرأة الهمجية، منزلة المرأة في أدوار الحضارة الأولى، استعباد المرأة الرسمي، البغاء، فجر نهوض المرأة، النساء النابغات في التاريخ، نابغات النساء في العلم والعمل، تعليم المرأة، المرأة في دوائر الأعمال والإدارات، حقوق المرأة الشرعية، مقاومة الرقيق الأبيض، حق

المرأة السياسي، النهضة النسائية في الشرق، ماذا يكون شأن المرأة في المستقبل؟ وسيتبين لنا، عند متابعة مقالات روز في مجلة «السيدات والرجال» خلال مرحلتها الثانية والأخيرة، أن هذه الموضوعات كانت محط اهتمامها على الدوام مباشرة ومداورة.

نحن نعتقد بأن هذا الكتاب، الذي لم يرَ النور، كان من أواخر المشاريع الإعلامية التي عكفت عليها روز. لعلها كانت تريد أن تترك للأجيال القادمة نتاجاً يتجاوز المقالات الصحافية التي غالباً ما تضيع في غياهب الأوراق الصفراء إذ يعلوها الغبار في المكتبات العامة ودور الكتب الوطنية. ولذلك لم يعد مؤرخو الأدب في عالمنا العربي يذكرون من عطاءات روز سوى أنها شقيقة فرح أنطون وزوجة نقولا الحداد.

تصف روز تأثير شقيقها في حياتها بالعبارات التالية التي سجلتها في العدد التذكاري الخاص بتأبين فرح، والذي أصدرته مجلة «السيدات والرجال» في أيلول سنة 1923:

> «وكان الأخ العزيز القدوة الصالحة لي والمرشد الحكيم والمعلم الصادق. فقد درست عليه أكثر مما درست في مدرستي، وتعلمت منه مبادئ وآداباً أكثر مما تعلمت في مدرسة الاختبار، وقد كسبت منه أخلاقاً وفضائل أكثر ماكسبت من سائر أهلي لأني بعد خروجي من المدرسة لم يكن غيره عشيري وسميري. فكل أدب أزدان به الآن كان منه وكل خلق أتحلى به كان مقتبساً من أخلاقه. وكل علم أعلمه كان من بحر علمه. وإذا أحسنت عملاً فالفضل فيه له. وقد كان لي في عواطفه مرآة الحب الصادق الطاهر. ومن روحه تشع في قلبي أشعة هذا الحب».

ربما تلوّنت هذه العبارات بمشاعر الأخت المفجوعة بخسارة أخيها، لكنها في الوقت نفسه حملت كثيراً من الدقة في وصف العلاقة الفكرية التي جمعتهما معاً. وقد ظلت روز أمينة على المنهج العام الذي سار عليه فرح، وهذا ما سنراه بوضوح في مراجعتنا لمجلة «السيدات والبنات» ثم لمجلة «السيدات والرجال».

الهوامش:

1. وديع فلسطين، «من مقالات وديع فلسطين في الأدب والتراجم». صفحة 77.
2. جريدة «الحياة»، 12 نيسان 1995.
3. «موسوعة الكاتبة العربية»، مجموعة مؤلفين. الجزء الأول، صفحة 187.
4. د. بثينة شعبان، «100 عام من الرواية النسائية العربية». صفحة 12.
5. هالة مصطفى، «الإسلام السياسي في مصر من حركة الإصلاح إلى جماعات العنف». صفحة 124.
6. جريدة «الحياة»، 12 نيسان 1995.

5

مجلة «السيدات والبنات» في مَرحَلتها الأولى (1906 - 1903)

الخصر ـ واظن بعض السيدات يذكرن ان هذه الموضة كانت منذ ١٠ سنوات ايضاً ۰ والآن قد عادت ۰۰ ومما يسر سيدات الاقتصاد ان الاكمام دارجة ضيقة ويقولون انها ستبقى وقتاً طويلاً هكذا ۰ اما من جهة التنورة فتفاصيلها مختلفة منها ما كان كلها كرايش حتى الخصر ومنها ما كان مغبناً حتى الخصر ۰ ومنها بكورناش عريض مغبن صغير عليه التخاريج ۰ اما التنورة التي تُلبس على شميزات من لون آخر فيجب ان تكون بدون تخريج وتفصيلها بغاية البساطة ۰ وتلبس التنورة طويلة جداً وذلك لاخفاء الحذاء (المركوب) لان الموضة تقول (???) ليس من صفات السيدة اللطيفة ان تري الناس حذاءها ۰ اذاً يجب ان تبطل موضة الاحذية خصوصاً الاحذية ذات الكعب العالي والضيقة التي يتعبون السيدات بغلاظتها

اما البرانيط فالدارج منها البرنيطة المسطحة وكلها مغرزة بالزهر بدلاً من وضعه عليها فقط ۰ او تكون مكلفة بالريش وريشة منها تُدلى من وراء القبعة بدلاً من الشريط كما ترين في برنيطة الصورة هنا ۰ وقشة البرنيطة دارجة ملونة اي قش ازرق او نبيا زهري او رمادي ۰ اما البرنيطة السوداء سادة والبرنيطة البيضاء سادة فهما دائماً موضة ۰ وقد تصنع الموضيسنه (اي الخياطة صاحبة الموضة) ورداً وتعمله ومن حرير ناعم جداً يُسمى (موصلين دي سوى) اي موصلين حريري وتكلف به البرنيطة ۰ واما هيئة البرنيطة فمرتفعة من قدام الى وراء او نازلة لقدام فيسمونها (برنيطة الراعي) والتي لوراء (برنيطة البحري)

اما موضة الشعر فهي ان ينزل الشعر ويوضع علي الرقبة من وراء ويكون نازلاً تحت الرقبة قليلاً ۰ ويُربط بنصفه شريطة حرير ومن امام يصنع حسب موضة مدام نبدور اسي مدوّراً

اما موضة الكورسه (المشدّ) فلا احب ذكرها لانها مما تضر انما اذكر شيئاً عنه مما يريح من الشد وهو ان توضع شريطة المشد الذي يُشد بها من حرير بدلاً من القطن فان ذلك مما يريح الابنة قليلاً من بعض جوره

واذا كانت اصناف الموضة قليلة في هذا الشهر فذلك لانه اول شهر الربيع ولكنها ستكثر تدريجاً بقدوم ايام الصيف

هذا واذا كان الخواجات قد ضحكوا كثيراً من قراءة الامور التي تقدمت ولم يفهموا منها شيئاً فان السيدات يفهمنها كلها ويسرهنّ الاطلاع عليها ۰ ولا ريب عندنا ان العاقلات منهن يطلعن عليها على سبيل العلم بها فقط

الجزء الثاني ـ ١ مايو سنة ١٩٠٣ ـ السنة الاولى

مجلة

السيّدات والبنات

ما دامت الام تحرس ويرشد النسل البشري في العالم

الجنة تحت اقدام الامّهات

تُقاس درجة مدنية الامم من النظر الى نسائها ۰ فحيثما يكون علو الهمم والاقدام والارتقاء فهنالك النساء الكاملات

اذا اردتم اصلاح الهيئة الاجتماعية فاصلحوا النساء وبهذا الاصلاح يُصلح الجنس البشري لانهن مربياته ومدبراته

ضرورة المطالعة وضررها

المطالعة كالنار : تحرق المطالع اذا كان ما يطالعه رديئاً وتنيره اذا كان مفيداً

كثيراً ما يختلف الكتّاب والقراء في هذه المسألة « هل مطالعة الروايات ضارّة ام نافعة » فمنهم من ينادي بضررها ومنهم بفائدتها ۰ اما نحن فاننا نشبه

من المؤكد أن مشروع إصدار مجلة نسائية عائلية كان من بنات أفكار فرح أنطون الذي، على ما يبدو، أراد مطبوعة مستقلة ذات توجهات تربوية حديثة ترافق مجلته الأساسية «الجامعة العثمانية» التي كان العدد الأول منها قد صدر في 15 آذار سنة 1899. يقول فرح في مقدمة ذلك العدد: «وستصرف (أي «الجامعة») معظم همها إلى المباحث التهذيبية فيكون فيها ما عدا المباحث الأدبية والسياسية والتاريخية باب للتربية والتعليم مفتوح للكتاب والأدباء يبحثون فيه معنا في إصلاح طرق التعليم والتربية في مدارس الشرق، وباب آخر للمرأة والعائلة مفتوح للكاتبات الأديبات يبحثن فيه معنا أيضاً في تحسين حالة المرأة والعائلة في بلاد الشرق ليكون النسل الناشئ خلقاً جديداً فيه ما يجب من فضائل الغد وليس فيه شيء من رذائل الأمس فإن هذا دون سواه طريق كل إصلاح في كل هيئة اجتماعية».

وقد ظلت «الجامعة» ملتزمة بالخطوط العريضة التي حدّدها لها فرح إلى أن أصبحت متقطعة الصدور، فلم يظهر منها سوى خمسة أعداد سنة 1902 وستة أعداد سنة 1903 وعددين فقط سنة 1904. كما أحدث فرح تغييراً في اسم المجلة ابتداء من العدد الثالث عشر، فأسقط صفة «العثمانية» ليبقي على «الجامعة». وترافق ذلك مع تغيير في الأبواب، حيث غاب باب التربية والتعليم وباب تدبير الصحة.

في تلك المرحلة الانتقالية من نشاط فرح الفكري والصحافي بالذات، وقد كانت شقيقته روز منخرطة في التعليم بإحدى مدارس مدينة الإسكندرية، نشأت فكرة مشروع إصدار مجلة نسائية عائلية تربوية. «وكأن الرجل كان يحاول من وراء ذلك استكمال مشروعه الفكري، فبينما هو يلح في «الجامعة» على الشأن السياسي والاجتماعي عامة، تختص مجلة «السيدات» بالجانب النسائي وأهمية تعليم المرأة وتحريرها وتوجيهها بما ينسجم مع دورها البيتي والاجتماعي والإنساني سواء بسواء».[1]

أما سبب تسمية المجلة فنعرفه في العدد السادس (أيلول 1903)، حيث ورد السؤال التالي: «لماذا سميتم المجلة «مجلة السيدات والبنات»، فهل البنات

لسن سيدات؟» وكان الجواب: «في اللغة العربية لا توجد كلمة خصوصية للسيدة المتزوجة والإبنة الغير متزوجة، فاصطلحنا في المجلة على تسمية المتزوجات «سيدات» إذ لهن منازل يسدن فيها. وأما الغير متزوجات فهن بنات كما يسميهن الناس في كل مكان. وفضلاً عن ذلك فإن المجلة غير مخصصة بالعائلات فقط بل بالمدارس أيضاً. وتلميذات المدارس ينادين دائماً بكلمة «بنات» وهذا سبب التسمية. وقد قال بعضهم إنه كان يتمنى أن تسمى المجلة «مجلة العقائل والأوانس». فالجواب أن استعمال «العقائل والأوانس» للمتزوجات والغير متزوجات إنما هو اصطلاح كباقي الاصطلاحات. فلماذا نفضله على سواه؟ ورحماكم لا تدخلوا مجلة نسائية في الخلافات والانهماكات اللغوية...»

وعلى مدى أعداد سنتي الصدور اللتين شكلتا عمر مجلة «السيدات والبنات» بين 1903 و1906 في الإسكندرية (كانت المجلة تغيب لأشهر متتالية في بعض السنوات)، فإن مصيرها ظل مرتبطاً بمصير مجلة «الجامعة»، تتوقف مؤقتاً عندما تُجبر الظروف السياسية والفكرية «الجامعة» على التوقف لفترة من الزمن وتغيب نهائياً عندما يقرر فرح أنطون السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية كي يجرب حظه الصحافي هناك.

صدر العدد الأول من «مجلة السيدات والبنات» في أول نيسان سنة 1903 باثنتين وثلاثين صفحة. ومن المؤسف أن المجلد المتوافر في دار الكتب الوطنية في القاهرة «خسر» الصفحات الأربع الأولى والغلاف من العدد الأول، ولم نتمكن من العثور على هذا العدد في دور الكتب الأخرى أو مراكز الأبحاث المتخصصة. لكن اعتماداً على العدد الثاني الكامل، نرى أن العنوان جاء على خلفية رسم يصوّر ملاكاً حارساً على شكل امرأة تقود بيدها الحانية طفلاً، وإلى جانب الرسم العبارة التالية: «ملاك الأم يحرس ويرشد النسل البشري في العالم»، ثم يرد القول المشهور «الجنة تحت أقدام الأمهات». وفي صدر الغلاف العبارتان التاليتان: «تُقاس درجة مدنية الأمم من النظر إلى نسائها. فحيثما يكون علو الهمم والإقدام والارتقاء، فهنالك النساء مالكات»، و«إذا أردتم إصلاح

الهيئة الاجتماعية فاصلحوا النساء. وبهذا الإصلاح يُصلح الجنس البشري لأنهن مربياته ومدرباته». وتعرّف المجلة نفسها بأنها «مجلة نسائية للعائلات لصاحبتها روزه أنطون». وفي مكان آخر «مجلة نسائية للعائلات والمعلمين والمعلمات».

هذه العبارات توضح للقراء الغاية من إنشاء هذه المجلة. فهي خاصة بكل ما يتعلق بالنساء (عازبات وأمهات)، وبرعاية النشء الجديد، ورفع مستوى العائلة كونها نواة المجتمع، وتقديم دليل علمي للمعلمين والمعلمات في كيفية تربية الأجيال الطالعة. لكن الهدف الأبعد هو «إصلاح الهيئة الاجتماعية» ونقلها إلى مصاف المجتمعات المدنية من خلال إصلاح حال المرأة على مختلف الأصعدة. وهذا ما يندرج في سياق المشروع النهضوي الذي كان فرح يعمل عليه في مجلة «الجامعة»، وجاءت الآن شقيقته روز لمشاركته فيه من خلال «مجلة نسائية للعائلات».

إن تركيز المجلة على شؤون التعليم كان مرتبطاً بالواقع الاجتماعي في مصر. إذ يبدو أن مدارس الجاليات الأجنبية حظيت برعاية خاصة مقارنة بالمدارس الوطنية، خصوصاً لجهة فتح مجال الدراسة أمام الفتيات. يقول سلامة موسى الذي عايش تلك الفترة: «... وتقدمت الآنسة نبوية موسى لنيل الشهادة الثانوية في سنة 1907 من بيتها، فرفض دنلوب المستشار الإنكليزي لوزارة المعارف قبولها في الامتحان. ولكنها استمرت في الكفاح، وأحدثت ضجة في الجرائد، وتقدمت في السنة التالية، فقُبلت ونجحت. ولكن الإنكليز تنبهوا، فلم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية منذ 1908 إلى 1929، حين تقدمت الفتيات اللاتي أنشأت لهن وزارة المعارف مدرسة ثانوية سنة 1925».[2]

ومنذ البداية، أوضحت المجلة في عددها الأول أن صاحب «الجامعة» سينشر مقالاته موقعة بثلاثة أنجم (***)، في حين أن باقي المقالات غير الموقعة سيكون بقلم صاحبة «السيدات والبنات». وقد عادت الإدارة لتؤكد هذا الأمر في العدد الرابع (تموز 1903)، حيث نشرت سؤالاً لإحدى القارئات: «ما معنى وضع ثلاثة أنجم تحت بعض المقالات في المجلة؟» وأجابت عليه: «راجعي الجزء الأول تعرفي أن معنى ذلك أن المقالة الموضوعة تحتها ثلاثة أنجم هي بقلم صاحب

مجلة «الجامعة» وذلك تمييزاً لها عن المقالات التي تكتبها صاحبة المجلة».

ويبدو أن هذه التساؤلات كانت تخفي شيئاً أبعد يتمثل في شكوك لدى بعض الأوساط الصحافية والأدبية في أن تكون روز هي بالفعل كاتبة تلك المقالات بوجود شقيقها فرح ذي الباع الطويل في العمل الصحافي! ولذلك نجد هذا الأخير يكتب في العدد الخامس (آب 1903) في باب «النساء المظلومات» حواراً بين عدد من النسوة يرّد من خلاله على تلك التقولات. وهو يضع على لسان إحدى السيدات العبارات التالية: «والكلام بيني وبينك أنني سمعتها وأنا داخلة تقول لصاحب «الجامعة» شقيقها: بما أن من لا يعرفني يقول إنك أنت الذي تحرر مجلة «السيدات» كما تحرر «الجامعة»، فالأوفق أن نجعلهم صادقين وأتنازل أنا عما أجده من العناء في تدبير المواد وكتابتها».

ثم يعطينا فرح في هذا المقال صورة عن آلية العمل كما رأتها السيدة ذاتها: «قلت: فاستنار فكري هنيهة أيتها العزيزة كليمة، وذكرت حادثاً صغيراً حدث في إدارة «الجامعة» منذ مدة. فقد كنت هنالك مع صديق لمنشئ «الجامعة» من سوريا. وكان الصديق يقرأ على مقعد وصاحب «الجامعة» يصلح على مائدته بضع أوراق في يده. ولما فرغ من ذلك التفت إلى صديقه وقال له: أنظر هذه الأوراق قبل أن أدفعها إلى مرتبي الحروف. هذه «أصول» مجلة «السيدات والبنات». وقد كتبتها صاحبتها بقلم رصاصي وأنا أمررت عليها الآن قلمي بحبر أحمر. فخذ وقلبها لتعلم مقدار التصرف الطفيف الذي يُتصرف بها. فتناولت أنا الأوراق الممدودة نحونا، فوقعت يدي على صفحة نُشرت في الجزء الرابع عنوانها «الأطفال وتربيتهم الجسدية - الشهر الرابع» فما وجدت فيها سطراً محذوفاً ولا سطراً مضافاً، وإنما هنا كلمة مغيّرة وهناك كلمة محذوفة أو مضافة».

ويضيف صاحب «الجامعة»: «إن صاحبة المجلة تتعب في تحرير مجلتها تعبي في تحرير «الجامعة»، فهي في كل يوم تصرف أكثر أوقاتها في مطالعة الكتب والمجلات الإنكليزية والأميركية التي تردها. وقد طالعت في أسبوع واحد عشرين مجلة مختلفة تختار منها المجلات التي يجب أن تعتمد عليها. وفي أثناء مطالعتها هذه

تضع علامات بقلم رصاص على أهم المواضيع التي تعثر عليها. ثم تأخذ أبواب المجلة باباً باباً وتشرع في الكتابة لها. وكلما فرغت من باب تناولت باباً، فلا يأتي العشرون من الشهر حتى تجتمع عندها مجموعة مقالات وفصول وشذرات. وهي مواد الجزء القادم. فأتناولها منها قبل إنتهاء الشهر ببضعة أيام. وبعد أن أمر عليها القلم كما ترى أدفعها لمرتبي الحروف. فليس ثمت مجال لسؤ الظن والمزاح الذي لا محل له في شأن كهذا الشأن، لأنني لست من الذين يرضون الرياء لأنفسهم فكيف لأكرم الناس عليهم. ولا صاحبة المجلة تجيز لها نفسها أن ترضى بهذه المنزلة».

ويعود فرح إلى الموضوع ذاته في العدد السابع من السنة الثانية (أيار 1906) ليقول تحت عنوان «عودة مجلة السيدات» في بيان إلى القارئات والقراء قبيل سفره إلى نيويورك: «وإذا كان أحد يخسر في هذا الانتقال فهو أنا. ولست أريد بذلك أنني أفقد الوطن والأهل والخلان فقد تكلمت عن خسارتي هذه بأسف وكآبة في المنشور الملحق بهذا الجزء. وإنما خسارتي التي أريد أن أشير إليها هنا في صدر مجلة السيدات هي فراق شقيقتي صاحبة المجلة.

«أن بعض ذوي الصحف والألسنة المازحة الذين لا يعرفون صاحبة المجلة ضايقوها في المدة الماضية بإشارتهم تلميحاً أو تصريحاً إلى أنني أنا الذي أتولى تحرير المجلة برمتها وأن صاحبتها ليس لها شيء فيها غير الاسم كما كان ذلك لبعض من تقدمنها من الكاتبات العربيات. وقد كانت هذه التهمة تؤلمها في بدء الأمر ثم تعودت عليها. فنعم أنا أساعدها في ترتيب المواد وتنقيحها وكتابة الفصول الموقعة بهذه العلامة (***) أي ثلاثة أنجم كما تعلم قارئات هذه المجلة. ولكن الذين يذكرون مساعدتي هذه لها لا يعلمون أنني مديون لها بمساعدة إن لم تكن أكثر منها فمثلها. فليعلموا الآن أنني لم أطبع سطراً حتى الآن في «الجامعة» وكتبها إلا بعد أن أطلعت هي عليه ونظرت فيه. وكم من مرة في المناظرات الصعبة والمواقف النحيفة غيّرت عزمي من شيء إلى شيء»!

ونحن نعرف أن روز كانت مدرّسة، لكن يظهر أيضاً أنها كانت تكتب وتنشر في المطبوعات المصرية آنذاك وإن بصورة محدودة. ففي العدد الثاني من المجلة (أيار

1903) مقال بعنوان «هل في الدنيا سعادة؟»، جاء في هامشه التوضيح التالي: «مقالة لصاحبة المجلة نُشرت في غير هذه المجلة»، من دون ذكر اسم المطبوعة المعنية!

إذن نحن أمام جهد مشترك في إصدار المجلة. ويعطينا تقسيم أعدادها الأولى فكرة عن الموضوعات التي كانت روز وفرح يريان فيها الأدوات المفيدة لنقل أفكارهما إلى القارئات تحديداً. فإلى جانب المقال الإفتتاحي الذي يبدأ تحت صورة الغلاف ويستمر في الداخل، نجد الأبواب التالية: مختارات نسائية، مسائل اجتماعية (مثل الرقص الإفرنجي ونظامه)، أشهر النساء، الأم والولد والمدرسة، التربية الأدبية، الأطفال وتربيتهم الجسدية، المنزل والمطبخ والمائدة، أخبار نساء الغرب، أخبار نساء الشرق في صحافته، النساء المظلومات، القصص الشهرية، فوائد وفكاهات، صحيفة الزينة، صحيفة الأزياء، أسئلة صحية وأدبية، مطبوعات جديدة، ومراسلات القارئات.

وقد أوردت إدارة المجلة في العدد الأول الملاحظة التالية (صفحة 25): «اتبعنا في هذا الجزء بروغرام الإعلان الذي نشرناه تماماً، ولم نغفل سوى باب الترجمة الذي تأخر إلى الجزء القادم. وستزاد الأبواب أيضاً». وكثيراً ما كانت هذه الأبواب تتغير حسب الحاجة، فنجد على سبيل المثال: نساء الشرق، محادثات السيدات، نصائح جدة، واجبات ربة البيت... ومع ذلك ظلت هناك أبواب ثابتة، وهي كلها تدخل في الرسالة الاجتماعية العامة التي يريد فرح وروز نشرها، من دون أن يتخليا طبعاً عن مهمة الإفادة الأدبية والتسلية والترويح عن النفس.

ولجأت روز، ومن خلفها فرح بالتأكيد، إلى الأسلوب التفاعلي مع القارئات والقراء. وهو أسلوب يصيب عصافير عدة بحجر واحد. فمن ناحية أولى، يوسّع انتشار المجلة ويعزز مردودها المالي. ومن ناحية ثانية، يؤمن تنوعاً في المواضيع المنشورة. لكن الناحية الأهم هي في القدرة على تناول مسائل إشكالية من دون أن تتعرض إدارة المجلة لأي إحراج أمام الرأي العام المصري المحافظ في تلك المرحلة المبكرة. ففي العدد الرابع مثلاً (تموز 1903) تطرح روز موضوعاً للنقاش

بين القارئات: «أيهما أخف ضرراً في رأيك لعب البوكر أم المحادثة والنميمة بالناس؟» وفي العدد الثامن (تشرين الثاني 1903) دعوة للمشاركة: «وإذا كان بعض من قرائنا ووكلائنا الكرام في الولايات التركية وتونس والجزائر والهند ومراكش يتحفنا بوصف المرأة التركية والتونسية والجزائرية والهندية والمراكشية فإننا ننشر وصفه مع الثناء والشكر لأنه من أهم الأمور تعريف نساء الشرق بعضهن ببعض».

غير أننا نلاحظ تجنب روز وفرح الخوض المباشر في مواضيع اجتماعية أو نسائية حساسة، منها الحجاب والاختلاط بين الجنسين وعمل المرأة وتعدد الزوجات وسواها من الأمور. والسبب في ذلك كونهما من «الشوام المسيحيين» الذين يتحركون في أجواء إسلامية متزمتة. وقد أعطانا الكاتب المصري سلامة موسى صورة معبرة عن ذلك الواقع بقوله: «لم يستطع يعقوب صروف أو فرح أنطون أن يفتحه لي من قبل. فإنهما لم يمسا هذا الموضوع، أي حرية المرأة، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان، وكانا بالطبع يخشيان أن يُعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد الإسلامية».[3] ومع ذلك، وجدت روز طريقة أخرى للتطرق إلى تلك المسائل من خلال باب «أسئلة صحية وأدبية»، وهي صورة مختلفة ومضمونة للعلاقة التفاعلية مع القارئات.

في العدد الخامس (آب 1903) نقرأ السؤال التالي: «لي صديقة عزيزة تعتقد مثلي أن الحجاب لم يعد له معنى في هذا العصر وتريد أن تبرز مثلي، ولكن يمنعها من ذلك الحياء ومراعاة العادة. وقد اجتهدت كثيراً لكي تتغلب على عواطفها فلم تقدر مع أنها مقتنعة بأنه لا فائدة من الحجاب قطعياً. فما الطريقة لتقوية قلبها ومنع ذلك الضعف؟» ويأتي الجواب: «يظهر أن صديقتك رقيقة العواطف كريمة، فبدل أن تلوميها على ضعفها إمدحيها لتعقلها. إذ مراعاة العادات الحسنة التي تكون الإبنة قد ربيت عليها هي وأهلها مما يستحق المدح. فرفع الحجاب لزيادة حرية المرأة أمر حسن ولكن ذلك ينبغي له التدريج شيئاً فشيئاً. وبما أن المقصود من هذا الرفع الخير للمرأة وللعائلة فينبغي أن تتخذ كل الوسائل التي تمنع حدوث شرور جديدة من وراء هذا الرفع لأول وهلة».

ونكتشف من خلال بعض الردود أن روز أظهرت ميولاً محافظة في صدد عدد من الظواهر الاجتماعية، وإن كانت منفتحة جداً بل وتقدمية في شؤون التربية والتعليم وتثقيف المرأة. في العدد السابع (تشرين الأول 1903) ورد السؤال التالي: «كثيرون يعترضون على ذهاب المدموازل وحدها سواء كان ذلك لزيارة صديقاتها أو لشراء حاجاتها، والبعض يتساهلون به. فأي فريق هو المصيب برأيه؟» وكان الجواب على الشكل التالي: «إن هذا يتبع الموضة الدارجة أيضاً. ولكن بالحقيقة لا يجوز أن يكون موضة بل يتبع العادة التي رُبيت عليها. فإذا كانت قد رُبيت على معرفة إدارة نفسها ولها القدرة أن تذهب دون أن يُحدث خروجها وحدها قصصاً وأحاديث فلا بأس بذلك. وأما إذا كانت الفتاة غير متعودة ذلك ولا تقدر أن تخرج لوحدها بهدوء وترجع بهدوء فلا يجب الإذن لها بذلك قطعياً. كل من زار المدن الكبرى كمصر والإسكندرية وغيرها وسمع عن بعض السفلة قصص تطاولهم على البنات والنساء عند مرورهن في الأسواق والشوارع يحكم أنه خير للنساء والبنات أن لا يخرجن من منازلهن وحدهن إلا راكبات في المركبات أو مع رجل من أنسبائهن».

وفي العدد الثامن (تشرين الثاني 1903) نقف عند السؤال التالي: «أنني أحب الرقص الإفرنجي كثيراً والذهاب إلى التياترو أكثر، وأهلي يعارضونني في ذلك. فلماذا هذه المعارضة لأمر كهذا لا ضرر منه؟» فكان الجواب: «قولك لا ضرر منه قولٌ غريب. نعم إن حركة الرقص تروّض الجسم، وفي حضور الروايات الأدبية بعض الفوائد. ولكن الرقص لا يجوز للإبنة المهذبة إلا في بيتها أمام أهلها. وليته يبطل قطعياً. لا نحب لك ولا لأحد من الفتيات أن ترقص خارج البيت. وإذا رمت التشبه بالإفرنجيات فتشبهي أيتها العزيزة بالعيال الطيبة لا بالعيال الواطئة. والعيال الطيبة عاداتها كعاداتنا. أما حضور الروايات فلا مانع منه إذا كانت أدبية لا شيء فيها يدنس نفس العذراء الطاهرة. ولكن مع ذلك يجب أن تكون معك أمك أو أحد من أهلك الأقربين، وأن تقللي ذلك لأن بعض الروايات تضر بسامعاتها العصبيات المزاج».

كما نجد في العدد السادس من السنة الثانية (أيار 1905) السؤال التالي: «هل يجوز للخطيبين أن يتكلما وحدهما في جمعية ما؟» لنحصل على الجواب الحاسم الجازم: «لا يجوز للخطيبين أن يتكلما وحدهما في جمعية، ولا يجوز لهما أن ينفردا ويتركا الجمعية»!

ونحن لا نجد توقيع فرح أو روز على أي من المواضيع، وإن كنا نعرف أنهما كانا كل «أسرة التحرير» في المرحلة الأولى. فالمقالات التي تحمل هذا التوقيع (***) هي بقلم فرح، في حين أن الباقي بقلم روز... باستثناء تلك المقالات التي تُنشر تحت أسماء كتابها من خارج المجلة. وهذا ما نقف عليه في الأعداد اللاحقة، فنقرأ على سبيل المثال مختارات شعرية لمصطفى صادق الرافعي وأحمد الكاشف، وقصة بقلم «إحدى القارئات الفاضلات»، ومقالاً للسيدة كاترينا شقرا (من حلوان)، وآخر للسيدة عفيفة كرم (الولايات المتحدة)... وفي باب أسئلة القراء، تؤكد الإدارة رداً على سؤال: «لماذا لا تقبل المجلة مقالات من الرجال؟» بالقول: «ما هذه أول مرة سُئلت فيها المجلة هذا السؤال. ولكن كونوا على ثقة أنه متى ورد المجلة شيء من مراسل أديب وكان يستحق النشر ويوافق مبدأ المجلة فإنها لا تهمله».

وفي العدد الحادي عشر (شباط 1904) نقع على أول مقال يكتبه نقولا حداد الذي سيصبح زوج روز بعد سنوات قليلة. فتحت عنوان «إنكار الذات أساس كل حب متبادل» تنشر المجلة تعليقاً «لحضرة الكاتب الفاضل نقولا أفندي حداد محرر جريدة «الرائد المصري» الغراء»، يتناول فيه مقالاً سابقاً لروز: «سيدتي الفاضلة منشئة مجلة «السيدات والبنات» المحترمة (...) قرأت الجزء العاشر من مجلتك الغراء، فأعجبت بالمقالة الأولى «واجبات الزوجة العاقلة» أيما إعجاب...». ولعل تلك الفترة كانت بداية التعارف والعلاقة التي تُوجت بالزواج لاحقاً. ومن المصادفات الملفتة للنظر أن المقال الأساسي في العدد التالي رقم 12 (آذار 1904) كان بداية سلسلة بعنوان «مشاهدات من الإسكندرية» لـ «كاتب يكتم اسمه حتى عن إدارة المجلة لأن رسائله هذه ترد علينا بالبوسطة»، كما أوضحت إدارة المجلة... فهل كان هذا الكاتب نقولا حداد؟ نحن لا نملك ما يثبت ذلك، لكن التساؤل مشروع!

إبتداء من العدد الأول، نجد باباً ثابتاً تحت عنوان «النساء المظلومات» كتب الحلقة الأولى منه فرح أنطون بتوقيع (***)، وقد استعار شخصية إحدى السيدات لمخاطبة صديقة متزوجة حديثاً. ومن خلال التنصت على حديث السيدة المتزوجة، والرسالة الموجهة لها من صديقتها، نتلمس بوضوح أهداف الأخوين أنطون من مجلتهما. تقول السيدة المتزوجة: «نحن البنات أيتها الرفيقة ندرس في المدارس التاريخ والجوغرافيا ويحشون ذاكرتنا بأسماء البلدان في كل مكان، ولكنا لا ندرس فن تربية الأولاد ولا علم أخلاق الرجال. إسمعي جيداً أيتها العزيزة، إننا ندرس الصرف والنحو وأحياناً الشعر، ولكننا لا ندرس صناعة تدبير المنزل والمطبخ والمائدة. واسمعي أيضاً: إننا ندرس الفرنسوية والإنكليزية والإيطالية وحتى اللاتينية، ولكننا لا نُحث على الرياضة الجسدية ولا ندرس علم حفظ الصحة الذي هو من المبادئ الأولية التي تحتاجها أم العائلة».

ويختم فرح رسالته المقنعّة باقتراح «دواء» لما تشكو منه السيدة المتزوجة، فيكتب قائلاً: «وهذا الدواء هو إنشاء مدرسة مخصوصة لتعليم ما يجب معرفته على كل فتاة. ويكون في هذه المدرسة الطبخ وتربية الأولاد الأدبية والجسدية ودرس أخلاق الرجال وإدارة شؤون المنزل وتنبيه عاطفة الإحسان في نفس الفتاة، وتدبير الصحة وترويض الجسم أتم ترويض، وتعليم مبادئ الكيمياء المنزلية والاقتصاد في النفقة، وتحبيب العمل إلى الفتاة والشغل اليدوي والتصوير وشيء من الموسيقى ـ مقدمة على كل شيء سواها من الدروس. ولا ريب أن مدرستك هذه تخدم الشرق أنفع خدمة لأنها تكون مثالاً لمدارسه وتفيد بنات جنسك أكبر فائدة».

ولعل خبرة روز في التعليم، وتجربة فرح في الصحافة، إندمجتا معاً كي تتحول مجلة «السيدات والبنات» إلى تلك «المدرسة» التي تصوّرها فرح في رسالته الأولى الموجهة إلى «النساء المظلومات». لكن بعد أن كانت «مجلة نسائية للعائلات والمعلمين والمعلمات» في سنتها الأولى، نجد أنها باشرت سنتها الثانية بأن «أصبحت مجلة نسائية عائلية علمية أدبية فكاهية» (تشرين الثاني 1904). وهذا ما يؤشر إلى تبدل طفيف في رسالتها التحريرية، سنلاحظه في طبيعة المواد التي تنشرها.

أشرنا في مكان آخر إلى أن روز مارست مهنة التعليم في مدرسة البنات الأميركية بالإبراهيمية (الإسكندرية) بعدما التحقت بشقيقها فرح في مصر. وفي العدد الثالث من «السيدات والبنات» نشرت مقالاً في الصفحة الأولى تحت عنوان «مدرسة البنات بالإبراهيمية» أعلنت فيه تفرغها التام للعمل الصحافي. وكتبت تقول: «في آخر الشهر الماضي (مايو) أعطت مدرسة البنات الأميركية في الإبراهيمية فرصتها السنوية. وبما أن كاتبة هذه السطور قد صار من الواجب عليها التفرغ للمجلة، فقد رأت نفسها مع الأسف مضطرة بعد الآن لترك هذه المدرسة التي تعبت في تأسيسها مع حضرة مؤسستها الفاضلة مسز فيني، قرينة جناب القس الفاضل المستر فيني المشهور بنشاطه وخدمته الأدبية والروحية في هذه الديار».

والحقيقة أن «هوية» المجلة ظلت موضع تجاذب بين القراء طيلة مرحلتها الأولى. ففي العدد الثاني (أيار 1903)، نقرأ السؤال التالي: «سمعت بعضهم يقول إن «مجلة السيدات والبنات» تهم كثيراً السيدات والبنات والعائلات، ولذلك انتشرت فيها انتشاراً واسعاً، ولكنها لا تهم الرجال. فهل هذا صحيح؟» ويأتي الجواب: «إن صاحب هذا القول مازح يحب الهزل. لأننا لا نصدق أن رجلاً يقول إن أهم المباحث التي يتوقف عليها مستقبل كل أمة وكل عائلة لا تهم الرجال. ولا ريب عندنا أن تدبير المنازل وتربية الأولاد تربية أدبية وجسدية وحفظ الصحة في البيت والاقتصاد والمطبخ والمائدة هي أهم الأشياء التي يجب أن يهتم بها الرجل. ذلك لأنه إذا كانت السيدة هي ربة البيت فالرجل ربه أيضاً، أي له نصفه على الأقل. والأولاد الذين يُراد تربيتهم هم أولاده لا سيما وأن مستقبل عيلته واسمه كله يتوقف على نوع هذه التربية. هذا إذا كان الرجل متزوجاً. أما إذا كان عازباً، فهو لا بد أن يكون مستقبلاً الحياة العائلية الجديدة، وحينئذ يكون اهتمامه بكل ما يتعلق بها اهتماماً مضاعفاً. وفضلاً عن هذا وهذا، فإنه كما أنه يجب على المرأة أن تدرس أخلاق الرجال كي تعرف أطوارهم فلا تقع في فخاخهم وتبذل جهدها لإرضاء زوجها ومجاراته على مشربه، فإنه يجب أيضاً على الرجال

أن يدرسوا أخلاق النساء درساً صحيحاً يمكنهم من إدارة شؤونهن إدارة حسنة يُجتنب فيها كل ما يسوء الفريقين. وهذا يستوجب أن يهتم الرجال بكل ما له علاقة بالنساء. على أن هذا الاهتمام كائن من حسن الحظ ولا حاجة للحث عليه. ولذلك قلما يسّر الرجال شيءٌ مثل قراءتهم شيئاً عن النساء، وقلما يسّر النساء شيءٌ مثل قراءتهن شيئاً عن الرجال. وقد ذكرنا هذا جواباً عن السؤال السابق بقطع النظر عن الأخبار والفوائد والفكاهات والمقالات والقصص الشهرية الأدبية التي في المجلة وكلها تروق النساء والرجال معاً. ويجدر بكل رب بيت عاقل أن يذخرها لزوجته وبناته وأخواته إذا كان عازباً، وأن يصونها ويجلدها لتكون كتاب قاعة الاستقبال وغرفة النوم لسيداته وبناته إذا كان متزوجاً».

وحتى بعد مرور سنة على صدورها وانتشارها على نطاق معقول، ظلت التساؤلات تطرح حول طبيعتها ورسالتها: «أستغرب أن أرى مجلتكم تكتب ضد السيدات في الوقت الذي يجب أن تكون مع السيدات، فلماذا ذلك؟» (العدد الأول، السنة الثانية، تشرين الثاني 1904). الجواب: «حاشا لمجلة السيدات أن تكتب ضدهن لأنها نصيرتهن كما هن نصيراتها، وفي وقت الحاجة يجدنها سيفاً لهن. ولكن لنا نحن السيدات عيوباً كما أن لنا محاسن، فلا يجب أن نغش أنفسنا ونغضي عن تلك العيوب بل يجب أن ننتبه إليها ليزداد كمالنا. ولا شك أن النساء العاقلات يشجعن المجلة على ذلك كما هو ظاهر عندنا من كتبهن اللطيفة وكلامهن المشجع».

حافظت المجلة على وتيرة صدورها المنتظم حتى العدد التاسع (كانون الأول 1903) عندما تأخرت عن موعدها لأسباب أشارت إليها الإدارة في النص التالي: «سبب تأخير هذا الجزء ـ قبل صدور هذا الجزء نشرنا إعلاناً أظهرنا فيه سبب تأخير هذا الجزء ووضعنا هنا في طيه نسخة أخرى منه. وقد سرنا أن الكريمات من القارئات والكرام من القراء ـ وكلهم كريمات وكرام ـ قد قبلوا عذر المجلة في انتظارها هذه المدة لبينما انتهى تأسيس مطبعة الجامعة التي تصدر الآن فيها». والحقيقة أن هذا التأخير مرتبط بما كان يجري في مجلة «الجامعة»، إذ جاء في إعلان آخر ظهر في أعلى الصفحة ذاتها: «مطبعة الجامعة ـ أنشأتها حديثاً (إدارة مجلة

الجامعة) وجمعت فيها كل ما يلزم من الآلات الكبيرة والحروف المتنوعة العربية والإفرنجية والنقوش والمعدات. وهي تطبع بغاية الاتقان وبأسعار معتدلة كل ما يُطلب من المطبوعات التجارية والكتب والجرائد والمجلات باتقان ونظافة».

ويبدو أن المرحلة الانتقالية هذه، ومصاعب أخرى عانتها مجلة «الجامعة» آنذاك، تركت آثاراً سلبية على مواعيد صدور «السيدات والبنات». فابتداء من العدد التاسع، غاب عن ترويسة الصفحة الأولى تاريخ الصدور، وتم الاكتفاء بذكر رقم الجزء (العدد) والسنة فقط. وترافق ذلك مع تراجع ملحوظ في مساهمات فرح في المجلة سواء من حيث الكم أو من حيث النوع. فقد كان يخص الأعداد الأولى من «السيدات والبنات» بالعديد من القصص الموضوعة، في حين نراه في العددين الحادي عشر والثاني عشر ينشر ملخصات لعملين روائيين له منشورين سابقاً هما «أورشليم الجديدة» و«بولس وفرجيني». واكتفى كذلك بنشر ترجمات موجزة لـ «أخبار نساء الغرب»، وملخصات لـ «نساء العرب وأخبارهن»... في حين وقع العبء التحريري الأكبر على عاتق روز.

تبدأ السنة الثانية من عمر المجلة في تشرين الثاني 1904. وظلت تصدر في اثنتين وثلاثين صفحة، لكنها أضافت زوايا جديدة منها «أخبار السيدات» بناء على «طلب كثيرات من القارئات أن نفتح هذا الباب في المجلة (...) ولكن رغبة في اختصار هذا الباب لا نذكر فيه إلا أخبار المشتركين والمشتركات. ولا نذكر الخبر إلا إذا علمنا به من أصحابه بورقة خصوصية». ثم باب «شكاوى القراء والقارئات» الذي ينشر كل ما يرد على المجلة من الآراء والشكاوى «والغرض منه تنفيس كرب الشاكي أو الشاكية بإيصال الشكوى إلى المشكو منه أو المشكوة منها بدون علمهما. والمجلة تقبل لهذا الباب شكاوى بلا إمضاء».

ومن الإضافات المميزة كذلك «باب الرسوم والصور» الذي أعلنت عنه المجلة كالتالي: «تفكهة للقارئات والقراء عزمنا على أن ننشر في كل جزء من مجلة السيدات بعض الرسوم والتصاوير الجميلة التي يجمل حفظها». وبدأنا نقرأ مقالات علمية موجزة من النوع ذاته تقريباً الذي سنطالعه في المجلة أثناء مرحلتها الثانية عندما تعاون الزوجان نقولا حداد وروز أنطون على إعادة إصدارها سنة 1921.

لكن المصاعب المالية والسياسية التي أحاطت بمجلة «الجامعة» آنذاك، تركت تأثيرات سلبية على شقيقتها «السيدات والبنات». فقد صدر العدد الرابع (السنة الثانية، شباط 1905) بأربع وعشرين صفحة. ولجأت المجلة للمرة الأولى إلى نقل قصة مترجمة (عروسة بدون عريس لمكسيم غوركي) عن جريدة «المناظر». وتواصل التراجع في العدد التالي، إذ نشر فرح على تسع صفحات ترجمته لقصة «ماري في الآستانة» للمستشرق شلمبرغر. وتضمن العدد كذلك موضوع «تعليم البنات في مصر» نقلاً عن تقرير اللورد كرومر. ثم عادت المجلة إلى اثنتين وثلاثين صفحة في العدد السادس (السنة الثانية)، ونشرت في صفحتها الأولى ترجمة كتاب «المرأة في القرن العشرين» للفيلسوف الفرنسي جول سيمون. والجدير بالذكر أن هذا الكتاب كان من بواكير ما ترجمه فرح «في صباه».

ولا بد هنا من الإشارة إلى باب جديد أدخل على المجلة ابتداء من العدد الخامس (السنة الثانية) تحت عنوان «حديث الصالونات». وقد عرفته المجلة بالمقدمة التالية: «الصالون هي القاعة التي يُجتمع فيها لاستقبال الزائرين والحديث، وقد ترجمها بعضهم «البهو والردهة». ولكنا آثرنا إبقاء اسمها الإفرنجي لأنه أعم استعمالاً وأشد رنيناً في الأذن. وفي هذا الباب نذكر في كل جزء حديثاً من الأحاديث المهمة التي تقع بين السيدات في مجتمعاتهن العديدة». ومع أن فرح كتب المقال الأول في هذا الباب، إلا أن روز تولته شخصياً، بل وأصبح منبرها الخاص في المرحلة الثانية من عمر المجلة كما سنرى لاحقاً.

ومع أن «السيدات والبنات» استعادت حجمها المعتاد في العدد السادس (السنة الثانية) إلا أن ذلك كان إنتفاضة مؤقتة، إذ أنها توقفت بعد ذلك عن الصدور لمدة سنة تقريباً لتعود مع العدد السابع (السنة الثانية) في أيار سنة 1906. وقد وزّع فرح مع هذا العدد منشوراً شرح فيه سبب انقطاع «الجامعة» طيلة سنة 1905. كما كتب مقدمة موجهة «إلى حضرات قارئات مجلة السيدات في مصر وخارج مصر» قال فيها: «ذهبت مجلة «السيدات» في أثناء هذه المدة في تيار «الجامعة»، فكم من مرّة رامت صاحبة المجلة إعادة إصدارها وأنا أرجو منها أن تؤجل ذلك لسببين: الأول خوفي من غضب قراء «الجامعة» متى رأوا

صدور مجلة «السيدات» وانقطاع مجلتهم. ولذلك قلت لها إنني لا أحرك ساكناً في مجلة «السيدات» قبل أن تتحرك «الجامعة». والغرض الثاني هو أنني كنت مستاء من انقطاع «الجامعة» ولا عزيمة عندي ولا صبر على التفكير بغيره. أما الآن وقد تأهبت «الجامعة» إلى الظهور أشد عضداً وأرفع صوتاً ما كانت من قبل، فإن مجلة «السيدات» تعود إلى قارئاتها الكريمات وقرائها الكرام أشد عضداً وأرفع صوتاً أيضاً».

وأوردت المجلة في أسفل صفحتها الأخيرة التنويه التالي: «فرغنا الآن من أمر «الجامعة» (قرار الانتقال إلى نيويورك)، أما مجلة «السيدات» فإنها تبقى الآن في مصر لبقاء صاحبتها فيها. وسيصدر الجزء الأول منها بعد 20 يوماً من صدور هذا المنشور لأنها الآن تحت الطبع. وإدارتها ومراسلاتها ووكلاؤها في مصر وخارج مصر ما زالوا كما كانوا دون أن يغيّر فيها شيئاً انتقال شقيقتها «الجامعة» من الإسكندرية إلى نيويورك. وصاحب «الجامعة» الذي تعب مع صاحبة المجلة في غرس تلك الشجرة اللطيفة سيوالي رسائله ومقالاته إليها من نيويورك في كل جزء من أجزائها».

لكن أبرز ما في هذه المرحلة أننا بتنا أمام كاتب جديد في «السيدات والبنات». وقد نشرت المجلة التوضيح التالي: «كل ما ينشر بغير قلم صاحبة المجلة يمضي بإمضاء. أما صاحب «الجامعة» فيمضي هكذا (***) وكاتب آخر يمضي هكذا (...)». ومن المؤكد أن هذا المحرر هو نقولا حداد الذي أصبح في تلك المرحلة جزءاً أساسياً من حياة المجلة وحياة صاحبتها، وقد ساهم بفعالية في مواصلة إصدار «السيدات والبنات» بعد أن غادر فرح مصر قاصداً الولايات المتحدة الأميركية. ولكي نعرف مقدار الجهد الذي بذله في تلك الفترة الانتقالية، نعدد هنا المواضيع التي نشرها في العدد السابع (السنة الثانية، أيار 1906): «الأصل أم النبل»، «الملوك المتصابون»، «ملكة اليونان»، «الرقيق الابيض وصيده».

في العدد الثامن (السنة الثانية، 25 أيار 1906) يكتب حداد الموضوع الافتتاحي «العفاف اليوم: قيمته وتنازعه والحرص عليه» بتوقيع (...). ثم يختم

العدد ذاته بمقال يحمل اسمه الصريح بعنوان «وداع صاحب الجامعة» يعبّر فيه عن أسفه لفراق فرح «لما له عندي من الوداد الخاص». وهو يتوقع لانتقال «الجامعة» إلى نيويورك «فائدة مهمة جداً في هذا الحين الذي تمزق فيه شمل النزالة السورية أي ممزق بفعل التعصبات الباطلة حتى صار إخواننا هناك في حاجة إلى «جامعة». فاسأل الله أن يوفق صاحب «الجامعة» أن يجمعهم تحت لواء الحق باسم جنسيتهم لا باسم طوائفهم».

ويبدو لنا أن انهماك روز بسفر فرح، والاستعداد للحاق به بعد أن يكون قد استقر في نيويورك، أديا بها إلى التقليل من مساهمتها التحريرية في المجلة. وقد كان نقولا إلى جانبها لسد هذا الفراغ، فأخذ يكتب المواضيع الافتتاحية الأساسية مثل «سلوك الزوج مع الزوجة» باسمه الصريح إبتداء من العدد التاسع (السنة الثانية، حزيران 1906)، إلى جانب مواد متنوعة بتوقيع (...). كما نقرأ له في العدد نفسه تحت باب «القصص الشهرية» قصيدة «المحبة الخالدة» التي يصفها بأنها «قصة صغيرة إحساسية في ثوب شعري تصوّر وفاء الزوجة».

وسارت الأمور على هذا المنوال حتى العدد الثاني عشر (أيلول 1906) الذي ختم السنة الثانية من عمر «السيدات والبنات». وفي هذه المناسبة، نشرت المجلة إعلاناً تحت عنوان «ختام السنة الثانية» قالت فيه: «انتهت والحمد لله سنة المجلة الثانية. وما كتبه إلينا بعض القراء والقارئات وبعض الصحافيين من رسائل الاستحسان والتنشيط دلنا على أنها أحسنت خدمتها وأصابت الغرض الذي ترمي إليه في نشر المبادئ القويمة والتعاليم النافعة بشأن الجنس اللطيف». وأضافت تقول تحت عنوان فرعي عن «تحسين المجلة في سنتها الثالثة»: «تنتقل الآن المجلة من طور الطفولية إلى عهد الصبوة واستقبال الشبيبة. ولذلك يطمع القراء أن يروها في سنتها الثالثة أكبر بدناً وأسمى فكراً، ولذلك نعدهم أنها ستظهر إن شاء الله زائدة ثماني صفحات. وستفتح أبواباً نسائية جديدة وتلتفت بالأكثر إلى المواضيع العملية وتقلل من المباحث النظرية لكي تكون إفادتها محسوسة. ولا تدخر جهداً في وضع بعض الرسوم عند الاقتضاء تزييناً لها. ثم أنها لا تضن

بتحسين ورقها وطبعها وزخرفته بحيث تكون شهية لعيون القارئات والقراء. وبالإجمال ستظهر بعون الله بثوب قشيب بهيج».

لكن هذه الأفكار الطموحة لم ترَ النور. فقد حزمت روز ونقولا حقائبهما ملتحقين بفرح في نيويورك لمعاونته في مشروع إصدار مجلة «الجامعة» أولاً، ثم جريدة «الجامعة» اليومية ثانياً. وكان على «السيدات والبنات» ان تنتظر أكثر من خمس عشرة سنة ليعاود الزوجان نقولا وروز مغامرتهما الصحافية من جديد... لكن في القاهرة هذه المرة!

الهوامش:

1. مارون عيسى الخوري، «في اليقظة العربية ـ الخطاب السوسيوسياسي عند فرح أنطون». صفحة 78.
2. سلامة موسى، «تربية سلامة موسى». صفحة 39.
3. المرجع السابق، صفحة 81.

6

مجلة «السيدات والرجال» في مَرحَلتها الثانية

خرجت بريطانيا، ومعها الدول الحليفة، منتصرة في الحرب العالمية الأولى التي صمتت مدافعها في تشرين الثاني سنة 1918. غير أن هذا الانتصار العسكري حمل معه سلسلة من التطورات السياسية تتعلق بمستقبل الدول التي كانت خاضعة للإستعمار الإنكليزي والفرنسي (الأوروبي عموماً) قبل اندلاع الحرب، وأضيفت إليها طبعاً مناطق كانت تحت سيطرة السلطنة العثمانية المهزومة. وزاد في مشاكل دول الاستعمار القديم أن الرئيس الأميركي ودرو ويلسون سبق له أن أعلن أمام الكونغرس الأميركي في 8 كانون الثاني سنة 1918 مبادئه الأربعة عشر المتضمنة بنداً يدعو إلى إنصاف الشعوب المقهورة استناداً إلى مبدأ حق تقرير المصير.

وكان من الطبيعي أن تتحرك القيادات المصرية في هذا الاتجاه، علماً أن مصر كانت تتمتع آنذاك بمستوى رفيع من الوعي السياسي والاجتماعي بعيداً عن الاستبداد العثماني... لكن تحت الوصاية الإنكليزية المباشرة. وكان لتأليف الوفد المصري المكلف بالسفر إلى مؤتمر باريس للسلام، لمناقشة القضية المصرية بعد انتصار الحلفاء، أثره الكبير في اشتعال الثورة. فقد اعتقلت القوات البريطانية سعد زغلول وثلاثة من زملائه لتشكيلهم الوفد ونفتهم إلى جزيرة مالطا، الأمر الذي أدى إلى بداية الاحتجاجات في آذار سنة 1919. إنطلقت التظاهرات في العديد من المدن والأقاليم المصرية، وكانت القاهرة والإسكندرية وطنطا أكثرها إضطراباً، مما أجبر السلطات البريطانية على إطلاق سراح زغلول وزملائه، والسماح لهم بمواصلة السفر إلى باريس، فوصلوها في 18 نيسان. لكن شروط الصلح التي قررها الحلفاء جاءت مؤيدة للحماية التي فرضتها إنكلترا على مصر.

وهكذا تجددت التظاهرات والاحتجاجات الشعبية على السياسة البريطانية بقيادة «الوفد المصري» الذي يرأسه زغلول ويضم مجموعة كبيرة من السياسيين المصريين، وسقط مئات القتلى والجرحى برصاص القوات البريطانية التي تصدت بعنف للمتظاهرين. واستمرت أحداث الثورة طيلة آب، وتجددت في تشرين الأول وتشرين الثاني. وبعد مناورات سياسية وتعيين لجان بريطانية للوقوف على «حقائق» الوضع المصري، تم التوصل في سنة 1922 إلى تفاهم سياسي تبلورت نتائجه الحقيقية سنة 1923 بإعلان الدستور وإنشاء البرلمان ورفع القيود عن الصحافة الوطنية المصرية وإفساح المجال لمزيد من الحريات العامة.

ويوضح الكاتب المصري اليساري سلامة موسى تأثيرات تلك الفترة من النواحي الصحافية بقوله: «... ثم جاءت ثورة 1919 فأكسبت الشباب أهدافاً. وارتفعت بهم إلى معان جديدة من الفهم وبسطت أمامهم آفاقاً. وظهرت صحف تغذيهم وتحاول إشباعهم بالصورة والخبر والمقال».(1) وترافق ذلك مع حركة فكرية سياسية اجتماعية لم يسبق أن عرفت مصر أو بلاد الشام مثيلاً لها من قبل.

في هذا المناخ السياسي والاجتماعي والفكري يجب أن نضع قرار إعادة إصدار مجلة «السيدات والرجال» في القاهرة سنة 1921. كان الثلاثي فرح أنطون وروز أنطون ونقولا الحداد (بعد أن أصبح زوجاً لروز) قد أنهوا تجربتهم غير الناجحة في المهجر الأميركي سنة 1909 وعادوا للإستقرار في القاهرة. فرح إتجه للكتابة في الصحف المصرية منخرطاً شيئاً فشيئاً في السياسات المحلية بعد أن فشل مجدداً في إحياء مجلة «الجامعة»، في حين إنهمك نقولا بمهنته الأساسية في الصيدلة إلى جانب الكتابة والترجمة. أما روز، فالأرجح أنها كرّست كل وقتها للعناية بأولادها الثلاثة فؤاد وكوزيت ولورا... من دون أن تتوقف طبعاً عن متابعة آخر النزعات الاجتماعية والفكرية في مصر والعالم.

لم يكن هدف نقولا وروز بالتحديد إعادة إحياء مجلة «السيدات والبنات» التي كانت قد توقفت سنة 1906. ذلك أن المجتمع المصري في العقد الثاني من القرن العشرين بات مختلفاً تماماً عنه في مطلع القرن ذاته. بل إن المرأة المصرية نفسها كانت قد حققت خطوات كبيرة في مجالات التعليم والتربية والانفتاح الاجتماعي، وساهمت بقوة في التظاهرات الشعبية المطالبة بالاستقلال، ما أصبح يتطلب لغة خطاب مغايرة لتلك التي كانت ضرورية ومناسبة بين 1903 و1906. أو كما عبّرت روز عن ذلك بقولها: «شرقيات الوقت الحاضر غير شرقيات الزمن الغابر».

لكن نقولا وروز واجها عراقيل إدارية في الحصول على رخصة تسمح لهما بإصدار مجلة جديدة مختلفة. فقد جاء في مقدمة العدد الأول من السنة الثالثة (تشرين الثاني 1921) التوضيح التالي: «لما قدمنا طلباً إلى قلم المطبوعات برخصة لمجلة باسم «الطرَف» تحتوي على كل مستطرف من علم وأخلاق وفكاهات وتلذ للعالم والساذج والكبير والصغير والسيدات والسادة، قيل لنا إن باب الرخص

مقفل الآن. فعدنا نطالب بالإيذان بإصدار «مجلة السيدات» ثانية. والظاهر أن أولياء الأمر تذكروا خدمة هذه المجلة التهذيبية في السنتين اللتين صدرت فيهما، فشفعت الذكرى عندهم بإحياء امتيازها. فشكراً. فالمجلة تصافح قراءها القدماء بعد احتجاب طويل، وهي على يقين أنها ستجد من إقبالهم ومساعدتهم ما وجدته فيما مضى».

إذاً، نحن أمام مجلة كان من المفترض أن تكون مختلفة عن «السيدات والبنات» في مرحلتها الأولى، لولا الصعوبات البيروقراطية. ومع أنها صدرت تحت اسم أساسي هو «مجلة السيدات ـ تصدر كل شهر. أدبية أخلاقية اجتماعية علمية نسائية روائية»، إلا أنها حملت أيضاً عنواناً آخر في أسفل الصفحة الأولى: «الطرَف ـ مجلة السيدات والرجال». وهذا يعني أن الصفة النسائية العائلية التربوية التي طبعت المجلة بين 1903 و1906 تراجعت أمام المواضيع الأخرى المنوعة، وإن ظلت بارزة في القسم الثاني من المجلة.

ما يهمنا في هذه الدراسة هو تبيان الدور الذي عادت روز إلى لعبه في المجلة الجديدة. نحن نقرأ في الصفحة الأولى من الغلاف أن المحرر المسؤول هو نقولا الحداد، ومحررة القسم النسائي روز حداد (روز أنطون سابقاً). ومن هنا يتضح لنا أن العبء التحريري الأكبر وقع على كاهل نقولا، في حين احتلت روز موقعاً معاوناً مقارنة بما كانت عليه الحال في مجلة «السيدات والبنات». لكن ذلك لا يقلل من قيمة وتنوع ما قدمته إلى القسم النسائي على مدى عقدين من الزمن تقريباً. ولا بد لنا، قبل التمعن في أقسام المجلة وتطورها عبر السنوات، من التأكيد على أننا لا نستطيع الفصل بين عطاءات كل من نقولا وروز في «السيدات والرجال». فالمجلة تحمل بصماتهما معاً كزوجين مثقفين يخوضان العمل الصحافي في مرحلة التغيرات الجذرية في مصر وبلاد الشام.

روز التي نجدها في مجلة «السيدات والرجال» سنة 1921 تختلف عن روز كما عرفناها في مجلة «السيدات والبنات» سنة 1903، لكن ليس في المواقف الأساسية. فالتجارب العديدة في الإسكندرية ونيويورك والقاهرة أضافت الكثير إلى خبراتها الفكرية والسياسية والاجتماعية. كما أن التطورات العاصفة في مصر

وبلاد الشام مع نهاية الحرب العالمية الأولى رسّخت في وجدانها الوعي الوطني، خصوصاً عندما عاينت على أرض الواقع كيف تصطدم إرادة التحرر عند الشعوب المقهورة مع ممارسات الاستعمار الفرنسي والإنكليزي (الغرب)، ليس في العالم العربي فحسب وإنما في «الشرق» كله. وهذا ما ظهر واضحاً على صفحات «السيدات والرجال».

إذن صدر العدد الأول من السنة الثالثة في تشرين الثاني سنة 1921 بأربع وستين صفحة، مقارنة باثنتين وثلاثين صفحة في مرحلتها السابقة. وأوضحت الإدارة على الصفحة الأخيرة من هذا العدد طبيعة المجلة تحت عنوان «بيننا وبين القارئات والقراء»: «تذكر قارئات وقراء هذه المجلة أنها كانت في سنتيها الأوليين قدر نصف حجمها الحالي. فكانت ضيقة المجال. والآن رأينا أن المجلة لا تكون مصيبة كل الغرض إذا اقتصرت على المواضيع النسائية البحتة فقط. فيجب أن تلم بجميع المواضيع العيلية، وبذلك يجب أن تكون للقارئة والقارئ جميعاً ولا سيما لأن ما تقرأه السيدة يجدر بالرجل أن يقرأه أيضاً. ولذلك ضاعفنا حجمها ونوهنا بأنها للسيدات والسادة معاً وتوسعنا في مواضيعها وتفننا بها ما أمكن بحيث تلذ وتفيد وتفكه الكبير والصغير والمتعلم والساذج وكل صنف من الناس. وبالرغم من اجتهادنا في اتقان هذا العدد الأول لنجعله نموذجاً، لم نستطع أن نجمع فيه كل التحسينات التي نتوخى إضافتها إلى المجلة. فليترقب قراؤنا وقارئاتنا الأعداد التالية».

النظرة الأولى إلى أقسام «السيدات والرجال» تشير إلى تغيير جذري في المحتوى، وبالتالي في التوجه التحريري العام. والواقع أن المواضيع النسائية، بما فيها التربية والتعليم والأزياء والمطبخ، تراجعت إلى حد كبير لصالح المنوعات والأبحاث العلمية ودراسات علم الاجتماع والقصص الروائية القصيرة أو المسلسلة. بل بالكاد نجد فيها أياً من الأقسام القديمة. وهذا أمر متوقع لثلاثة أسباب أساسية: الأول أنها باتت مجلة منوعات عامة لجميع القراء والقارئات، والثاني أن الظروف في مصر وبلاد الشام تغيّرت كثيراً خلال العقدين اللذين فصلا مجلة «السيدات والبنات» عن شقيقتها «السيدات والرجال» فكان من الطبيعي أن تتغير المحتويات، والثالث أن «المحرر المسؤول» نقولا الحداد يتمايز في أفكاره

ومشاريعه عن روز أنطون وشقيقها فرح عندما انطلقا في مطلع القرن العشرين في مغامرتهما الصحافية التثقيفية. ومع ذلك أظهر نقولا وروز حرصاً في التأكيد على «أن تكون المجلة عاملاً من عوامل النهضة الشرقية». (العدد 12، السنة الثالثة ـ تشرين الأول 1922)

ماذا نجد في العدد الأول؟

أبرز ما يلفت النظر أن المقالات المنشورة كلها جاءت من دون تواقيع، باستثناء قصيدة للدكتور إبراهيم ناجي وأخرى لنقولا الحداد نفسه. ثم هناك المواضيع التالية: تحقيق مصور عن دلتا النيل ودلتا دجلة والفرات، السيدات الأميركيات يقاتلن التسليح في مؤتمر واشنطن، رواية إحساسية كاملة، العين كوة القوة، أزياء رجالية، الطرف، غرائب العلم الحديث، السر في الدم (قصة علمية)، في مجالس السيدات أو حديث الصالونات، مطبوعات جديدة. وعلينا أن نذكر في هذا المجال أن تخصص نقولا الأساسي كان الصيدلة، ومن هنا اهتماماته العلمية الواسعة. يُضاف إلى ذلك أعماله الروائية العديدة، إذ نجد في السنوات التالية أن «السيدات والرجال» كانت توزع مجاناً رواية من إنتاجه هدية في نهاية كل عام.

طغا حضور نقولا حداد على المجلة من خلال كثرة المقالات التي كتبها وتنوّع مواضيعها. غير أن هذا لا يعني غياب روز عن لعب دورها الفاعل في القسم النسائي، وربما أيضاً في الشؤون الإدارية. لكننا سنكتشف أنها اختارت لنفسها موقعاً خاصاً بها، نأت به عن الزوايا الأخرى، لتعمد من خلاله إلى بلورة شخصيتها المستقلة من حيث جرأتها في طرح مواضيع كانت شبه محرمة في تلك الفترة. وإذا أردنا وضع اليد على معالم أساسية من تفكير روز، فالمدخل الوحيد هو باب «في مجالس السيدات».

لذلك سنتوقف ملياً عند باب «في مجالس السيدات أو حديث الصالونات»، لأننا نعتقد أنه كان المنبر الذي اتخذته روز مجالاً رحباً لتعالج فيه قضايا تربوية واجتماعية وسياسية واسعة على مدى سنوات صدور «السيدات والرجال». وُلد هذا الباب في الأشهر الأخيرة من عمر «السيدات والبنات» سنة 1906

تحت عنوان «حديث الصالونات»، وكتبه فرح أنطون مرّة أو مرتين. لكن هذه الزاوية سرعان ما أصبحت ميداناً خاصاً لقلم روز بعد سفر فرح إلى نيويورك. ويبدو من العنوان الجديد «في مجالس السيدات أو حديث الصالونات» أن روز هدفت إلى التذكير بـ«حديث الصالونات» كتأكيد منها على استمرارية النهج الذي رسمته لنفسها، والذي سيستمر معها لعقدين من الزمن. ومع أن هذا الباب كان يغيب عن صفحات المجلة بين حين وآخر، إلا أن المنشور منه كان دائماً بيت روز المفتوح على كل الاحتمالات.

كان باب «في مجالس السيّدات» صالون النسوة اللواتي تعايشهن روز، ومنه ندخل إلى فضاء المرأة الخاصّ. فكانت روز «تترك الباب موارباً لتلجه المجلة كي تراقب بطلاته من نساء الفئات الاجتماعية الوسطى، في محاولة لتقريب همومهن ودخيلتهن وأخلاقيات سلوكهن للقارئ، في مشهدية دالة ولغة يومية معبرة، تبتعد عن رتوش البيان الإنشائي والخطابي الذي طبع الكثير من سرديات المرحلة الرسالية (...) داخل ردهات هذه المجالس تساجل النساء المتنورات وهن يمارسن «نميمة» النقد والنقد الذاتي في الآن الذي يرتشفن فيه القهوة، أو وهنّ يتابعن مشاوريهن في أرجاء الأماكن العامّة في الأوقات المخصصة للنساء (...) وفيه تستعرض النساء أمام القارئ، من خلال قلم روز، عري أفكارهنّ وحراك ميسهن في الآن الذي يعرضن فيه أداءهن الاجتماعي ومقارباتهن السياسية ومواقفهن من الاستعمار ورؤيتهن للتكلسات التاريخية، كما يتركن آثار مواربتهن النفسية مطبوعة على الورق للعلن».[2]

وعندما نتحدث عن هاتيك السيدات في مجالسهن كما تصوّرها لنا روز، فإننا أمام شريحة نسائية خاصة لا تمثل المجتمع المصري على حقيقته في ذلك الوقت. إنها الطبقة المرفهة المكوّنة أساساً من بنات الجاليات «الأجنبية» وفي طليعتهن «الشاميات المتمصرات». وهناك أسباب موضوعية لذلك، فقد «كانت بنات الشوام ونساؤهم سباقات في مجال العلم والعمل. وحين تجتمع النساء الثريات الشوام مع البورجوازيات المصريات يتكلمن لغة أجنبية في ما بينهن، هي الفرنسية في الغالب، وذلك للدلالة على تمايزهن. ويمكن القول إن

نساء الشوام اعتبرن أنفسهن، في المجال الثقافي، جزءاً من الجاليات الأوروبية وأكثر التصاقاً بها من نساء مصر».(3) وهذه صورة دقيقة إلى حد بعيد، لكن مع استثناءات عرفت روز كيف تبرزها في باب «في مجالس السيدات».

وشيئاً فشيئاً، بات هذا الباب منبراً لروز وملاذاً لها، بمعزل عن بقية الأبواب الأخرى في المجلة التي كانت تساهم فيها بأشكال عدة. فإذا أردنا أن نتبيّن القواعد الاجتماعية والسياسية والفكرية التي تنطلق منها، فليس أمامنا عملياً إلا الغوص في «مجالس السيدات». فهنا نراها على سجيتها، حيث الموقف الصريح والفكرة الواضحة، يساعدها في ذلك أنها تستطيع وضع الآراء الصادمة للمجتمع المصري المحافظ آنذاك على لسان نسوة أخريات يبقين مجهولات الهوية والانتماء أمام القراء والقارئات.

بالإضافة إلى باب «في مجالس السيدات» حيث تأخذ روز وصديقاتها حريتهن في تناول مواضيع شائكة بعيداً عن نفوذ الرجل وسيطرته، واصلت روز ونقولا تقليداً آخر شاهدناه في المرحلة الأولى من مجلة «السيدات والبنات»، ألا وهو باب أسئلة القراء حيث يُتاح لقراء «مجهولين» مجال طرح التساؤلات الصعبة من دون إحراج إدارة التحرير أو تحميلها المسؤولية المباشرة. فعلى سبيل المثال، كان موضوع الاختلاط بين الجنسين من المسائل الاجتماعية الإشكالية في تلك الفترة، ومن الطبيعي أن تتخذ المجلة موقفاً معيناً منه. لكن بدلاً من إثارة المسألة مباشرة، إذ بنا أمام أسئلة «بريئة» يطرحها القراء والقارئات، فتجد روز «واجباً مهنياً» في الإجابة عليها!

نقرأ في باب الأسئلة (العدد السابع، السنة الثالثة ـ أيار 1922) الجواب التالي: «إني آسفة أن نكون في عصر كهذا ويبقى بيننا من يتقول أقاويل السوء ويظن ظنون الشر. وإذا كنا لا نقدر أن نعتقد أن سيداتنا ورجالنا لا يقدرون أن يجتمعوا في سهرة من غير أن يحدث ما يُنتقد عليه، فبالأولى أن نتجنب الديكولتيه وسائر أنواع التبرج، وأن نعود إلى خدورنا ونتقهقر إلى جهلنا، إلى أن تأتي قوة خارقة من السماء تصلح قلوبنا وتنير عقولنا». وفي مكان آخر (العدد الأول، السنة الرابعة ـ تشرين الثاني 1922): «فاليوم الذي لا نخشى فيه من مغبة

امتزاج فتياننا بفتياتنا في المدارس والمجالس والأشغال هو اليوم الذي نعرف فيه أن آدابنا ارتقت وأخلاقنا تطهرت من الفساد».

أما موضوع انخراط المرأة في العمل السياسي الوطني، خصوصاً بعد بروز النساء في التحركات الشعبية خلال ثورة 1919، فقد تناولته روز بالتشجيع... لكن من خلال أحاديث الصالونات حتى لا يتم تحميلها شخصياً أعباء الدعوة العلنية: «ما ينقصنا إلا أن تقولي: هلم نؤلف نقابة للمطالبة بحقوق الانتخاب في بارلماناتنا الجديدة؟ فأجابت: بالطبع أقول. لأنه إذا كان للسيدات أهم الوظائف في الهيئة الاجتماعية، حق لهن أن يشتركن مع الرجال في تدبير الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية». (العدد السادس، السنة الثالثة ـ نيسان 1922)

فلننظر الآن في الأسلوب الصحافي الذي اعتمدته روز، خصوصاً في باب «في مجالس السيدات». إن طبيعة «المجلس النسائي» بحد ذاتها تفترض الحوار بين نسوة يتجاذبن أحاديث الساعة حول فناجين القهوة أو كبايات الشاي. وفي مثل تلك الأحوال، غالباً ما تتسلل العبارات العامية والأمثال الشعبية لتدعيم وجهات النظر المتضاربة. وقد نجحت روز في تطعيم مقالاتها بالقصص والحكايات سواء من مصر أو من الخارج. كما عمدت إلى تحقيق نوع من التوازن في استشهاداتها، إذ نراها تستوحي أسماء كتاب ومفكرين عالميين من أمثال كويفر وكنزلي ورسكن وأمرسون ومونتسكيو وهلفت وغوته وبيكون وغيرهم، طبعاً إلى جانب الكتاب والأدباء العرب. وترد أقاويل هؤلاء العظماء جنباً إلى جنب مع أحداث الحياة اليومية في حارات القاهرة وأزقتها.

ولم تجعل روز حواراتها حكراً على النسوة المجتمعات في مجالس السيدات، بل حرصت على مد جسور التواصل مع الخارج، أي مع القراء والقارئات بالطريقة التفاعلية. فكانت تطرح موضوعاً للنقاش، طالبة من قرائها المشاركة الفاعلة فيه. وهذا الأسلوب يحقق لها نتائج عدة في آن واحد، أهمها القدرة على «تقويل» القارئ أو القارئة ما قد تجد هي نفسها غضاضة أو حرجاً في قوله مباشرة!

وبغض النظر عن تنوع أساليب الكتابة عند روز، إلا أن أهم ما يميّزها ككاتبة وصحافية نهضوية في الربع الأول من القرن الماضي، أنها امتلكت من صفات

الجرأة والوضوح ما ساعدها في تناول مسائل شائكة كان كثيرون من الكتاب والكاتبات الشوام في مصر يترددون إلى حد بعيد في التعاطي معها. وأول مثال يرد إلى ذهني الأديبة مي زيادة التي نشطت إبداعياً في الفترة نفسها، وعايشت الظروف الاجتماعية والسياسية ذاتها... ومع ذلك ظلت حريصة على أن تنأى بكتاباتها كلياً عن قضايا وطنية حساسة تتعلق بمصر وبلاد الشام في تلك المرحلة.

إن المقارنة بين روز أنطون ومي زيادة مشروعة نظراً إلى عناصر عدة تجمعهما. فهما مثقفتان مسيحيتان من بلاد الشام، روز من طرابلس الشام ومي من مواليد فلسطين لأب لبناني وأم سورية. هما أكملتا دروسهما في مؤسسات تعليمية معروفة، وحصلتا ثقافة منفتحة على العالم الغربي، قبل الانتقال إلى مصر من ضمن عائلة مهاجرة. ثم مارستا التعليم (روز في مدرسة ومي في دروس خاصة) قبل التوجه إلى الصحافة. يُضاف إلى ذلك أن العلاقات العائلية ساعدت في فتح الأبواب أمامهما، إلياس زيادة والد مي ترأس تحرير «المحروسة» فكانت المدخل لكريمته، في حين أسس فرح أنطون «السيدات والبنات» لشقيقته. وبعد ذلك افترقت الطرقات على صعيد الحياة الشخصية لكل منهما... لكن هذا ليس مجال بحثنا الآن.

غير أن هناك ظروفاً شخصية وعائلية مختلفة تماماً لكل من مي وروز كانت ذات أثر بعيد في طريقة تعاطي كل منهما مع المسائل الاجتماعية والسياسية. روز نشأت في كنف أخ هو من أبرز مفكري عصر النهضة الجذريين، وتزوجت من كاتب ومفكر ذي توجهات يسارية. في حين أن والد مي كان من أعضاء الحركة الماسونية في مصر، بينما سيطرت على أجوائها العائلية النزعات المحافظة على المستويين الاجتماعي والوطني. فكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على عطاءات كل منهما لجهة اتخاذ مواقف واضحة من الأحداث الوطنية المصيرية.

ولنأخذ فلسطين على سبيل المثال. مي وُلدت في مدينة الناصرة الفلسطينية وقضت سنوات صباها هناك. ومع ذلك لا نجد في كتاباتها أي موقف، لا سلباً ولا إيجاباً، من المشروع البريطاني ـ الصهيوني لتوطين اليهود على حساب سكان البلاد الأصليين. في حين خصّصت مجلة «السيدات والرجال» مقالات عدة للتنديد

بالممارسات الاستعمارية البريطانية، وللتحذير من مخاطر الحركة الصهيونية على المنطقة برمتها. صحيح أن غالبية تلك المقالات لم تحمل توقيعاً، لكن من البديهي أن تكون تلك المواقف تعبيراً عن قناعات روز ونقولاً معاً.

كما أن روز لم تتردد ـ وبإسمها الصريح ـ في توجيه إنتقادات مباشرة لتصرفات الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا، وذلك في سياق دعوتها إلى الاستقلال والتقدم والتطور الاجتماعي. فهي لم تكن مؤدلجة بالمعنى المتعارف عليه، وإنما رأت أن من الواجب تشجيع الحركات الإصلاحية الهادفة في نهاية المطاف إلى تحرر «الشرق» من براثن السيطرة الاستعمارية: «نحن لا نتعرض للإنتداب ولا نريد أن ننتمي إلى حزب معارض أو حزب موافق. وإنما لدينا وقائع غير سارة، ولنا في تحققها مصادر وفي وصفها وعلاجها زبدة آراء مستخلصة ممن يشرفون على الأحوال ويحسنون النظر (...) ظهر لنا في السنين الأربع المنصرمة أن رجال فرنسا الذين تحملوا مسؤولية الانتداب والذين ينفذونه الآن يجهلون نفسية الأمة السورية وعقليتها جهلاً تاماً ولهذا عز عليهم أن يستطيعوا الإدارة». (العدد الثالث، السنة الرابعة ـ كانون الأول 1922).

ويتضح لنا أن روز لم تكن متصلبة في آرائها إذا ما تعلقت الأمور بخدمة المصلحة الوطنية العامة، بغض النظر عن مصدر تلك الخدمة، حتى لو جاءت من ممثلي الانتداب الفرنسي في بلاد الشام. نقرأ في العدد الخامس، السنة السادسة (آذار 1925): «ورد السؤال التالي من بيروت وبدون توقيع إلى «صاحبة مجلة السيدات والرجال»: عرفناك من الوطنيات الغيورات على مصلحة البلاد. ومبدأ المجلة ظاهر على غلافها. ولذلك استغربنا نشرك في العدد الرابع صور أشخاص غير وطنيين كسراي وكايلا. فكيف نفسر نشرك هذه الصور؟»

وجاء الجواب بتوقيع روز حداد، وبلهجة تنم عن الاستياء والغضب المهذب: «أشكر جداً للسائل هذا السؤال لأنه نبهني لأمر لا يصح السكوت عنه وهو تنويهي بأن هذه المجلة لا تنظر إلى الأشخاص ولا إلى مصلحتها الخاصة من وراء الأشخاص وإلا لكانت تعد من أوفر المجلات ربحاً. وإنما تنظر إلى مصلحة البلاد الحقيقية وتثني على كل من يعمل لأجل هذه المصلحة ويشترك مع الأهالي برفع

شأن البلاد وعلى كل من يتفق مع مبدئنا الذي ضحينا ونضحي لأجله الكثير. فإذا رأينا الجنرال سراي يختم على كاتب جمعية متخرجي المدرسة العاملية في بيروت أن يقرأ تقريرها باللغة العربية لكي لا ينسى هذه اللغة أهلها كما قرأنا في جرائد بيروت الغراء. وإذا رأينا المسيو كايلا يساعد القوم على إنشاء مدارس وطنية تعلم الشبيبة كلها على اختلاف مذاهبها أن تكون كعيلة واحدة بلا فرق بين طائفة وأخرى... لا يسعنا إلا أن نقابل هذه الأعمال بالثناء والاحترام لتلك المبادئ ولأولئك الأشخاص الذين يعرفون معنى الحرية ويؤيدونها. نعم نحترم شخصيتهم. وها نحن نراقبهم منتظرين أن يطبقوا أعمالهم على أقوالهم، وأن نرى المدارس تعلم الشبيبة أنهم أخوة لأم واحدة هي الوطن. وأظننا في حاجة إلى مدرسة كهذه تعلم الكبار قبل الصغار...

«فمجلة السيدات تمدح كل شخص حتى الشيطان أو عزرائيل إذا كان يعمل بإخلاص لمصلحة البلاد. إلى الآن لم يظهر في سوريا رجل ذو مقام، يصرخ صرخة وطنية في البلاد ويقول قول سراي وكايلا. وإن ظهر رجل كهذا فيستحي أن يقول لأن الشرقي كثير الحياء. لكننا نقول له: لا بأس، كن بالوطنية قليل الحياء. ومع ذلك سنرقب ما إذا كان ينجز هذا القول محتلو البلاد التي اشتهرت بالحرية ودفعت ثمنها أكداساً من الرجال وأنهراً من الدماء ولا يزال أهلها يفدون تلك الراية المثلثة الألوان. وأما أنت أيها الشرقي فماذا فعلت لأجل وطنك؟ فالأولى أن تفتكر أنت أيضاً بالجواب على سؤالي هذا».

المسألة بالنسبة إلى روز هي نشوء الوعي الوطني كخطوة لا بد منها لنيل الاستقلال والحصول على الحرية وتحقيق التقدم الاجتماعي. وهذه العملية تبدأ أولاً بمحاسبة الذات: «كفانا تمويهاً على نقائصنا وحسبنا نوماً وغفلة، والغرب ينتفع من غفلتنا». (العدد الأول، السنة الثالثة ـ تشرين الثاني 1921). لذلك نراها تتابع بدقة تباشير النهضة في بلاد الشام: «ولا شك أن سوريا ابتدأت تستيقظ والسيدات بدأن يشعرن بالمسؤولية التي عليهن، فترين مدارسهن وجمعياتهن واجتماعاتهن ذات صبغة وطنية ما كانت من قبل». وفي ظل هذا الوعي يحق لنا أن «نفخر بوطن عزيز الجانب، ولا نعود نتساءل أين وطننا ولا ما هو وطننا».

(العدد الثالث، السنة الرابعة ـ كانون أول 1922)

لكن عقبات عديدة داخلية وقفت أمام تحقيق «المبدأ» الذي «ضحّت» روز لأجله الكثير، حسب تعبيرها. لعل أخطرها التشرذم الديني والطائفي الذي عانت منه بلادنا، وما تزال، حتى اليوم. فقد ورد إلى مجلة «السيدات والرجال» سؤال من بلدة جديتا اللبنانية يقول: «رأينا في بعض صور المظاهرات التي تنشر في الجرائد المصرية صورة راية مرسوم عليها هلال وصليب معاً. فما هي هذه الراية وما رمزها أو معناها»؟ يوسف...

فكان الجواب المؤلم: «هذه راية المظاهرات المصرية. ومعناها كلمة لا وجود لها في سوريا وهي الاتحاد. وإذا رام السوريون أن يرسموا راية مثلها بهذا المعنى فلا تسع الراية رسومهم لأنهم مضطرون أن يرسموا ليس الهلال والصليب فقط بل الهلال وصليب الموارنة وصليب الكاثوليك وصليب الروم الأرثوذكس وصليب البروتستنت ورسم إشارة درزية ورسم إشارة نصيرية. ثم ماذا؟ والله أعلم وأرحم». (العدد الخامس، السنة الخامسة ـ آذار 1924). أما رأيها في الدين فتعبّر عنه هذه النصيحة الموجهة إلى كل أم: «أما الدين فلا تعلمي الولد منه ما لا تعتقدينه أنت حقيقة، وما لا يجد اعتراضاً عليه في كبره فيسلخ كل سلطة للدين عليه. بل علميه كل ما كان بسيطاً. علميه أن يحب الله ويعمل الحق لأنه حق، ومن ذلك تنتج كل الأعمال الصالحة فيصير يحب الحق والرحمة والعدل لكون الله حقاً ورحيماً وعادلاً». (العدد السابع ـ كانون الأول 1903).

هذه ملامح عاجلة من عطاءات روز، كشفنا عنها دفعاً للتعتيم الذي أحاط بها على مدى عقود. لكن هذا الظلم لم يكن مقصوداً بحد ذاته، إذ يبدو لنا أن شهرة الأخ فرح أنطون والزوج نقولا حداد ألقت ظلالاً كثيفة من التجاهل على شخصية روز ودورها الصحافي التنويري. ولعل المختارات المنشورة هنا تعطيها بعض حقها، وتحلها المكان الذي يليق بها في مسيرة الكتابة النسائية النهضوية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن الماضي.

الهوامش:

1. سلامة موسى، «الصحافة حرفة ورسالة». صفحة 53.
2. أثير محمد علي، موقع «الأوان» الإلكتروني. 8 كانون الأول 2013.
3. مسعود ضاهر، «الهجرة اللبنانية إلى مصر ـ هجرة الشوام». صفحة 246.

العدد الاول

مجلة السيدات

السنة الثالثة

تصدر كل شهر . أدبية أخلاقية اجتماعية علمية نسائية روائية

مصر — نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٢١

دوريات
٥٥٠
١٩٢٦
٦١٥

مقدمة السنة الثالثة

لما قدمنا طلباً الى قلم المطبوعات برخصة لمجلة باسم الطُّرَف تحتوي على كل مستطرف من علم وأخلاق وفكاهات وتلذ للعالم والساذج والكبير والصغير والسيدات والسادة قيل لنا ان باب الرخص متفل الآن . فعدنا نطالب بالايذان باصدار «مجلة السيدات» ثانية . والظاهر ان اولياء الأمر تذكروا خدمة هذه المجلة التهذيبية في السنتين اللتين صدرت فيهما فشفعت الذكرى عندهم باحياء امتيازها . فشكراً . فالمجلة تصافح قراءها القدماء بعد احتجاب طويل وهي على يقين انها ستجد من اقبالهم ومساعدتهم ما وجدته فيما مضى

الطُّرَف

مجلة السيدات والرجال

المحرر المسئول
نقولا الحداد

محررة القسم النسائي
روز حداد
(روز انطون سابغا)

قيمة الاشتراك : في مصر والسودان وسوريا جنيه مصري / في سائر البلاد الاجنبية ٢٦ شلناً } تدفع مقدما

المراسلات : ترد الى « ادارة مجلة السيدات » في شبرا — مصر

مُختارَات

جاء انتقاؤنا لهذه النصوص وفق المعايير التالية:

1 ـ ركزنا على مجلة «السيدات والبنات» (1903 ـ 1906) ومجلة «السيدات والرجال» (1921 ـ 1930) لكونهما المنبر الأساسي الذي حمل كتابات روز المتنوعة. علماً بأنها نشرت مقالات عدة في مطبوعات أخرى، أخرها مجلة «المقتطف» وقتما تولى رئاسة تحريرها سنة 1949 زوجها نقولا الحداد.

2 ـ أردنا أن تغطي المختارات الفترة الزمنية من 1903 إلى 1930 بهدف إعطاء القارئ صورة شاملة عن كتاباتها، وفي الوقت نفسه متابعة التطور الحاصل في أسلوبها الصحافي وفي مواقفها من المسائل الوطنية والاجتماعية في مصر وبلاد الشام.

3 ـ حرصنا على تنويع خياراتنا من المقالة إلى الخطاب إلى المحاضرة إلى القصة القصيرة، مع الإشارة إلى أن غالبية ما نشرته يدخل في باب المقالة الصحافية التي تعتمد على البنية الحوارية الداخلية في باب «حديث الصالونات» الذي تميّزت به طيلة حياتها المهنية.

4 ـ تأكدنا أن كل المقالات المنشورة هنا هي بقلم روز أنطون، إما بتوقيع صريح أو من خلال محتوياتها. وكانت هناك عشرات المقالات الأخرى الجديرة بالاهتمام والتي نعتقد بأن روز كاتبتها، غير أننا تجاهلناها لعدم قدرتنا على الجزم بنسبتها إليها.

5 ـ قررنا أن تغطي المختارات أوسع شريحة من اهتمامات روز الاجتماعية والتربوية والوطنية. لأن ذلك يعطي القارئ فكرة بانورامية عن القواعد الفكرية التي تنطلق منها لمعالجة الأوضاع العامة. والانطباع الأولي الذي نخرج به هو أنها لم تكن لتتردد في خوض أكثر الملفات حساسية بالنسبة إلى مجتمعاتنا في تلك الفترة المبكرة.

6 ـ هذه المختارات تشكل جزءاً بسيطاً جداً مما تركته روز أنطون في «السيدات والبنات» و«السيدات والرجال» وغيرهما من المطبوعات المصرية في النصف الأول من القرن الماضي. ولا شك في أن الدراسة المعمقة لكتاباتها ستكشف عن رائدة نهضوية مميزة، بات من الضروري التعامل معها باستقلالية عن الكاتبين المبدعين اللذين أحاطا بها طيلة حياتها، وعتما عليها في مماتها: شقيقها فرح أنطون وزوجها نقولا الحداد.

ـ بالطبع في وسعي ان اخبرك ان دم هذا الشخص جرماني او فرنساوي او ايطالي الخ

فدهشوا لقوله واعطوه في الحال نموذج دم لشخص ففحصه فقال انه هولندي وايطالي واسوجي من قبل أمه وانكليزي وارلندي من قبل ابيه. فدهشوا اذ اكد لهم صاحب الدم صحة هذا القول

فقال القاضي معجبا : ـ كم يترتب على اكتشافك العظيم هذا من النتائج الخطيرة الشأن يا استاذ

ـ تكفي لاعلاء قيمته نتيجة واحدة وهي ان يحاذر حقن شخص فقير الدم بدم شخص بعيد عنه في السلالة لاجل تقويته لانه لا يلبث ان يموت بعد حين قصير بسبب تنافر بين كريات الدمين وتباينهما في الاهتزاز . وقد حدثت عدة وفيات في مدة الحرب بعد عمليات الحقن هذه فكان الاطباء يستغربون سببها وسرها وكادوا يجفلون من عملية الحقن هذه . اما الآن فبواسطة هذه الآلة يستطيعون قبل الحقن ان يتحققوا اذا كان الدمان يأتلفان او يتنافران

فابتسم القاضي وقال : ـ اذا لم يكن من نتيجة لهذا الاكتشاف الا تحقيق الشخصية فكفى . ان القضاء يفتقر كل الافتقار لهذا التحقيق الدقيق الاكيد الذي يتفوق على كل تحقيق للشخصية . والقضاء كان منذ القديم حتى اليوم يقع في مثل هذه المشاكل ويحتار في كيفية الفصل فيها . واقدم مشكلة من هذا القبيل يذكرها لنا التاريخ هي مشكلة سليمان الحكيم حين تقدمت اليه امرأتان على يد احداهما طفل وكل واحدة تدعيه. فاحتار كيف يفصل بينهما فخطر له ان يعتمد على عاطفة الامومة فقال « نشطره شطرين بينكما » . فاتي ابت هذا الحل استحقت الولد . ولكن مع كل ذلك قد لا تكون أمه لانه كثيرا ما تخدع العواطف العقل.

واما التحقيق العملي هذا الذي تنفح العلم به أيها الاستاذ المحترم فتقدم على كل تحقيق، فباسم العلم والانسانية والقضاء اثني عليك

فصفق الحضور تصفيقا حاداً

وقبل ان يصدر القاضي الحكم كانت الدوقة اوغستا قد جمعت من قصرها كل ماخف حمله وغلا ثمنه وبرحت القصر الى حيث لا يدري أحد

ودخل فكتور وجاك القصر بناء على نص الحكم لانهما الوارثان الشرعيان . وتزوج جاك ألن ابنة عمه الشرعية . واما هرمن المسكين الذي تعود عيشة الرخاء فلم يهملوه بل ابقوه يتمتع بنصيب من نعماء آل روتمبرج

في هذا الشهر شاع ان الدوقة برحت الى اميركا منتحلة اسم نينا بخنر

حاشية — هذه الحقائق العلمية مقتبسة من مجلة العلم العام . فما هي امر خيالي . ومتى عثرنا على آلة الاستاذ البرت ارامس اتينا على وصفها

في مجالس السيدات

أو حديث الصالونات

لبيت دعوة احدى صديقاتي القديمات بغية ان تعرّفني بزائرة اوروبية جاءت حديثاً من اوروبا . فوجدت عندها عدداً من السيدات اعرفهن جميعاً. ولما مللنا انتظار السيدة الاوروبية قلت لصاحبة الدعوة : —

صاحبتك تأخرت كثيراً عن الميعاد

فأجابتني :— وهل من وقت محدود للزيارات . أية ساعة تأتي كانت الميعاد

فقلت :ــ ولكن هذه اوربية تحافظ على المواعيد

فقالت احدى الزائرات : ـ نعم انها اوروبية في بلدها . ولكن متى اتت الى بلادنا جاز لها كل شيء تبعاً للمثل السائر « مع السوق سوق »

فأجابت اخرى: ــ ماهذه الشتيمة يامدام. كأنك تقولين اننا نحن في الشرق لانحافظ على كلمتنا ولا على ميعادنا

فقلت :ــ نعم يامدام. هذا هو الواقع فلماذا ننكره أو نحاول ان نخفيه . ندعى الى حفلة زواج تحددت لها الساعة التاسعة موعداً مثلا فتمر الساعة العاشرة والحفلة لاتبتدىء . يعلنون ان التمثيل يبتدىء في الملعب الساعة ٩ فتزهق روحنا انتظاراً حتى بعد الساعة العاشرة. يعد الطبيب ان يأتي بعد ساعة فلا يأتي حتى بعد ساعات فإما ان يكون العليل قد تحسن أو قد مات. فكفانا تمويهاً على نقائصنا وحسبنا نوماً وغفلة والغرب ينتفع من غفلتنا

فقالت مدام :ـ صدقت في ذلك. ولكن بالله ماهذه السيدة الاوروبية المنتظرة من المزايا حتى تستحق هذه الحفاوة

فقالت صاحبة الدعوة:ـ انها جميلة ولسنة وتروي اخباراً جديدة غريبة عن سيدات اوروبا

فقلت :— بالطبع تغيرت الاشياء في اوروبا كثيراً بعد الحرب فماذا روت يا ترى

— تقول ان السيدات اصبحن يجارين الرجال في كل شيء لانهن لما حصلن على حقوق الانتخاب صار لهن سبيل للشغل في السياسة وصار عليهن ان يشتغلن لتحصيل عيشهن . لان التي أخذت حق الانتخاب يجب عليها ألا تكون عالة على غيرها

فقالت مدام ل ـ ويقولون ان المرأة الاوروبية نالت حق الانتخاب لانها كانت عاملا قوياً في الحرب . وقد اعترفوا لها بتأثير أعمالها العظيمة في الحرب

فقالت سيدة أخرى ثورية المزاج ـ اوه.

الأمّ والولد والمدرسة
التربية الأدبية

في الممالك أنواع الحكم والتدبير مختلفة. فمنها الحكم الجمهوري والمقيد والمستبد المطلق. وأشدُّ هذه الأحكام الحكم المستبد المطلق لأنه يجعل الرعية إما عبيداً وإما فوضويين. فالعبيد هم الذين يخضعون والفوضويون هم الذين طبيعتهم لا تسمح لهم بالخضوع فيصبحون مقاومين.

وهذه الصورة تتكرر في البيت والمدرسة إنما بهيئة أصغر. فنرى الأولاد دائماً يصبحون إما بلهاً بالطاعة العمياء وإما متمردين لا يهمهم إلا إرادتهم. وكل هذا ناشئٌ من سوء تدبير المعلمة أو الأم. فالأم الظالمة والمعلمة الظالمة هما أصل البلاء في التربية. ولذلك يجب أن نذكر دائماً أن أحسن دواء في تربية الولد ليس كسر إرادته كما نتوهم بل إقناعه أن ما يطلبه هو غلط أو مضرّ. وهكذا يصبح الولد قادراً على الحكم بين الخير والشر. وهذه أول درجات التربية الأدبية.

وقد قال بعضهم إن الولد الذي ليس له إرادة قوية لا يُرجى منه خير في المستقبل، وأما الولد ذو الإرادة القوية ولو كانت للشر فإنه يُرجى منه مستقبل أحسن وذلك بتحويل تلك الإرادة والقوة للخير ولكل ما هو نافع.

قالت يوماً أم لصديقتها: إنني مستريحة كل الراحة مع أولادي لأنهم هادئون خصوصاً بحضوري. فإنني حين أحضر البيت يهدأ كل واحد في محله. فأجابتها صديقتها: إنني لا أحسدك على راحتك لأنني أفضّل أن أبقى متعوبة مع أولادي كما أنا الآن. فإنهم لا يهدأون ودائماً يتشاجرون ويطلبونني حكماً بينهم، فأصرف بعض أوقاتي بتقويم غلطاتهم وإظهار خطأ هذا وإصابة ذاك. وهذا ما أطلبه من المدرسة أيضاً لأني لا أريد إخضاع إرداتهم بل أدعهم يسلكون حسب ما يشاؤون

وإنما أريهم الغلط والضرر. ولا شيء يلذ لي مثل سؤالهم لي: ولماذا هذا يا أماه ولماذا ذاك؟ إذاً لتربية الولد تربية حسنة يجب أن يفهم سبب الأمور التي يُنهى عنها والأمور التي تُطلب منه.

مثال ذلك أن المعلم والمعلمة في المدرسة يطلبان من الأولاد أن لا يتكلموا في أوقات الدراسة. ولكن قد يحتاج الولد إلى تفسير دروسه أو إلى قلم من رفيقه فيسأله ذلك. ولما يحاسبه معلمه أو معلمته على مخالفته النظام يجاوب بأنه لم يتكلم إلا فيما هو مختص بالمدرسة. ولكن إذا أفهم الولد أن نظام عدم الكلام في المدرسة قد وُضع للجميع لأنه إذا أبيح لهم الكلام أزعجوا المدرسة كلها بضوضائهم وصار الدرس صعباً، فطبعاً لا بدّ أن الولد يقتنع أن ذلك النظام وُضع لراحته وراحة رفاقه معاً. وهكذا يفهم واجباته نحو رفاقه وواجبات رفاقه نحوه. ولذلك قيل إن أحسن المدارس أقلها قوانين لأنها تجعل التلاميذ يعملون الحق حباً به لا خوفاً من القانون. ثم يبقون هكذا بعد خروجهم من المدرسة. وليس كالذين يعملون الحق خوفاً من القصاص فهؤلاء حين يخرجون من المدارس أو من حكم والديهم يحسبون أنفسهم مطلقي الحرية فيصنعون ما يشاؤون إذ لا قصاص يعقبه. لأنهم لم يتعلموا أن قصاص الضمير أعظم من قصاص الأم والمدرسة.

ثم أن إصلاح غلط الولد يوجب أن لا تعظيه عنه، فإن الوعظ مما يتعب الولد بدون فائدة لأنه لا يفهمه. وأحسن الطرق أن تقدمي له أمثلة عن أولاد غلطوا غلطة مثل غلطته ولقوا عقابهم. أو أخبريه عن تاريخ أحد المشاهير في صغره لأن هذا مما يفعل كثيراً فيه. واجتهدي دائماً بأن تفهميه معنى الحرية الحقيقي ليعلم أن الحرية الوحيدة هي حرية عمل الخير والحق. والحق يحرّرنا من كل عبودية للشر ومن كل ما هو مقاوم له.

ولا يُخفى أن لكل ولد مقاصد حسنة مدفونة في داخله، فعلى الأم في البيت والمعلم في المدرسة أن يتساعدا في إيقاظه وتنبيه تلك المقاصد. ومن أول واجباتهما تعليم الولد الغرض من الحياة ومعرفة قيمة الوقت وضرورة نظاماتها وعلائقها. ولا شيء يفعل في الولد كالفعل الذي ينتج من أنه يجد في البيت نفس المبادىء

التي يجدها في المدرسة. وهذا الأمر هو إحدى مصائبنا في الشرق لأن التربية البيتية فيه أحط من التربية المدرسية مائة مرة. هذا في البلاد المتقدمة قليلاً. وأما في غيرها فالويل عظيم لأن التربية البيتية والتربية المدرسية متساويتان في الانحطاط.

إنَّ التربية الأدبية هي أهمّ وأثمن شيءٍ في هذا العالم. هي أثمن من كل حلاك وجواهرك أيتها العزيزة. هي أثمن من كل الملايين والألوف التي في صناديق زوجك. ذلك لأن هذه التربية موضوعها نفس ولدك الخالدة. ومن هو ولدك؟ أليس هو أعز وأثمن شيء عندك في هذا العالم. فبالتربية الأدبية الحقيقية تجعلين هذه النفس الثمينة الصغيرة اليوم إنساناً كريماً فاضلاً راعياً للنظام خاضعاً لقوانين الحياة محباً لخير القريب صحيح التقوى مقداماً يفتح السبيل في هذه الحياة لك وله ولعيلته بالنشاط وحسن التدبير. وبدون هذه التربية تجعلين تلك النفس الطاهرة أما ضعيفة جبانة وأما شرسة شرهة لا همَّ لها إلا نفسها ولا تعرف نظاماً غير أهوائها. وهذه النفس تنشأ تعيسة وتموت تعيسة. وحينئذٍ يكون الذنب ذنبك أيتها العزيزة والمسؤولية مسؤوليتك لكونك لم تُحسني تكبيرها ورفعها بالتربية الأدبية.

فافتكري أيتها العزيزة ملياً بهذه المسؤولية العظيمة التي عليك لنفسك ولعيلتك ولأمتك وللإنسانية.

نيسان 1903

هل في الدنيا سعادة؟

السعادة[1] رغيبة كل حي وإليها يسعى كل بني البشر وكم يعاني الناس من أنواع المشاق في طلب النجاح متوهمين أن بلوغ السعادة بذلك، ولكن السعادة لا ترافق النجاح في كل الأحيان وقلما نرى من بلغ السعادة بنجاحه. وكثيرون نراهم تعساء مع أن لديهم كل الوسائل التي من شأنها أن تجعلهم سعداء لو أرادوا.

إن الطبيعة تمنح المجتهد القوي كل الأشياء إنما لا تستطيع أن تمنحه السعادة، فإن لم يكن الإنسان حاصلاً على السعادة الداخلية الناشئة عن القلب والقناعة فعبثاً يحاول بلوغها بالوسائط المادية.

والدنيا رجلان. رجل يرى الدنيا جميلةً مملوءة سروراً وكلها معنى لهُ، والثاني يراها مظلمة قاحلة وهمية. فالأول يكون سعيداً في كل الأحوال أما الثاني فسواءٌ عنده كل الأحوال. وهو لا يرضى إذا وُجد على الأرض أو في السماء.

ويرجحون أن السرور حاسة خاصة بالإنسان. ويقال إنَّ دارسي الحيوان لم يثبتوا إلى الآن عدم وجود العقل في الحيوانات، لكنهم قد أثبتوا عدم وجود حاسة السرور فيها لأنها قد تنظر أجمل منظر ولا تتأثر له. وأما الإنسان فحاصل على هذه الحاسة. وبما أن الله جعل فيه هذه الحاسة فقد جعل العالم مشحوناً بكل ما هو جميل وسار وجعل الطبيعة بأسرها تعمل لسروره. فهي جميلة وهنيئة لطالبي الجمال والهناء. فعلى الإنسان أن يقابلها بالرضى والبشاشة لتزيده منهما. ولا يُخفى أن الرضى والبشاشة بمثابة الشمس للنبات تحييه وتساعده لإعطاء الثمر الصالح.

ولكن قد يذهب البعض أن البشاشة في الإنسان تدل على خفته وطياشته، ولكن الواقع ينفي هذا الظن لأننا نرى أرقى العقول وأسمى الأفكار عند الرجل البشوش. ومهما كانت المصائب شديدة في هذه الحياة فإن الإنسان قادر على احتمالها إذا كان راضياً وباشاً. ولا يرجو الإنسان السعادة بإحراز المال والمناصب الرفيعة ما لم يقرن ذلك بسلام الضمير وراحة القلب الداخلية وحب نفع الناس أي خدمة القريب.

وهذه الأمور إذا وجدت في أكواخ الفلاحين تجعلها جنائن سرور.

يروى عن أحد ملوك الفرس أنه سأل منجميه عن وسيلة يبلغ بها السعادة. فأجابوه أن الوسيلة الوحيدة لذلك هي لبس قميص رجل سعيد. فذهبوا يلتمسون ذلك الرجل بين الأغنياء والعظماء فلم يجدوه، فطلبوه بين الفعلة والمساكين فوجدوا رجلاً فقيراً عائشاً في زاوية من الأرض ولكنه سعيد (كالرجل الخارجي في الكوخ الهندي). ولكنه لسوء حظ الملك لم يكن لذلك المسكين قميص من شدة فاقته. فهنا يرى من يتوهمون الملوك سعداء أن فخامة المُلك وعظمته تستران عن الناس هموم الملوك. فأتعابهم كأنها أشواك تشتبك بتيجانهم فالناظرون إليها يبهر أبصارهم ما فيها من الحجارة الكريمة ولكن لابسي تلك التيجان يتألمون بأشواكها الداخلية المستترة.

وقد قال كنزلي: «إذا أردنا أن نكون سعداء حقيقةً فنحن نحتاج للسلام الداخلي الناتج عن استقامة السريرة والاعتدال في كل شؤون حياتنا في العواطف والأعمال والأفكار».

وقال رسكن: «جميعنا نسعى للنجاح وإحراز الأموال ونصل الليل بالنهار لبلوغ الآمال ولكن من منا يسعى في طلب السلام الداخلي ويشعر بحاجته إليه. ذلك السلام الذي لا يستطيع العالم أن ينزعه منا. أما طريقة الحصول على هذا السلام فهي تعويدنا أنفسنا على الأفكار الجميلة النقية ونظرنا إلى العالم من جهته المنيرة وقراءتنا تواريخ أشخاص هذه الصورة فتكون عدة لنا عند النوازل».

وكتب إلى صديق له في أثناء سياحته في سافوي: «لم ألقَ بين جميع أصدقائي رجلاً سعيداً راضياً بحياته أكثر من رجل كان يرافقني في سافوي ليدلني على الطريق. ومع أنه لم يكن على شيءٍ من العلم فقد كان من أسعد البشر حالاً وأحسن من عرفت منهم خلقاً. وفي ذات يوم كنت أتمشى وإياه في بعض الوديان المنخفضة فأخذت أشكو له هموم الحياة وأظهر له العالم من جهته المظلمة، فلم يكن منه إلا أنه تراجع قليلاً عني وقال لغلامي وهو يهز كتفيه: مسكين رسكن مسكين فإنه لا يعرف كيف ينبغي أن يعيش». وفي الحقيقة إن الذين يعلمون

كيف ينبغي أن يعيشوا قليلون ولا يجد السعادة إلا هؤلاء القليلون. فإن الحياة من الفنون الدقيقة لا نتعلمها إلا بالممارسة الطويلة، والدليل على ذلك أن دليل رسكن أدرك سر الحياة مع أنه كان لا يكاد يحسن القراءة والكتابة.

فالسعادة إذاً هي معرفة الإنسان كيف يجب أن يعيش في هذه الحياة. فإذا جاءته السرّاء سر بها سروراً معتدلاً وإذا جاءته الضرّاء لم يتألم منها إلا تألماً معتدلاً. فإن السرّاء تذهب كالضرّاء وكلتاهما كغيمة تمر فوق رأس الإنسان. وليس المهم في هذه الحياة أن يتمتع الإنسان بالسرّاء ويدفع الضرّاء ولكن المهم أن يقوم بواجباته بالرغم من كل سرّاء وضرّاء. لأنه لمثل هذا وُجد. وواجبات الإنسان النفع وصنع الخير في هذه الحياة سواءٌ كان كبيراً أو صغيراً غنياً أو فقيراً. وبناءً عليه فكل إنسان قادر على أن يكون سعيداً مستريح البال لأن كل إنسان قادر على القيام بواجباته إذا أراد. وإذا كان للسعادة مفتاح فمفتاحها «الصحة والضمير». الضمير الذي يجعل الإنسان مستريحاً هنيئاً حتى في وسط الأحزان، والصحة التي تمكن الإنسان من احتمال أعباء الحياة. وإذا كانت صحتك جيدة وضميرك مستريحاً لأنك قمت بكل ما يجب عليك لنفسك ولغيرك فأنت سعيد من غير شك. وإذا أضيفت الثروة إلى ذلك تمت سعادتك لا محالة. فالثروة إذاً جزءٌ من السعادة وليست كل السعادة.

وخير ما يختم به الكلام في هذا الموضوع كلمتان من كلمات الحكمة الأولى لمونتسكيو وهي:

> «لو كان الإنسان لا يطلب إلا السعادة لكان ذلك أمراً سهلاً لأن كل إنسان قادر على أن يكون سعيداً. ولكن الإنسان يطلب أن يكون أكثر سعادة من سواه وهنا الصعوبة».

والثانية لهلفت وهي:

> «كن متحققاً أن الرجل الذي يخدم غيره ويجعله سعيداً لا يمكن أن يكون تعيساً».

أيار 1903

1. مقالة لصاحبة المجلة نُشرت في غير هذه المجلة.

الأم والولد والمدرسة

تعليم الأولاد الصغار

مسألة تعليم الأولاد الصغار والمبتدئين مسألة شغلت المهتمين بأحوال الأمم لأن العلم في الصغر كالنقش في الحجر على ما قيل. والطريقة المتبعة الآن في تعليمهم هي طريقة التعليم العملي أو النظري. مثلاً، حين يعلمون الولد كلمة وردة يحضرون له وردة ويعلمونه اسمها وكل مزاياها. ثم يعلمونه كيفية رسمها وإن يكن رسماً بسيطاً فإن ذلك يعطيه فكراً عن هيئتها. وهلم جرا في كل شيءٍ. وأما حشو دماغ الولد بالأسماء والأقوال التي لا يفهم لها معنى فهو أمر مضر لأنه عبارة عن ملء الذاكرة بما ليس فيه فائدة.

قال ناظر إحدى المدارس في إنكلترا إنه ذهب يوماً لزيارة إحدى المدارس فعرف مثالة الأولاد ذلك اليوم قبل دخوله المدرسة. وذلك أنه نظر تفاحة في يد كل واحد منهم. ومن ذلك علم أن المعلمة هي التي طلبت أن يحضر كل واحد تفاحة معه لأن المثالة عليها. وبعد درس التفاح درساً مدققاً عن هيئتها ومزيتها وتقطيعها لرؤية ما فيها جاءت مثالة التصوير. فمن براعة المعلمة اتخذت من التفاحة مثالة التصوير أيضاً وطلبت من الأولاد أن يرسموها. وهكذا رُسم في ذهن الأولاد كل شيء عن التفاحة.

وبعد أيام قليلة زار المدرسة فوجد أيضاً كل ولد حاملاً كلبه الصغير وقد أتى به من البيت ليدرسوا أحواله وكل ما له علاقة به. وفي مرة أخرى جاؤوا بضفدع كي يلاحظوا كيفية تركيب يديها وساقيها وكيفية مشيها. ثم بعصفور. وهكذا يدرسون ويلاحظون الأمور الطبيعية من الصغر فيصبح لهم إلمام بخلائق الله ومن ذلك يقفون على عظمة الله وقدرته. ويلتذون بكل ما يرونه بعد ذلك من الأشياء والمناظر الطبيعية لما حصل من الإلفة بينهم وبينها من صغر. قال أحد السياح

إنه يستطيع أن يمشي لوحده في البراري والقفار ولا يشعر بالوحدة أبداً. ذلك لأنه يرى تسليةً ولذةً في المناظر الطبيعية من زهور وطيور وأودية وجبال فيتذكر ما كان قرأه ودرسه عنها. وكل ذلك نتج من تربيته في الصغر على حب الطبيعة والإعجاب بجمالها.

إذاً درس الطبيعة من أهم الدروس للولد. والدرس يجب أن يكون عملياً كما تقدم. وإذا كان الأسد والنمر مثلاً لا يمكن جعلهما مواضيع للدرس لأنه ليس في الإمكان إدخالهما إلى المدرسة ففي الإمكان نقل أولاد المدرسة ساعة إلى حديقة الحيوانات أو استعمال صورها بدلاً منها.

وفي بعض المدارس قد تزرع المعلمة أو المعلم حبوباً في المدرسة أو تجعل الأولاد يزرعونها بأيديهم ويلاحظون نموها كل يوم، وهكذا يتعلمون كيفية نمو النباتات ومزاياها.

ولا شيء يلذ ويفيد الأولاد الصغار مثل هذه الدروس التي يفهمون بها حقيقة الكائنات والمخلوقات ويصبحون بها فلاسفة وهم صغار... نعم إن ذلك أفيد وأهم مائة مرة من طريقة تعليمهم أولاً القراءة والكتابة في كتب القراءة. فإنه من الواجب أن لا تُسجن عقول الأولاد بتلك الكتب الجافة إلا بعد أن يكونوا صاروا قادرين على أن يتعلموا فيها بسهولة. ولسنا نعلم ضرراً لعقول الأولاد وأجسامهم مثل إبهاظهم من صغرهم بتلك الدروس الناشفة. ولا ريب عندنا في صدق من قال: كلما رأيت معلماً يصيح وينتهر تلميذه الصغير لأنه لم يعرف مثالته خفت أن يكون المعلم هو المخطىء والسبب في ذلك. فنحن نتمنى أن يُنتبه إلى هذا الأمر في مدارس الصغار الذين هم رجال المستقبل. ونحب لهذه المدارس أن تفتخر بأن صغارها يفهمون ما يدرسونه ولا يُحملون فوق مقدرتهم. بدلاً من الافتخار بأن الولد الصغير فيها يدرس في خمسة أو سبعة كتب مع أن عمره لا يتجاوز تسع سنوات. ومما يسوء ذكره أن أهل هؤلاء الأولاد يفتكرون بأن هذا مفيد لأولادهم ولذلك يسرون به كثيراً. مع أنه يكون في الواقع هادماً صحة الولد وضاغطاً على عقله ضغطاً يؤثر عليه في المستقبل وربما أخّر نموه بدلاً من تركه ينمو النمو الطبيعي عقلاً وجسداً.

وعندنا أنه مهما ألحَّ الناصحون وأشاروا بملافاة هذا الضرر فأنهم يبقون مقصرين. ولذلك نود أن يُنتبه إليه في المدارس جيداً. وكأنَّ مدارس الغرب قد علمت أن تدبير شؤون الصغار في المدارس غير مختصّ بالمعلمين لأن الصغار أحوج في ذلك السن إلى أمهات يرضعنهن لبان الرفق والحنو منهم إلى المعلمين. ولذلك صاروا حتى في مدارس الذكور يتخذون المعلمات للعناية بالصغار. فالولد الذي فارق أمه في البيت يجد في المدرسة أماً ثانية رقيقة القلب مثلها وكثيرة الصبر مثلها على غلطات الأولاد.

وبناءً على ذلك فالمهم في تعليم الأولاد منذ صغرهم ليس تدريسهم في الكتب ولكن نفخ روح عظيمة فيهم وإشعال ذلك النور الإلهي الذي وضعه الله في داخلهم وتنبيه تلك النفس الصغيرة وتكبيرها شيئاً فشيئاً. وإذا قابلنا هذا الغرض السامي بغرض ملء الذاكرة بالقراءة والكتابة علمنا الفرق بين التربيتين ـ التربية التي ترفع النفس وتجعل الإنسان إنساناً والتربية التي تهمل النفس وتعتبر الولد مخزناً لألفاظ واصطلاحات وقواعد لا يفهم شيئاً منها.

أيار 1903

الأم والولد والمدرسة

الأولاد وتربيتهم الأدبية

وسائط تربية الولد التربية الأدبية كثيرة تختلف باختلاف البلدان والشعوب. إنما هنالك واسطة اتفق عليها الجميع وهي القدوة. فالقدوة أفعل من كل واسطة وهي أعظم معلم. لأن من طبيعة الأولاد الميل لتقليد من هم أكبر منهم. وبما أن عقولهم تكون عندئذ غير قادرة على التمييز بين الخير والشر فلذلك تراهم مثل الببغاء ينقلون عن الكبار حتى أقبح الشرور وهم لا يدرون أنها شر. وإليك مثالاً مضحكاً على ذلك.

كانت أم تطعم ابنة صغيرة لها، والإبنة لا تريد أن تأكل. فقالت لها الأم إن لم تأكلي فسأضربك. فبقيت الإبنة مصرة على عزمها ولم تأكل. فغضبت الأم وضربتها. ففي المساء كانت هذه الإبنة تلعب بلعبتها فأرادت أن تطعمها. فوضعت الأكل في فمها وقالت لها كلي كلي فإن لم تأكلي فسأضربك. ولكن الإبنة التي تفهم وتحسّ لم يخفها التهديد فكيف باللعبة. فحين نظرت الإبنة أن لعبتها لم تأكل ضربتها. فانكسر رأسها فابتدأت الإبنة تبكي وتقلب رأس لعبتها وهي تقول: لماذا زعلت حالاً يا حبيبتي ها أنا ضربتني أمي فما زعلتُ وكسرت رأسي مثلك.

وهكذا أيضاً نرى الصبيان يقلدون آباءهم والتلامذة معلميهم. ولذلك يقولون إن المعلم الهادىء يكون أولاده هادئين ومدرسته هادئة دائماً. وإذا كان سلوك المعلم غير حسن فلا يُتعبنَّ نفسه بضرب تلاميذه وقصاصهم فإن ذلك يذهب عبثاً.

وأول ما يجب تلقينه للصغار الصدق في كل ما يعملونه ويقولونه. لأنه بتعليمهم ذلك يحصلون على أهم أساس الصفات الحسنة.

أوصى أبٌ وهو على فراش الموت إبنه بأن يفعل ما يشاءُ من الشرور ما عدا الكذب. فبعد وفاة الأب حفظ الولد وصية أبيه. وكان يذكرها دائماً. فذهب مرة إلى حانة وبينما هو داخل قال: ماذا أقول لأمي إذا سألتني. أفأكذب وأغيظ أبي في قبره

أم أغيظ أمي بقولي لها الصدق وهو إنني كنت في حانة السكر. وحينئذٍ عدل عن عزمه وعاد. ثم صادف فرصة يستطيع بها أن يربح بعض الدراهم بالحرام. ولكنه فكر قليلاً وهو يقول: ماذا أقول إذا سُئلت. فعدل أيضاً عن عزمه. وهكذا وجد الولد أنه بحفظه وصية أبيه استطاع أن يُصلح نفسه كل الإصلاح. قال الشاعر جوت المشهور: في الناس صنف لا يمكن الاستفادة منهم بشيء وهم الكذابون فلذلك يجب إهمالهم. وقال الشاعر العربي:

لي حيلة في من ينمّ ... وليس بالكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة

وقد يخطىء كثيرون من المعلمين والمعلمات بمحاولتهم ستر غلطاتهم بزعمهم أن ثقة الأولاد بهم تسقط، مع أنه لو اعترف المعلم بغلطته حتى ولو كان مخطئاً للأولاد أنفسهم فإن ذلك يرفع مقامه في أعين التلاميذ ويعلمهم بذلك مثالة لا تستطيع تعليمهم إياها أكبر الكتب وأهمها. ذلك أنه يكتسب ثقتهم بصدقه تماماً. وهذه هي عقدة العقد في التعليم والتربية. فإنه يجب أن يذكر المعلم أن سلطته على الولد يجب أن تكون بواسطة حبه له فقط. ومتى كان المعلم حاصلاً على حب الأولاد له فلا شك أنه ينجح في كل ما يريد تلقينه ويرى منهم خضوعاً له. فقبل بثّ مبادئك في الولد إحصل أولاً على قلبه. ولا تظن أن حب الأولاد للمعلم يحصل من مجاراتهم وعدم معاقبتهم على ما يصنعون من الذنوب، فإن هذه الإباحة تفضي إلى تمردهم عليك وعدم احترامك. وإنما تحصل على هذه الثقة بجعلك نفسك عندهم مثالاً للعدل والصدق، والحب أي الرفق: وبعبارة أخرى وضع كل شيء في موضعه تماماً. فإن هذا الولد يقتضي قصاصاً صارماً وذلك قصاصاً ليناً وهنا يصير الالتباس وينسبون ذلك لمحاباة المعلم. فإن كان المعلم عادلاً فلا يخف في تصرفاته لأنه أعلم بأموره من غيره. ولا شك أن المعلم العاقل ينتبه لعدم حدوث المحاباة بين تلاميذه والوالدون بين أولادهم. فإن ذلك كثيراً ما يحدث نفوراً بين الإخوة وبغضاً بين التلامذة. فليذكر المعلمون والوالدون أن العدل من نواميس السماء. ولكن العدل بدون الحب والرفق ظلم قلما تحمله الطبيعة البشرية.

حزيران 1903

مدرسة البنات بالإبراهيمية

في آخر الشهر الماضي (مايو) أعطت مدرسة البنات الأميركية في الإبراهيمية فرصتها الصيفية السنوية. وبما أن كاتبة هذه السطور قد صار من الواجب عليها التفرغ للمجلة فقد رأت نفسها مع الأسف مضطرة بعد الآن لترك هذه المدرسة التي تعبت في تأسيسها مع حضرة مؤسستها الفاضلة مسز فني قرينة جناب القس الفاضل المستر فني المشهور بنشاطه وخدمته الأدبية والروحية في هذه الديار. ولذلك رأيت حين تركي لها أن أقول كلمة في وداعها وتاريخها الصغير ليكون أثراً باقياً في هذه المجلة كما بقي في نفسي منها أثر لا يفنى.

إن هذه المدرسة هي ثالثة مدارس البنات للجمعية الأميركية في الإسكندرية. ففيها مدرسة في حارة الإسرائيليين ومدرسة في محرم بك والثالثة في الإبراهيمية. وقد تأسست هذه المدرسة منذ ثلاث سنوات بطلب من أهالي الإبراهيمية. ومع وجود مدارس أجنبية أخرى للبنات في الإبراهيمية فإن عدد التلميذات اللواتي دخلن هذه المدرسة أول نشأتها كان مضاعف عدد التلميذات في غيرها. وذلك لثقة الأهالي بطرق التعليم الأميركية ورغبتهم في اللغة الإنكليزية التي صارت الحاجة شديدة إليها في هذه البلاد.

ولما فتحت هذه المدرسة اتخذت لها أولاً داراً تكفيها. وكل دار في الإبراهيمية تصح أن تكون مدرسة لأنها كلها جامعة لشروط النظافة وإطلاق الهواء ووفور الشمس والنور لأن الإبراهيمية عبارة عن مصيف جميل بل هي أجمل المصايف في الإسكندرية لأنها أولى محطاتها في الرمل. على أن هذه الدار لم تلبث أن ضاقت بالمدرسة لاتساع نطاقها، فانتقلت إلى دار أخرى أكبر.

دروس المدرسة ومعلماتها: أما دروس المدرسة فقد كانت اللغة العربية والإنكليزية والفرنسية والحساب والجغرافيا والتاريخ وأشغال اليد والبيانو. وكان في المدرسة خمس معلمات باذلات قصارى جهدهنَّ للعناية بالطالبات والقيام

بهذه الدروس الموزعة عليهنَّ. وإنني لست أنسى لحضراتهن مساعدتهن لي في تلك الأعمال الصعبة وخدمتهن تلميذاتهنَّ بكل صدق وأمانة وغيرة. وما أذكره دلالة على شهامتهنَّ أننا اضطررنا يوماً إلى تخفيض شيء من رواتبهنَّ الشهرية نظراً لكثرة النفقات فقبلن هذا التخفيض بكل سرور مساعدة للمدرسة.

تلميذات المدرسة: أما تلميذات المدرسة اللواتي لا أستطيع ذكرهنَّ إلا بالأنفعال والدمع فقد كنَّ من أكرم عائلات الإبراهيمية. والإبراهيمية تحتوي كثيراً من العائلات الكريمة مصرية وأجنبية وسورية. أما أعمارهنَّ فقد كانت متفاوتة، ففيهن الإبنة الصغيرة التي لا يتجاوز عمرها 3 سنوات وفيهنَّ الصبية المهذبة العاقلة التي تعاملها معلمتها معاملة الأخت والصديقة لا معاملة التلميذة فقط. وكلهن كنَّ يبذلن جهدهن للقيام بواجباتهنَّ فتمكنّ في فرصة يسيرة من التكلم والكتابة والقراءة باللغة الإنكليزية والفرنسوية فضلاً عن العربية. حتى أن سيدات الأميركان عند زيارتهنَّ المدرسة كنَّ يتعجبن من تحصيلهن ذلك في مثل تلك المدة القصيرة. وقد ذكرت هذا لا لأظهر فضل طرق التعليم - وهي طرق الفهم قبل الحفظ - بل لأظهر مقدار نباهة أولئك العزيزات. فلم يخطىء من قال إنه لا نساء أذكى وأنبه من النساء الشرقيات.

ويجب عليَّ هنا أن أخصّ بشيءٍ من الكلام تلميذات الصف الأول الذي له حق الامتياز دائماً في كل المدارس. وكفى برهاناً على حسن تربيتهنَّ أنني لا أذكر أنني قاصصت إحداهنَّ قصاصاً يُذكر أثناء مدة الثلاث السنوات التي صرفتها معهنَّ. وإذا اتفق وقاصصت إحداهنَّ فإنها كانت تبكي بكاءً شديداً. وكنت أستغرب ذلك لأن نوع القصاص لم يكن شديداً لهذه الدرجة فكانت تقول: إنني متأسفة لا على قصاصي ولكن على إغاظتك. فأين نرى حسن تربية وطيبة قلب أكثر من هذا.

ولستُ أستطيع أن أنسى ما بذلته أمهات التلميذات الكريمات من المساعدة للمدرسة وتمهيدهنَّ طريقها وتسهيلهنَّ ما بين البنات والمدرسة من الصلات حتى أنهنَّ كنَّ دائماً مع المدرسة في كل المسائل نظراً لثقتهنَّ التامة بها. ولما اضطرت المدرسة في ذات يوم إلى زيادة الراتب على الإبنة الواحدة من عشرة فرنكات إلى

نصف جنيه في الشهر لتقوم المدرسة بسدّ نفقاتها، قابلنّ هذه الزيادة بكل ارتياح وكان بعض السيدات الكريمات منهنَّ أوَّل من حثَّ على ذلك.

فلا غرابة بعد ما تقدم إذا كنتُ أشعر بوحشة عند فراق هذه المدرسة وتركي تلميذاتها العزيزات. ويشق عليَّ جداً هذا الوداع. غير أن ما تركنه في نفسي من أثر الوداد المتبادل والحب لهنَّ يخفف صعوبته. وسيبقى تذكارهنَّ في نفسي إلى الأبد. فأودعكنَّ الآن أيتها العزيزات وأؤكد لكنَّ أنني سأبقى لكنَّ بعد فراقكن كما كنت وأنا معكن. ويحلو لي ذكر أسمائكن أينما كنتُ. وأنا لكن مساعدة في كل شؤونكن وفي كل أطوار حياتكن. وأطلب إليكن أن تذكرن في كل عمركن القاعدة الذهبية التي كنا نرددها معاً دائماً وهي: أصنعن الخير دائماً أينما كنتن سواءٌ كان صغيراً أو كبيراً فتجدن دائماً في نفوسكن مسرة وراحة وسلاماً.

حزيران 1903

محادثات السيدات

اقتراح: أيهما ضرره أخف النميمة أم لعب البوكر؟

حديث الإنسان مرآة داخله. ومن حديثه يُعرف لا من وجهه. فهو مفتاح باب القلب والعقل فيجب الاحتراز من العثور بالكلام إذ لا ينفع الندم عليه ولا يرجع منه حرف. ذهبت مرةً امرأة إلى قسيس واعترفت بأنها نمَّت ببعض رفيقاتها وتكلمت كلاماً ندمت عليه. فأجابها القسيس: اذهبي خذي فرخة واذبحيها وانثري ريشها وأنت قادمة إلى هنا. فذهبت وفعلت ذلك وأتت إليه فقال: لقد قمت الآن بنصف مهمتك والنصف الثاني أن تذهبي وتجمعي الريش الذي نثرتيه. فقالت: كيف يمكني ذلك وقد طار في الهواء؟ فأجاب: هكذا كلماتك يا بنية طارت والندم لا يرجعها إنما اذهبي وتوبي عن مثل ذلك.

ونخص السيدات بالمحادثة لأنها صفة من صفاتهن كما قال مرة أب لابنه إذ أتاه سائلاً أي نوع من الكلام كلمة (امرأة)؟ فأجاب الأب: هي ليست نوعاً من الكلام يا بني بل هي الكلام كله. وهذا أمر لا يغيظ السيدات لأن البارعات بهذا الفن يصنعن كثيراً من الخير بواسطته وذلك بتعزية الحزانى والمتعبين وتزيين الحفلات والسهرات برقة حديثهن العذب وحسن اختيارهن المواضيع. ولكن يحتاج ذلك لحسن الممارسة وحسن التهذيب. فهو سكر إذا اتقنته وعلقم إذا أفسدته.

كانت سيدة تهرف مع صديقة لها في قطار السكة وكان قريباً منها رجل فقالت له: أرجو أن حديثنا لا يزعجك. فأجاب: كلا لأنني بأسف أقول قد مضت عليَّ مدة 20 سنة وأنا متزوج فأنا أعرف النساء وأحاديثهن.

وإذا كانت كل السيدات مستعدات لطلاقة اللسان فليس كلهن يعرفن ماذا يتكلمن، فلذلك يجب على بعضهن الصمت لأنه خير الأمور. قيل «إلزم الصمت أو قل شيئاً أحسن منه». فالتي تحب أن تكون متكلمة جيداً يجب أن تتعلم أولاً كيف تصغي ويجب أن تلاحظ في حديثها ما يلذ الآخرين لا ما يلذها هي. وأن تكون تابعة لمجرى الحديث لا قائدته أو مقاومة له. وكما يقولون أن تشتري أكثر من أن تبيع. لا كما قال أحد الكتبة عن النساء: إن السيدات يحببن شراء كل شيء وبكثرة سوى شراء الكلام وذلك لعدم دفعهن مالاً عليه.

يقولون إن الذنوب ثلاثة أنواع: مضحكة ومستهجنة ومميتة. أما كثرة الكلام فهي كل الذنوب. فإن السكران يهزر بالكلام ولكن حين يصحو يسكت. ولكن الذي طبعه الكلام لا يصحو ولا يسكت أبداً. ولذلك إذا كان يعتني بمريض فيكون أثقل من الألم عليه. وإذا كان رفيقك في السفر فيكون مكروهاً أكثر من دوار البحر. وإذا مدحك فتفضل ذم غيره. فهو كله أفواه بدون آذان. فهؤلاء يثلبون سمعة الآخرين وهم لا يبالون ويختلقون أخباراً لا صحة لها حباً بإرضاء جلسائهم ولكنهم ينسون أن هؤلاء الجلساء يذكرون أن من يجلب فإنه يأخذ أيضاً.

قالت سيدة مرة لأحد الأطباء لا شك أنك تفضل معالجة السيدات على معالجة الرجال، فأجاب كلا فإنني أستذوق جمالهن ولطفهن وظرفهن ولكنني أتمنى أن يسمحن لي بوقت قصير أثناء معالجتهن فإنهن حين يبدأن بالكلام فسكوتهن ليس بالأمر السهل.

ومما لا ريب فيه أن حسن الحديث صفة من أحسن الصفات، ولكن الأمر المهم هو في معرفة الحسن والغير الحسن في هذه المسألة. وهنا الصناعة الدقيقة. فلا يظن الناس أن حسن الحديث متوقف على انطلاق لسان المتكلم أو المتكلمة وسرعة الخاطر في الجواب والأخذ والرد. كلا، وإنما حسن الحديث متوقف على فائدته. ولذلك يقول بعض الفرنج إن الصالونات قد ماتت في أوروبا لأن المحادثات فيها لم تعد تدور إلا على الموضة والسياسة والسباق والمراسح. وهم يدعون قومهم إلى المحادثات المفيدة التي يخوضون فيها عباب جميع الشؤون المفيدة.

ويقولون إن هذه الصالونات كانت فيما مضى عبارة عن مدارس عليا يتعلم فيها الناس رجالاً ونساءً الذوق والأدب والظرف والكمال. أما عندنا فهذه المحادثات معدومة تقريباً. ولذلك نرى هنالك حزبين: فحزب يقول إلعبوا البوكر وتسلوا بدل النميمة بالناس واغتيابهم، وحزب يقول بل إن المحادثة مهما كان ضررها فإنها أخف من المقامرة.

وعلى ذلك لا بأس من أن نقترح على القارئات هذا السؤال: أيهما أخف ضرراً في رأيك لعب البوكر أم المحادثة والنميمة بالناس؟

وستنشر المجلة كل ما يردها من المراسلات بشأن هذه المسألة التي تهمُّ العائلات. ولكل واحد من حزب البوكر وحزب المحادثة حرية الإعراب عن أفكاره كما يريد.

تموز 1903

عوائدنا الذميمة
"العوائد الشرقية"

عوائدنا اليوم في الشرق قسمان: قسم شرقي محض وقسم شرقي ممزوج بشيء غربي. والغرض من هذه المقالات ذكر عوائدنا الشرقية والغربية الذميمة للحث على إصلاحها قدر الإمكان. وما سنذكره هنا من العادات ليس عاماً للجميع فإن بعض الأمم مثلاً لا يُطلق عليها ذلك وبعض الطبقات قد تركته وأصلحته. وإنما نحن نتكلم هنا على وجه الإطلاق مبتدئين منذ بدء حياة الإنسان وهو يوم الولادة.

يوم الولادة

فيوم الولادة يومٌ رهيب لا تشعر بهوله إلا الوالدة خصوصاً لأول مرة. فعند بداءة آلامها يذهب الرسول يطرق بيوت الأقرباء والأصدقاء ولو كان ذلك في منتصف الليل، فيجتمع الجميع في غرفة السيدة ويبدأون بالضحك والمزاح والأكل والشرب كأنهم يحتفلون بآلامها. فهذه عادة من أقبح العوائد فإنها تزيد آلام الوالدة المسكينة التي تكون مستسلمة للموت. تزيدها من جهة مس إحساسها كما يشعر كل متألم عند مشاهدته قوماً يمزحون غير مبالين بآلامه. ومن جهة أخرى إن تجمهر الناس في غرفتها مع التدخين أيضاً فيها ما يفسد الهواء فيصعب على المتألمة التنفس بسهولة فتزداد آلامها أضعافاً وكثيراً ما تطول مدة الولادة لهذا السبب. فالواجب إذاً عزل السيدة التي على وشك الوضع في غرفة بعيدة عن الضوضاء واسعة نقية الهواء لا يدخلها سوى الطبيب أو القابلة وبعض من الأهل الأخصاء. ويكون دخولهم بالدور حتى لا يزيد عدد الموجودين عندها عن أربعة. فهكذا يحصل الاعتناء اللازم بالمريضة من جهة قضاء حاجاتها ومن جهة تسهيل وتخفيف آلامها وعدم رهبة الطفل عند أول دخوله في الدنيا. وقد قال

أحد الأطباء: أرجح أن بكاء الطفل ساعة ولادته هو من الخوف من ضوضاء عالمه الجديد فكأنه بذلك يندب عالمه الهادىء الساكن ويتمنى العودة إليه.

هذا من جهة الولادة، فلننتقل الآن من غرفة الولادة إلى قاعة الإكليل.

جهاز العروس

قبل الإكليل بأسبوع يُنشر جهاز (شوار) العروس في قاعة ويدعى المعارف والأصحاب لمشاهدته ويقصدون بذلك المفاخرة به. ولكن قد يكون ما يفخرون به سبباً لظلم تلك العائلة المسكينة ومنعها عن مصروفها اللازم مدة سنة أو سنتين حتى تمكنت من عمل تلك الثياب، وربما استلف ذلك الرجل المسكين على راتبه الشهري لأجل تلك الغاية. فهذا حكم العادة، ولكن ما حكم العدل في ذلك؟ منذ مدة شاهدت امرأة تدخل البيوت تطلب مالاً لأجل عمل جهاز لابنتها، فسألتها ولماذا لا تتزوج ابنتها بدون جهاز هرباً من الوقوف على أبواب الناس لأمر ليس بضروري للحياة. فأجابت: «تعلمين أن الناس تضحك علينا إذا لم نعمل جهازاً». كلا أيتها المسكينة البسيطة أن الناس تضحك عليك إذا كنت تشحذين جهازاً لابنتك. ولكن كيف تلام الطبقة الفقيرة على شحاذتها الجهاز ما دامت الطبقة المتوسطة تستقرض الأموال بالفوائد الكثيرة رغبة في صنعه تشبهاً بأصحاب الأموال. وكيف تلام الطبقات الفقيرة والمتوسطة على ذلك ما دام حضرات الخطاب يبذلون كل جهدهم لاستنزاف كل ما يمكنهم استنزافه من بيت خطيبتهم. وبناءً على ذلك يكون أساس إصلاح هذه العادة مبنية على الخطاب والأزواج. ومن العبث أن يقال للخطيب أو للزوج حث أهل خطيبتك على تخفيف جهازها لأن هذا التخفيف تثقيل عليه. وإن قيل أن هؤلاء الأهل يدفعون ثمن الجهاز نقوداً لابنتهم بدل صرفه في الملابس الباطلة، فالجواب أن هؤلاء الأهل ليسوا بسطاء إلى هذا الحد حتى يجهلوا أن الزوج يتسلط على النقود حالاً ويبذرها. فكفاه الدوطة التي يأخذها. ولذلك يفضلون تبذير المال في شراء الملابس لابنتهم تتلذذ بها سنة أو سنتين على تبذيرها من يد زوجها، ولذلك يكون الأمل في إصلاح هذه العادة ضعيفاً جداً.

الأحزان

نتكلم عن الحزن باحترام ولكن الاحترام لا يمنع الانتقاد. فحين يموت الميت يذوق الأهل شيئاً لم يذوقوه من قبل. فعوضاً عن تخفيف الناس أحزانهم يجتهد بعضهم بتهييجها إلى درجة قصوى. وذلك أنهم يضعون الميت في وسط البيت ويجتمع حوله الأهل والأصحاب ويستأجرون (ندابات) لتعداد أقوال تهيج وتثير الأحزان كأن المصاب وحده ليس كافياً لإثارتها. وقد يصرفون مدة أقلها 8 ساعات على هذه الطريقة حتى تخور قوى الأهل وتضعف أعصاب الضعيفات ويسبب ذلك لهن الإغماء من شدة الانفعال وكثرة الازدحام وفساد الهواء. ولا يكتفون بذلك يوم موت الفقيد فقط بل يواظبون عليه مدة 40 يوماً أو 20 أو 9 أيام. وكل يوم مرتين قبل الظهر وبعده تأتي النساء ويقعدن بالأرض صفوفاً ثم تبتدىء صاحبة الحزن بالنوح ويتبعها الأقرب فالأقرب ثم الأبعد فلا يأتي ختام جلستهن حتى ترى أكثر من نصفهن قد أغمي عليهن، ولا عجب في ذلك.

وقد يمتنع أهل الميت عن الذهاب للمعابد في وقت هم أحوج الناس إليها وعن النزهة اللازمة لأجسامهم، فلا تنتهي مدة الحزن حتى ترى أجسام أصحابه نحيفة ضعيفة. وقد تعتريهم أمراض من جراء ذلك، فتجر خسارة فرد من العائلة إلى خسارة صحة أهله وزيادة الحزن حزناً. فتلك عوائد سهل على الإنسان تركها من غير أن يضعف حزنه الحقيقي الذي هو الحزن بهدوء وسكون في داخل القلب لا بالصراخ والعويل.

وقد أحسنت العائلات الكبيرة المهذبة بترك عوائد الأحزان الذميمة واقتصارها على وضع الميت باحترام في غرفة يحرسها بعض الأصدقاء ويصلي الناس فيها بخشوع بدل البكاء لأن المقام مقام صلاة لا مقام بكاء، مع إبطال كل صراخ وكل عويل والاقتصار على استقبال المعزين ثلاث ليالٍ فقط. وهو إصلاح بدأ من نفسه لضرر العادة القديمة وسيستمر إن شاء الله حتى يعمّ كل العيال فلا يبقى أحد يتمرد على الله لأنه توفي إليه أحد عباده.

زيارة المريض

إذا مرض أحد صار بيته كل يوم عبارة عن قاعة استقبال، فترى الناس أفواجاً أفواجاً داخلة وخارجة من عنده، ولا يخفى ما في ذلك من الضرر للمريض والزائرين أيضاً. فإن وجود الزائرين في غرفة المريض مما يفسد هواءها فيصبح غير صالح للتنفس فيزداد مرض المريض، وبذلك يضرونه من حيث أرادوا نفعه بزيارتهم. هذا عدا عما يحدث من الضوضاء فترى أهل البيت منهمكين بواجبات الضيوف كأن عندهم يوم فرح. وقد ينادي المريض أحدهم لخدمته فلا يُجاب لانهماكهم بالضيوف. فذلك المسكين المريض في غنى عن لطف هذه الزيارات وخشونة نتائجها.

كان طبيب يعود مريضاً فبعد أن تحسنت حاله امتنع عن عيادته. فلم تمضِ مدة قصيرة حتى ذهب الساعي إليه يخبره بخطر حال المريض، فذهب الطبيب إلى بيت مريضه. ولما دنا من غرفته سمع بها الضوضاء ورأى خيوط الدخان خارجة من الأبواب والشبابيك. فقال أريد أن أدخل غرفة مريض لا غرفة قهوة. وهكذا بقي مصراً حتى خرج كل واحد من عنده وتجدد هواء الغرفة. فعند ذلك قال لهم: الآن لا يحتاجني المريض فيما بعد لأنه بتجديد الهواء تجددت قواه وزالت كل العوارض التي كانت ظاهرة عليه.

فغرفة المريض يجب أن تكون نقية الهواء لا يدخلها أحد سوى الطبيب والممرضة حرصاً على تجديد هوائها وعدم تنبيه أعصاب المريض بالضوضاء، وعلى الخصوص لا يدخن في غرفته قطعياً.

وبمناسبة ذكر التدخين ننتقل إلى هذه العادة.

تدخين النساء

نتكلم عن هذه العادة مع علمنا بكثرة عدد المنتصرات لها. ولا نعلم لماذا أصبحت هذه العادة القبيحة محبوبة إلى هذا الحد من السيدات مع أنهن عادة لا يحببن إلا كل شيء لطيف رقيق جميل. وفي العادات ما يضر أدبياً وبعضها مادياً وبعضها صحياً. أما هذه العادة فتضر صحياً وأدبياً ومادياً. فلنأخذ ضررها الصحي أولاً، فإنها

تهيج الأعصاب وتضعف الرئتين والقلب ولا يخفى ما في تنفيس نبريج الشيشة (النرجيلة) من فم إلى آخر من الضرر لنقل المكروبات من فم إلى فم. والضرر الأدبي هو أن السيدات يستعملن كل أنواع العطور والرياحين لأجل لطافة رائحتهن، فكيف يمزجنها برائحة هي من أقبح الروائح حتى تصبح رائحة الشيشة من طبيعة نَفَس بعض المولعين بها.

يروى عن سيدة أنها كانت تكره رائحة التدخين وكان زوجها مغرماً به، فحباً بإرضائها امتنع عن أن يدخن في البيت واكتفى بأن يستعمله خارجاً فقط. ولكنها كانت عند دخوله البيت تشم رائحة الدخان فتستاء من ذلك وتذهب إلى غرفة أخرى بدون أن تظهر سبباً لذهابها. فانتبه زوجها وعلم سبب هربها منه عند دخوله فترك التدخين تماماً.

ولتتصوَّر تلك السيدة المتأنقة التي تكلفت مالاً كثيراً ووقتاً غزيراً تجعل ثيابها وزينتها من أفخر ما يمكن كيف تجلس في زيارتها وتشوه لطافة تلك الهيئة البديعة بواسطة التدخين. أليس من الخطأ تشويهها جمالها هذا التشويه.

أما الضرر المادي فهو إحراق المال بالنار دون أن تأخذي شيئاً عوضها سوى الضرر والرائحة الكريهة. وقد يصل ضررها بالغير لأنهم يقولون إن لأولاد المدخنين عيوباً خصوصية.

ولا يخفى كم تتضايق السيدات اللواتي لا يدخنَّ من وجودهن بين المدخنات واستنشاقهن رائحة كريهة. وهناك ضرر آخر وهو أن الدخان بطيرانه في الهواء يلصق بأوجه السيدات ويترك نقطاً سوداً عليها إذا كانت مرشوشة بالبودرة. فلتتأمل شاربة الشيشة بوجهها قبل أن تدخن.

ولا ننكر أن بعض السيدات المسنات قد تعودن النرجيلة حتى يصعب عليهن كثيراً ترك هذه العادة ولكن يمكنهن تخفيفها على الأقل. أما الفتيات الزوجات فلا عذر لهن وحرام عليهن أن يشوّهن جمالهن وصحتهن بهذه العادة الكريهة.

أما تدخين الرجال فأمر لا نبحث فيه لأنه غير مستغرب منهم وإن كانت أضراره فيهم مساوية لأضرار السيدات.

التقبيل

من حسن الحظ أن عادة التقبيل قد بطلت وقلت في البلاد الكبيرة، وصارت السيدات يقتصرن على المصافحة بهز اليد. فالحمد لله على ذلك ثم الحمد لله لأن عادة التقبيل آفة من الآفات. لأنه قد ثبت علمياً أن الفم مهما كان ورديـاً وجميلاً يكون مرعى لكثير من الميكروبـات. فبالتقبيل تنتقل هذه الجراثيم من فم إلى فم وتنقل الأمراض والعلل الفاتكة. وكثيرات من السيدات في المدن الصغيرة قد يضحكن من هذا القول، فيا ليت يوضع مكرسكوب على أفواه الناس سيدات ورجالاً ليرى الضاحكات فيه ما في تلك الأفواه من جراثيم الأمراض وحينئذٍ يشفين من مرض التقبيل إلى الأبد. وما أجمل أن تلتقي السيدة بالسيدة فتهز يدها ببشاشة ووداد بدل التقبيل المتتابع المصوّت خصوصاً أمام الرجال.

أيلول 1903

عوائدنا الذميمة
«العادات الغربية»

تكلمنا في الجزء الماضي عن بعض عاداتنا الشرقية. واليوم نكتب شيئاً عن بعض عوائدنا التي اقتبسناها من الغربيين وأسأنا استعمالها. وهكذا في كل جزء نذكر شيئاً من عوائدنا الغربية أو الشرقية حتى نأتي عليها أو على أكثرها. فتكون هذه المقالات صورة مصغرة لأحوالنا الاجتماعية.

ومما لا يحتاج إلى بيان أننا لا نعتقد أن جميع العادات التي أخذناها من الغربيين هي رديئة. كلا. فإن فيها شيئاً كثيراً حسناً. ولكن من عادة المقلدين أنهم يتناولون دائماً من المقلَّدين الشيء الأسهل والألذ. والشيء الأسهل والألذ يكون على الأكثر ضرره أكثر من نفعه. وإذا أسيء استعماله ولم يوضع في موضعه كان ضرراً محضاً. فيا ليتنا أحسنا الاختيار فأخذنا من الغرب فضائله دون نقائصه، بل يا ليتنا أخذنا النوعين معاً الفضائل والنقائص فإن الفضائل كانت تستر النقائص. ولكننا من سوء الحظ أخذنا من النقائص أكثر مما أخذنا من الفضائل. وهنا موضع الداء الذي يجعل كثيرين من الشرقيين يعتقدون أن التمدن العصري مضر ورديء.

الذنب ليس ذنب اللبن إذا فسد في الإناء بل ذنب الإناء لأنه لم يكن نظيفاً.

والآن نبدأ بذكر بعض تلك العادات.

الزيارات

كانت الامرأة الشرقية قديماً لا تعرف ما هي الزيارات ولا تخرج من بيتها إلا للمعبد أو للحمام، والتي تذهب للمعبد وللحمام كانت من الغنيات المتمدنات...

وملاءة السيدة (الإزار) تبقى لتكفن بها عند الموت. وحذاؤها يبقى عندها سنين عديدة ولا تعمل غيره إلا إذا سمنت كثيراً وضاق عن قدمها. ولا ريب أن هذا تطرف غريب. ومن العجب أن تصبر عليه المرأة في تلك الأيام.

ولكن فلنقابل هذا التطرف بحالتنا الحاضرة التي هي طرف آخر. فإننا تركنا الأوروبيين في الوسط وسبقناهم في الزيارات. وصار شغل السيدة الوحيد الزيارات. فتترك البيت على الخادمات والأولاد لأجل زياراتها. ولا يهنأ عيشها إلا خارج بيتها. ويوم تكون مضطرة للبقاء في البيت هو يوم كدر عندها. ويا ليتها تكتفي بزيارات النهار فقط بل في السهرات أيضاً. فيأتي زوج تلك السيدة من شغله فلا يجد في البيت سوى صراخ الأولاد مع الخدامين، فيندم ويعود إلى إحدى القهاوي للاستراحة فيها من عناء أعماله. وتلك السيدة لا تبالي إلا بتتميم واجباتها نحو صديقاتها مع أنها كان يجب عليها أولاً القيام بواجباتها نحو زوجها وبيتها. ولا تأتي نوبة صديقاتها إلا بعدهم. فلو رتبت أوقاتها وخصصت بعضها للزيارات لما استحقت هذا اللوم.

إن الزيارات جُعلت للتقارب وزيادة الإلفة. ولكن نحن قد غيّرنا وضعها وجعلناها ملاهي لا نفيد ولا نستفيد فيها سوى ما نسمعه من الكلام بعضنا على البعض والتنكيت والنميمة.

اللغة

من الموضة الجديدة اليوم الكلام بلغة أجنبية في الزيارات. ومن المضحك أنه حين تتكلم سيدة باللغة العربية تحشي كلامها بكلمات إفرنجية وتعتذر بأنها غير قادرة على تعبير أفكارها بلغتها لأنها لم تدرسها، وتظن بذلك فخراً لها. والحقيقة أنها غير قادرة على تعبير أفكارها لا باللغة العربية ولا بتلك اللغة الإفرنجية أيضاً. وهكذا لا يوجد لها لغة تمكنها من التعبير عن أفكارها. وهذا أيضاً من باب التفرنج. لأننا نودّ أن نكون أوروبيات كأنه لا يوجد شيءٌ حسن إلا في أوروبا، وننسى أننا بسلوكنا الحسن نقدر أن نجعل كل شيءٍ حسناً. فلا يجب أن نخجل بلغتنا أيتها العزيزات ولا بكوننا شرقيات. وهل اسم الشرقي يمنعنا من أن نكون

ممدنات ومتهذبات. وهل لم يكن للشرق المنزلة الأولى من التمدن والتهذيب في الزمن القديم. ثم أتجهلن أن ما نراه في الغرب اليوم ليس سوى تتمة التمدن الشرقي الأول.

فلنجتهد أيتها العزيزات بتقليد ما هو نافع وصالح لأنفسنا، ولننبذ في هذا التقليد كل ما يحكم العقل بفساده.

التبذير والزينة والصحة

إن الزي مفتاح الصندوق وله السلطة الأولى في تبذير المال. لأنه بينما نسمع أن فلانة بخيلة ـ ونعم النعت لو صدق ـ نجد أنها تبذر كل ما تقتصدهُ من بخلها على ثيابها وزينتها. فتقنع بكل طعام حتى الخبز والجبن لتزيّن جسمها بالثياب الثمينة والحلى الفاخرة. قالت سيدة مرة إنها تفضّل أن تلبس ثياباً جميلة ولا تغتذي جيداً وذلك لأن الثياب تظهر أما الأكل فلا يظهر. فهذا القول يشبه قول من يقول لا حاجة لنا بالدم الجاري في أجسامنا لأنه لا يظهر. ولكن إذا ظننت أن لك الحق بهذا التصرف بنفسك من جهة الغذاء، فاذكري أن الصغار الذين هم بحاجة للغذاء الجيد قبل الثياب الجميلة يطالبونك بصحتهم ودمهم في المستقبل.

ومن الغريب أننا نحب تقليد زي الأوروبيات وثيابهن ونترك تقليدهن بالاقتصاد وجودة الصحة التي لا تأتي إلا من حسن المعيشة. فإنه لم يخطر ببال السيدة الأوروبية أن تبذر المال على ثيابها وزينتها إلا بعد أن تزين داخلها وتجعل شعارها أولاً الاهتمام بالأهم قبل المهم. فالمرأة العاقلة توزع دخلها على نفقاتها اللازمة كل بحسب أهميته وتحفظ شيئاً منه في صندوق الاقتصاد ذخيرة لها عند الحاجة. وهذه المرأة العاقلة يفتخر بها زوجها إذا سلمها بيته وهي تعيش مسرورة ضاحكة من الزمن الآتي سواءٌ أتاها ضاحكاً أو عابساً.

سُئلت فتاة عن رجل أتى يخطبها: كم يربح في الشهر؟ فأجيبت: مقدار ما تستطيع أن تربح هي بالاقتصاد. فهذا القول عين الحقيقة لأن كل ما يربحه ليس له بل للمخازن والخياطة والموديستات. إنما ما تقتصده هي من ذلك باقٍ لها وله. فلتذكر الزوجة والأخت والإبنة اللواتي يفتخرن بالمصاريف الباهظة أن الرجال يصرفون

دماءهم في تحصيلها، فحين شراء حاجة ما يجب أن يسأَلن أنفسهن هل هنَّ بحاجة إليها وهل لا يستطعن أن يستغنين عنها.

البنات والعمل

في الشرق عادة قبيحة تسبب بلاءً عظيماً في أكثر الأحيان. وهي اعتقادنا أن العمل في بعض الأحيان أمر دنيء لا يليق. فالشبان والرجال لا يعملون إلا الأعمال التي تعجبهم. ولذلك يبقى كثيرون منهم بلا عمل حتى يجدوا عملاً يرضيهم. والبنات ترى العمل عيباً أيضاً. مع أن أول شيء يجب على الإنسان أن يشكر الله عليه هو تقديره إياه على العمل.

إن العمل أشرف شيءٍ تحت قبة السماء. وما الغرض من الطبيعة كلها إلا العمل. ولا يزال يرنُّ في ذهني قول خطيب كان يخطب في العمل في ليلة من ليالي الشتاء، فاستهلّ خطابه بهذه العبارة الجميلة: أيها السادة إن الطبيعة التي تزئر الآن في الخارج والرعود التي تقصف والزوابع التي تهب والريح الذي يصارع نوافذ هذا المكان كلها تنادي بأن الله هو إله الجدّ والعمل.

فالعمل قد هجرناه نحن الشرقيات من سوء الحظ. ولكني أود أن نعود إليه. وإنني أقسمه قسمين: عملاً للنفع وعملاً للحاجة.

أما العمل للنفع فهو واجب على الإبنة وإن كانت غنية. وذلك لسببين. الأول: إنه قد تهبُّ عليها لا سمح الله زوابع الحياة وتفتقر. فإذا كانت تحسن عملاً قدرت أن تكسب رزقها ورزق أولادها بعرق جبينها. والثاني أن العمل يحسن الصحة وينشط الدم ويلهي العقل عن الأفكار الرديئة والأمور السوداء. أي إنه يحسن صحة النفس كما يحسن صحة البدن. فمن الواجب الضروري الذي لا بدَّ منه أن يكون عند كل إبنة غنية عمل تعمله وتنفع به غيرها سواءٌ كان ذلك في البيت أو خارج البيت. وكثيرات من بنات الأغنياء الكبار في أميركا وأوروبا يخدمن المرضى في المستشفيات ويشتغلن لهم وللفقراء في البيوت. وقد أخذ هذا الإصلاح يظهر في بلادنا من حسن الحظ. فإنني أعرف كثيرات من بنات الأغنياء والمستغنين

يتطوعن في المدارس التي ربتهن للتعليم فيها ومساعدة معلماتهن ولا غرض لهن من ذلك غير حب العمل النافع. إذ صار يصعب عليهن بعد تعوّدهن معيشة العمل أن يعشن بلا عمل. هذا إلى أن تجيءَ نوبتهنَّ ويدعين إلى استلام بيت فيصرفن إليه رغبتهن هذه في السعي والعمل والنشاط. وبذلك يخلصن من شيطان البطالة والكسل الذي يخرّب في الأجسام والنفوس.

أما القسم الثاني من العمل فهو العمل للحاجة. وهذا داءٌ عياءٌ. فإن العيال الإفرنجية متى كانت في حاجة دفعت في الحال أبناءَها وبناتها إلى العمل. فلا تمضي سنتان أو ثلاث حتى تنهض العائلة بسعي الفريقين. ورب عائلة منهم في الإسكندرية يكون فيها شاب وثلاث بنات فتربح البنات في الشهر أضعاف ربح الشاب. فلماذا يا ترى لا تقتدي العيال الشرقية بالإفرنج في هذا الأمر. ولسنا نريد بذلك أن ترسل العيال الشرقية بناتها للعمل خارج المنازل في أماكن شديدة الازدحام والاختلاط. كلا. وإنما نقصد أن تعلم كل إبنة أن العمل في المنزل فخر وشرف. وإذا اشتغلت يجب أن لا تخجل بشغلها لأنها تعمل عملاً كبيراً. أما العيال التي تحتاج إلى العمل وتهمل بناتها هذا الأمر أو تخجل منه فإنها تُعدُّ مقصرة في الواجب عليها. فالعمل العمل هذه هي نعمة الله الكبرى في الأرض. ومن يجحد هذه النعمة يستهدف للتعاسة والتعب وحينئذٍ لا يجب أن يلوم أحداً غير نفسه.

تشرين الأول 1903

عوائدنا الذميمة
المقالة الثالثة

إن ما لاقته المقالتان السابقتان من رضى القارئات وارتياحهنّ يدعونا إلى التوسع في هذا الموضوع. ويسرنا أن ننشر كل الملاحظات والاقتراحات التي تردنا بشأنه.

المآدب

اشتهر الشرقيون قديماً وحديثاً بتبذيرهم في المآدب، فمائدة الفقير عندنا تكلف أكثر من مائدة الوسط عند الغربيين. وهو يقصد بذلك زيادة في احترام الضيف وإظهار الأبهة التي قد تكون غير حقيقية. مع إننا يمكننا أن نظهر الاحترام بلطف الاستقبال ومؤانسة الضيوف أكثر مما نظهره بالكلف الزائدة والمصاريف الفارغة. وهذا ما قاله أحدهم إذ نزل ضيفاً على صديق له قال: لم آتك لأصرف الوقت على المائدة بل بالحديث والمؤانسة. فأعظم لطف تظهره لي هو أن تحسبني كفرد من العائلة. ومما يُعاب الشرقيون عليه كثيراً كثرة الإلحاح على الأكل ويسمون ذلك «واجبات»، والتي لا تستعمل ذلك ينسبون إليها البرودة وعدم معرفة الأصول. والقصد من ذلك زعمهم أن الضيف يخجل من استعمال حريته على المائدة والأكل كما يريد.

يروى أن أوروبياً دُعي للغذاء عند إحدى العائلات الشرقيات، فأكل حتى شبع. فبعد قليل أخذت ربة البيت بإظهار كل لطفها «بتوجيب» ضيفها غير مصدقة أنه غير قادر أن يأكل بعد. وهكذا حشته أكلاً. فذهب المسكين من البيت بعسر هضم شديد. فقال له رفيق هذه عادتهم هنا فيجب أن لا تأكل كفايتك حتى تقبل «واجبات» السيدة. فدعي ثانية لنفس البيت وكان رفيقه قد أخبرهم أن ضيفهم قد أُصيب بعسر الهضم بسبب كثرة الأكل عندهم، فترك أهل البيت الضيف يأكل كما يشاء ولم «يعزموه». أما هو فاعتماداً على الماضي أكل قليلاً

وانتظر فلم «تعزمه» صاحبة البيت فقام جائعاً. وهذا ما أصاب أحد الشرقيين أيضاً على مائدة أحد الغربيين.

وما قيل في المآدب يقال في الزيارات. فيا حبذا لو تبطل هذه العادة تماماً من كل البيوت، وإن كانت البيوت الكبيرة قد أبطلتها. وهذه العادة إذا كانت سيئة في نتائجها فهي حسنة في سببها، لأنه لا سبب لها سوى السخاء الشرقي المشهور ورغبة أهل البيت في إرضاء الضيف. أما الإسراف في إعداد المآدب فهو سيءٌ في سببه وفي نتيجته ولذلك يجب تركه.

الخادمات

كانت الخادمات قديماً تُشترى بالمال وهن المعروفات بالجواري. فتشتري العائلة بمبلغ يسير جارية ويصبح لها عليها حق السيادة والتصرف بها كيفما تشاء. وأما الآن فانعكست الآية وصارت الخادمة في البيت هي السيدة. ولا شك أن ذلك ردّ فعل عادل نتج عن ظلم السيدات في الماضي. ولم يزل بعضهن إلى الآن يتصرفن مع الخدم كعبيد، فنرى الخادمات في المنازل في بلادنا نوعين إما أحرار يفعلن ما يشأن في البيت ولهنّ حق التداخل في كل أمر وترى السيدات يطلعنهنّ على كل شيء حتى على أسرار العائلة ودخائلهن فيسقط بذلك كل احترام لهن في عيون خادماتهن. وإما ينزلنهنّ تحت أقدامهن ويحسبنهن من جبله ثانية ويمنعنهن من كل حرية شخصية. فتخسر السيدات احترامهن بذلك أيضاً شأن كل ظالم. ولذلك قال رسكن: إذا أردت خادماً صالحاً يجب أن تكون أنت صالحاً. فإن الطبيعة بأسرها تخدم الإنسان الصالح وتقاوم الجاهل. وقال آخر: لا يمكن أن تجد خادماً مهذباً وصالحاً كما تريده إلا الذي تجعله أنت كذلك بحسن تصرفك ولطفك معه. فالسيدة مديونة لخادمتها بمساعدتها وأمانتها، والخادمة مديونة لسيدتها بمالها وحسن معاملتها. فإذا قامت الاثنتان بواجباتهما استراحتا. ولا شك أن المسؤولة عن ذلك في الأكثر هي السيدة إذ من يعرف كثيراً يُطلب منه أكثر. فيمكنها أن تحصل على الاحترام اللائق بها وعلى راحتها مع خدمها بحسن إدارتها وتصرفها.

سألت مرة سيدة خادمة جديدة: لماذا تركتِ البيت الذي كنتِ فيه قبلاً.

فأجابتها: إنك كثيرة السؤال أيتها السيدة فلماذا لم أسألك أنا عن سبب تركك خادمتك القديمة. فالخادمة التي تحترم سيدتها لا تجاوبها هكذا. ولماذا هي لا تحترمها. لأن السيدة تحتقر خادمتها، والخادمة بشر ذات نفس تتأثر وتحس كسيدتها ولا فرق بينهما إلا حسن البخت. ومعلوم أن السيدات عليهن استعمال الرقة واللطف مع الأولاد والأهل وباقي الناس، فلا أعلم ما الذي يُسمح لهن باستعمال الخشونة مع خادماتهن. ولذلك أَصاب من أراد أن يخطب فتاة فذهب إلى خادمتها وسأل عن طباع الإبنة قبل أن يخطبها. فلتحترس البنات إذاً...

تسليم الأولاد للخدم

أصبحت تربية الأولاد أمراً سهلاً جداً. فإن الأم لا تنظر أولادها إلا كما تراهمُ سيدة غريبة. فينامون ويقومون ويذهبون إلى المدرسة بدون أن تراهم لأنها تسلم كل أمرهم للخدم الجهلة. ومن الأمور الغريبة أن نسمع أن بعض الأولاد يأتون الظهر إلى البيت فيتغدون مع الخدم ويرجعون إلى المدرسة بدون أن ينظروا أمهاتهم وذلك لتغيبهنّ عن البيت.

أتت مرة سيدة إحدى المدارس وطلبت أن تبعث لأولادها الغذاء من البيت الذي كان بجانب المدرسة. فقالت المعلمة: إن البيت قريب والأحسن للأولاد أن يتناولوا غذاءهم في البيت فيتعلموا الأدب على المائدة. فأجابت الأم: «يكسرّون راسي بضوضائهم»! فهل هذا قول من يحسن تربية أولاده؟ إنك تسمحين لهذا الولد الذي هو قسم منك أن يأكل بعيداً عنك أو بين يدي الخدم، والأغلب البرابرة، فيبثون كل عاداتهم الرديئة في الأولاد، وبعد ذلك تطالبين الولد بالآداب أو تلومين المدرسة على ذلك. فلا تلومي غير نفسك.

أما تسليم الأولاد للبرابرة فمسألة من أهم المسائل. قيل أن بربرياً اعتاد توصيل إبنة للمدرسة، فحين وصلت وأرادت الدخول لم يدعها تدخل حتى تودعه وتقول له بالفرنسية «أديو» فلم تشأ الإبنة وأخذت تبكي وهو لا يتركها تدخل. فأتت المعلمة لترى ما الخبر، فقال لها البربري: خذيها يا ست فإنها لا تريد الدخول للمدرسة.

فأجابت الإبنة بكلامها المكسر: لا مش صحيح بل هو لا يدعني أدخل حتى أودعه وأقول له «أديو».

هذا قليل من كثير تكفي فيه الإشارة. وقد سمعنا كثيراً أن بعض الآباء لا يريدون البرابرة في البيوت لأجل أولادهم، فنعماً ما يفعلون. ويحسن بالسيدات أيضاً أن لا يسلمن أمر أولادهن وكيفية إرضائهن للخدم لأنه لا شك أن بذلك خسارة عظيمة. خسارة من جهة آداب الولد، وخسارة من جهة فتور المحبة بين الأم والأولاد فيصبحون بغنى عن أمهاتهم، حضورهن وغيابهن سيّان. فالأم الصالحة تراقب أمر الأولاد على الأقل إن لم تتولَّ بنفسها تدبيرهم وتجعلهم موضوع أفكارها هذا إذا أرادت أن تفتخر بهم في المستقبل، وإلا فكما قال المثل اليوناني: سلم ولدك لخادم فيصير عندك خادمان بدل الواحد. هذا من جهة آدابه، أما من جهة صحته فاعلمي أن ابنك عزيز على قلبك ولكن ليس على خادمك، فتأملي وضع هذا العزيز بين يدي من لا يهمه أمره.

قالت أم لخادمتها: خذي هذا «البلرين» ولفي الولد فيه جيداً في الطريق كي لا يبرد. فذهبت الخادمة وعوض أن تلف الولد فيه لفت نفسها. وهكذا أتى الولد البيت في برد شديد وأصابه ضرر جسيم، فأخذت الأم تبحث عن أسباب ذلك فأخبرها بالخبر أحد أقربائها الذي كان قد نظر الولد على يد الخادمة.

تشرين الثاني 1903

عوائدنا الذميمة
المقالة الرابعة

قلنا قبلاً إن عوائدنا الذميمة قسمان قديم وجديد. فنذكر الآن بعض العوائد القديمة الذميمة التي هي من حسن الحظ آخذة بالزوال حتى من بين العيال الصغيرة البسيطة.

الأوهام

وشيخ هذه العوائد السحر ويُعرف أيضاً بالكتابة، فيقولون فلانة مكتوب لها ولذلك تراها كما هي من جهة تصرفها وسلوكها. وفلانة يبغضها زوجها لأنهُ مسحور وهلمَّ جرًا. وربما عرف القارئات من ذلك أكثر مما أعرف.

ومن غرائب ما رُوي عن أخبار السحر والوهم أن امرأة كانت تكره زوجها وأولادها لأنها توهمت أن داخلها عفريتاً يجبرها على ذلك، فصارت تحلم به في الليل فمنعها ذلك من النوم. ودامت على هذه الحال مدة حتى ضعفت قواها وأصيبت بنوبات عصبية نسبوها أيضاً للعفريت. فاستدعت إحدى المنجمات فقالت لها إنك مسحورة وداخلك العفريت ولا يخرج منك حتى تفكك التي سحرتك وأنا أعرف من هي. ثم ذهبت وأتت ثاني يوم ومعها زجاجة ماء وقالت للمسحورة هذا ماء يحلّ السحر فاشربيه تشفي. فشربت المرأة منه في الحال، وفي تلك الليلة نامت جيداً لأنها توهمت أن الشيطان خرج منها. مع أنه لم يكن في الزجاجة غير ماء اعتيادي. وهكذا أخذت حالتها تتحسن بتحسين قواها. فأخذت تلك المنجمة شهرة عظيمة بسبب ذلك.

ومن هذا القبيل مسألة الزار المشهورة في مصر. لكننا نترك الكلام عنها إلى القارئات اللواتي شاهدنها بعيونهن، ونرجو من إحداهن أن تخصص لها مقالة تصفها فيها وصفاً دقيقاً.

وثانية العادات (الإصابة بالعين) فإذا نظرت امرأة إلى ولد واستظرفته ولم يكن لها أولاد فإنه يُخشى على الولد من عينيها. وإذا نظر الإنسان وجهاً جميلاً ولم يذكر إسم الله ليطرد العين الرديئة أصيب صاحب ذلك الوجه بالعين. وهكذا لا يستحل نصراء هذا الوهم النظر إلى شيء أو استغراب شيء بدون أن يقولوا ما شاء الله واسم الله و(يخزي العين). فيا لعظم قوة البشر على الشر. فإنه بمجرد نظرة واحدة منهم يحدث المرض أو الموت، وبمجرد كتابة أسطر قليلة تدخل الشياطين والعفاريت إلى الأبدان: فكأن الإنسان لم يُمنح إلا قوة الشر، ولم يُعط المعرفة إلا للضرر.

ولكن أصحاب هذا الوهم يقولون: بلى إن للبشر قوة للخير أيضاً وهي أنه إذا أُصيب أحد بالعين الشريرة يوجد من يعرف بدوائها وهو الأمر المعروف (بالرقوة)، فأنعم بها من عادة ذميمة ثالثة. فالرقوة هي أن تُدعى إحدى المدجلات للمصاب تأخذ كأس ماء وتهرف فوقها ببضع كلمات لا معنى لها ثم تسقي المصاب منها... وقد يسكبون رصاصاً فوق رأسه فيوهمون أنهم ينظرون فيه صورة الذي أصابت عينه المريض. وما دروا أن تلك الرصاصة التي ذابت في النار لا بد من أن تجمد بعد أن تبرد بهيئة غير منتظمة، فيرونها هم صورة امرأة أو رجل. واتقاءً من تلك العين قد يضعون في عنق الأطفال خرزةً زرقاء. وقد شاهدت في بعض الأبنية الجديدة في بعض قرى الشام قرون ماعز معلقة فسألت عن سبب وضعها فقيل لي الخوف من العين.

وإذا توفق رجل في أشغاله وفي نفس السنة خطبت إبنته وولد مولود ذكر له، خافوا على ذلك الرجل من العين. ولو أنصفوا لقالوا من الحسد.

تفضيل الغلام على الإبنة
ظلم الأمهات

من العادات الذميمة تمييز الصبي على الإبنة. فإن هذه العادة قديمة جداً ولكن لم يزل أثرها شديد الوضوح. ولا شك أن الحق في جانب من يفضلون الصبي على الإبنة لا في من يميزونه. فالأم تحب طفلها لكونه طفلها لا لكونه سينفعها في المستقبل وإلا لما كانت محبة الأم حقيقية. لأن حبنا لأجل مصلحتنا حب باطل

وغير حقيقي. وقد نرى أماً لها ولدان صبي وابنة وهي تترك الصبي لحريته يفعل ما يشاء أما الإبنة فتقيّدها بسلاسل. فإذا كسر أحدهما شيئاً تسأل الأم من فعل ذلك، فإذا علمت أنه الصبي صفحت لهُ وقالت: ليته فداك عش واكسر غيره. وإذا كانت الإبنة فويل لها فإنها تُزجر وتضرب. وإذا طلب الصبي حاجة نالها بالحال، أما الإبنة فتجاوب: اسكتي ما أكثر مطاليب البنات. البنت شلشها قوي بسبعة أرواح. الصبي نحيف لطيف اعتنوا به لا تغيظوه. كل هذه الأمور تحط من شأن الإبنة في عين نفسها منذ صغرها وتجعلها تحتقر نفسها، فلا عجب إذا شبّت على صغر النفس والضعف.

فهذا خطأ يجب تداركه. لأنه يجب تعليم البنات من صغر احترام أنفسهن وأنهن شيء يُذكر في العالم. ومتى ربين هذه التربية يكون لهن أنفس غير أنفس نساء اليوم. وهنا ندخل في عادة ذميمة لنا وهي بغاية الأهمية، وهي عادة يجدر بأن نسميها عادة ظلم الأمهات. فإنه قد يكون في بيت واحد مدموازلتان أو ثلاث وربما تكون أحوال العائلة لا تمكنها من استخدام خدم لقضاء أشغال البيت، فتترك البنات كل خدمة البيت على الأم ويترفعن عن كل أعمال المطبخ وأشغال البيت خوفاً على أيديهنَّ من السواد أولاً ولمنع الكورسه إياهنَّ من العمل ثانياً. وليتوفر لهن وقت كافٍ للزينة حفظاً لجمالهن ثالثاً. وهكذا تفنى الأم من التعب وترزح تحت ثقل حملها الذي لو تفرق على الجميع لما شعرت إحداهن بتعب. فأيّ فضل للإبنة بترك أمها لوحدها في كل أشغال البيت. وكيف يساعدها ضميرها وحسن ذوقها وسمعتها بين الناس على ذلك. ولكن الحق أن الأمهات يحصدن هنا ما زرعنه. فيا ليتهن يعمدن إلى تربية بناتهن على العمل من صغر. وهكذا يفزنّ بأمرين: راحة لأنفسهن وفائدة لبناتهن إذ ينقذنهنَّ من آفات البطالة.

كانون أول 1903

واجبات الزوجتين
الجاهلة والعاقلة

نشرنا في الجزء الماضي مقالة عنوانها «واجبات الزوجة العاقلة»، وقد سرنا أنها لقيت استحساناً شديداً. وقد خطر لنا بعد ذكر واجبات الزوجة (العاقلة) أن نذكر واجبات الزوجة الجاهلة. والقارئة اللبيبة تعلم هل الكلام التالي مزاح أو جد!

واجبات الزوجة الجاهلة: هذه الزوجة وما أدراك من هي. هي ربة الحسن والجمال. هي ملكة العباد وزينة الجمعيات. سلطانة الموضة وصاحبة مملكة الأزياء.

فإذا أرادت أن تكون الزوجة بهذه الأوصاف يجب أن تمارس هذه الصفات وهي إبنة، فتهتم كل الاهتمام بأمر الزينة والتبرج واستعمال كل ما أمكنها من الوسائط لاصطياد زوج لها أو لابنتها، ولا تبالي بقول كاتب شهير إذ قال: أريد أن كل فتاة تعد نفسها لتصير زوجة للزواج لا لزوج مخصوص. فإن هذا قول بارد وإن يكن صادراً عن كاتب شهير، فإن الكتبة كثيراً ما يتصورون ما لا صورة له في الأرض. فهل يجب أن تنتظر الإبنة لتصل إلى عمر أخنوخ حتى تتزوج أو أنها لن تتزوج أبداً إذا لم تحصل على الزوج. كلا بل تطرفي أيضاً في هذه الأفكار وانظري إلى جيب الخطيب أولاً واتركي آدابه وأخلاقه وصفاته فإن هذه أمور عرضية... المهم كم هي مقدرته على أن يقدم لك من الهدايا الثمينة التي تعرضينها على جميع صديقاتك لتتفاخري بها. وماذا يعنيك إذا كان ثمن تلك الهدية ديناً عليه يفيه من راتبه أو من الدوطة التي سيأخذها منك.

وفي مدة الخطبة لا تبدأي بالافتكار بواجباتك الجديدة ومسؤوليتها فإن ذلك أمر ثانوي. اهتمي بالأهم أولاً. اهتمي بثيابك الجميلة وبفساطينك النفيسة، واصغي إلى قول رفيقتك إذ قيل لها بعد خطبتها: يجب أن تقرأي كثيراً من

الكتب المفيدة لك في حياتك الجديدة كتدبير البيت وترتيبه وتربية الأطفال ومعرفة أخلاق الرجال. فأجابت: الزمن الماضي مضى والآن لا قراءة ولا كتاب لأن وقتي يجب أن يخصص كله للخياطة والأشغال. فقيل لها: اختصري ما أمكنك اختصاره من هذه الخياطة والأشغال. قالت: كيف اختصر وهو لذتي الوحيدة. والكلام بسرك أنه لولا الثياب الجميلة التي تصنعها العروس لما رضيت فتاة بالزواج.

وأذكرك أن أعظم ما تقوم به واجباتك عند أول دخولك بيتك الجديد أن تقلبي البيت قلباً كما فعلت إحدى رفيقاتك التي تزوجت في العام الماضي. فإنها من أول دخولها إلى البيت نظرت الخدم بثياب سوداء حزناً على أبي الزوج فرفضت أن تراهم قبل تغيير ثيابهم. وفي ثاني يوم طلبت تغيير البيت. وثالث يوم استبدال الخدم. ورابع يوم أن تفسخ زوجها عن بيت أهله. وهنا أنبهك إلى مرض صعب شفاؤه جداً وهو سلطة أهله في البيت، فدونك ونزع تلك السلطة من أول يوم. يقول المثل البداية الحسنة نصف الطريق. وإذا اعترضك زوجك على سلوكك هذا فادخليه أيضاً بالحساب. وهكذا اجعلي لنفسك السيادة في البيت، لك النفوذ والأمر والنهي. ولا تخافي أن يقال عنك ما قاله أحد الأزواج يوماً إذ كتب له صديق يهنئه بزواجه ويسترشده هل يقتدي به أم لا. فأجابه: قرأت كتابك وأنا متعطش لكلمة تعزية منك لا لتهنئة. وكل نصيحة لك عندي هي أن تقبل مصيبتك وأنت أعزب مفردة فلا تضاعفها لأن الرجل لا يعرف ما معنى صعوبة الحياة حتى يتزوج. فالزوجة كقطعة زجاج سوداء يرى الرجل كل شيء فيها أسود.

سئل يوماً رجل عن سبب تغيبه عن البيت أكثر من العادة فأجاب لأنني تزوجت. وقال زوج لزوجته إذ سألته وهي على طعام الصباح أنها لا تعلم لماذا نرى كل شيء أسود في هذا الصباح فأجابها إنك لست ترين إلا ظلك.

فهؤلاء الرجال كلهم لا تلتفتي إليهم لأن الرجال دائماً يلومون زوجاتهم وينتقدونهنَّ. وتأكيداً لذلك اسمعي شهادة رجل عن زوجته إذ قيل له أن زوجتك

على جانب عظيم من الرقة واللطف ويحق لك أن تفتخر بها، فأجاب نعم هي لطيفة ورقيقة ورشيقة مع الجميع إلا مع زوجها. ومحل إعجاب الجميع إلا أعز الناس إليها. فلا تبالي أيتها العزيزة بكل هذه الأمثلة الغليظة. واعلمي أن اللوم كله على الأزواج لأنهم يهتمون بسرورهم وراحتهم فقط. فاتركيهم واهتمي براحتك وسرورك أنت. وأول وسيلة لراحتك أن تزيدي عدد الخدم وتترفعي عن كل أشغال البيت، بل اصرفي أوقاتك كلها خارجه لأن القعود في البيت يضر بصحتك ويضجرك، فاقصدي الجمعيات والزيارات حيث السيدات تنتظرك لتزيدي جمعيتهن زينةً. ومن أول واجباتك في الجمعية أن تكوني رئيستها، فإذا كان موضوع الحديث عن الحب والزواج فكوني أنت أول خائضة في الموضوع إذ ذهب طور الخجل والحياء. وهكذا اظهري براعتك في كل المواضيع واظهري مقدرتك حتى لا يقال عنك امرأة بسيطة. ومتى جاء دور اللعب إياك أن تقولي لا أعرف فإنك تصبحين موضة قديمة لا تلذ عشرتك. وإذا ظهر من إحدى الجالسات غلطة فلماذا تتظاهرين أنك لم تلاحظيها فإن هذا ذوق بارد بل اضحكي عليها واجعليها تحمر خجلاً من غلطتها. وإذا نظرت شيئاً أو سمعت كلمة ليست حسب ذوقك فكيلي الكيل كيلين ولو تحت المعنى، لأن هذه صفات المرأة المتكلمة القادرة والتي تسكت كسراً للشر أو تأدباً أو ترفعاً هي عاجزة قاصرة. ومتى كنت في جمعية فلا تطلبي الذهاب قبل أن ينصرف الجمع لئلا يقال أنك مضطرة للرجوع للبيت حالاً إذ ليس عندك طباخة وخدم والأولاد وحدهم في البيت. وإذا رجعت إلى البيت مستأخرة ووجدت زوجك قد أتى واعترض على سلوكك بشيء فلا تسكتي له بل كميه وقولي له: أنت طوال النهار خارج البيت فلا تشعر بضجر ولا ملل. وإذا لم يقتنع فأوقفيه على حدوده وهدديه أن الزمن زمن حرية ولا سلطة ولا حق له بالتداخل في أمرك. وإذا تشكى لكثرة ما يطلب سلوكك هذا من المصاريف حينئذٍ ارفعي صوتك وذكريه بدوطتك التي أخذها وصرفها، فإذا صرفت فإنك تصرفين من مالك. واخبريه أنك لم تتزوجي لتنزوي بإحدى زوايا بيته المظلم وما فارقت بيت أهلك لتأتي بيته وتصرفي حياتك بين صراخ الأولاد ومشاكل الخدامين. نعم أيتها السيدة إن سيدة جميلة مثلك لا يجب أن تصرف

حياتها هكذا إذ لا شك أن صدرك اللطيف يضيق عن سماع ذلك وإن يكن ضيقاً بطبيعته من تضييق الكورسة، وجسمك النحيف يتأثر جداً من ضوضاء وغوغاء البيت وأعصابك تهيجت كثيراً من طول السهر وتعب الزيارات فلا تزيديها تهيجاً بالانهماكات البيتية. فإنك لم تتزوجي من أجل هذا بل للضحك واللعب واللهو. وإذا كان ممكناً فاذهبي تغييراً للهواء واتركي الأولاد على الخدم فأنهم متعودون عليهم. اذهبي لأجل صحتك. انبسطي وافرحي في شبابك إذ لا يدوم سوى زمن السرور ولا يربح الإنسان شيئاً سواه.

ومما يجب أن تنتبهي إليه جيداً حفظ كرامتك عند كل من هو دونك. فإذا أظهر لك أحد شيئاً من الخشونة أو أحد الخدم شيئاً من البلاهة فاصرخي واخبطي وقولي: اعرف مع من أنت تتكلم. اعلم أني أنا بنت فلان أو مدام فلان، فيسقط حالاً تحت يديك خوفاً من الاسم الذي ذكر. والأمر الذي يجب الانتباه إليه بالأكثر هو نوع زينتك، فإياك أن تظهري بمظهر بسيط ينسب إليك الفقر أو عدم التمدن. بل اجعلي لنفسك الاسم الأول ولزينتك الأهمية الأولى بين أترابك. وإذا أردت محلاً تشهرين به زينتك فهو الكنيسة يا عزيزتي، فإياك والذهاب بثياب بسيطة للصلاة فإن الصلاة لا تقبل إلا بثياب على آخر موضة. وهناك مجتمع العموم. فاذهبي بأفخر وأثمن الثياب ويجب أن تكون ذات ألوان ممتازة جذابة واكثري من حط الأحمر والأبيض لتذكري أيضاً بالجمال كما تذكرين بالزينة. وهكذا تجذبين أبصار الجميع.

ثم إذا وقف ببابك رجل فقير أو أرملة مسكينة فأمري الخدم أن يطردوه بالحال لأن عينيك لا تطيق رؤية أولئك الثقلاء البلداء العاجزين أو المصابين بالأمراض المختلفة ولذلك لا يقدرون على الشغل. فإن النصف فرنك الذي يأكلون به هم وعائلتهم يوماً أو يومين يضيع فيهم. إذ هؤلاء ما خلقوا ليعيشوا بل ليموتوا. ولكن إذا دخلت إلى مخزن خياطتك أو مخزن شالون أو هانو فافتحي كيسك وابذلي الذهب خمسات وعشرات. وكل ما لاطفتك صاحبة المحل وأظهرت لك التعظيم زيدي في السخاء، ولا تصدقي من يقول لك إنها تضحك

عليك من أجل فلوسك. ومتى أدرت ظهرك وذهبت تحول إكرامها لك استهزاءً بك ودعاءً إلى الله أن يرفق بزوجك، فأنت ماذا يهمك من هذا كله.

هذا ما أردت ذكره لك هذه المرة وإذا كنت قد اختصرت فأرجو منك المعذرة. ولك أن تكملي عني ما ترينه من النقص في هذا الموضوع. ولكن قبل الختام أحب أن تعلم القارئة أمراً لم أذكره لك بعد. وهو أن كلامي لا يوجه لكل السيدات بل للسيدات اللواتي يمددن أرجلهنَّ أكثر من بساطهن. ولكن الكلام بيني وبينك رغبة في تعزيتك، أقول لك إنني لم أذكر هذا الشرط الأخير إلا فراراً من الملام.

أيلول 1904

ختام السنة الأولى لمجلة «السيدات»
(ودخولها في السنة الثانية)

بهذا الجزء انتهت سنة المجلة الأولى وستدخل في جزئها القادم في السنة الثانية. فحق علينا الشكر لحضرات المشتركات الكريمات والمشتركين الكرام والوكيلات والوكلاء الأفاضل الذين ساعدوا المجلة في سنتها الأولى مساعدة كانت منتظرة من فضلهم ومكارم أخلاقهم. وكذلك تهدي المجلة خالص شكرها وامتنانها إلى رصيفاتها من الجرائد والمجلات اللواتي أخذن بناصرها منذ صدورها وأظهرن أهمية هذا المشروع للعائلة الشرقية إجمالاً.

وظيفة المجلة: وقد قلنا «أهمية المجلة للعائلة الشرقية»، ونحن نعلم أنها لم تفتح (بور آرثر) ولكنا نعتقد أنها سدَّت فراغاً في الصحافة العربية لجمهور القارئات والمطالعات. فهي تذكر السيدات المتعلمات في المدارس بالمبادىء والأصول التي تلقّنها فيها وتنقل هذه المبادىء والأصول إلى غير المتعلمات، فتكون عبارة عن مدرسة صغيرة لطيفة فيها مرارة التعلم مجبولة بالفكاهة واللذة. وهي تنقل المعلومات المختلفة بين صحية وأدبية وعائلية ومنزلية فتجد فيها القارئات اللواتي لم يتعودن غير مطالعة القصص والروايات المضرة من الفوائد الكثيرة في أصول تربية الأطفال وتدبير المنزل وحسن سياسة الزوج والأولاد وحفظ صحة العائلة ما يعزّ الوقوف عليه في غير الكتب الإفرنجية المخصوصة به. وهي تعرّف الرجال بأخلاق النساء وعلى الخصوص النساء بأخلاق الرجال، وفي ذلك ما فيه من الفائدة للسيدات على الخصوص. وفيها يجد المطالعات غير ما تقدم الفكاهات المسلية والمبادىء المعزية والقصص الأدبية النزيهة التي لا تستحي العذراء من

قراءتها أمام الناس مما يقوي نفس الزوجة والإبنة ويزيد معدن اللطف ومكارم الأخلاق فيهما ويحبب إليهما العمل والشغل البيتي ويعينهما في حياتهما اليومية. هذا ما ترمي إليه هذه المجلة. ولذلك نرى كل زوج عاقل تهمه أخلاق زوجته وكل أم عاقلة تهمها زينة نفوس بناتها كما يهمها زينة أجسادهن يبعثان من تلقاء نفسيهما ويشتركان في المجلة لهنَّ مفضلين هذه الهدية على قطعة من الحلي. وهنَّ يحفظنها جزءاً جزءاً ليجلدنها في آخر العام تجليداً جميلاً يدل على سلامة ذوقهنَّ، ويضعنها مجلدة في غرفة النوم أو قاعة الاستقبال كأثر نفيس يراجعنه حيناً بعد حين، ويدلُّ الزائرين على اهتمام سيدات ذلك البيت بجمال النفس مع جمال الجسد. أي أنَّ جمالهن كامل لا ينقصه أحسن قسميه.

زيادة تحسين المجلة: والمجلة تعد قارئاتها اللطيفات وقراءها الكرام أن همتها في خدمتهم تزداد سنة عن سنة لما صادفته من عنايتهم وإقبالهم عليها. وستظهر لهم آثار هذه الهمة في السنة المقبلة حيث سندخل عدة تحسينات جديدة على المجلة، خصوصاً في مواضيعها وفوائدها وأبوابها، وإن يكن لم تبق زيادة لمستزيد بما يبذل فيها من العناية والاهتمام.

شكر خصوصي: وقبل ختام هذا الشكر لا ترى المجلة بداً مع شكر جميع المشتركات والمشتركين الكرام من تخصيص فريق منهم أظهروا لها من اللطف والمساعدة الخصوصية ما جعل كل شكر قاصراً في جنب مكارم أخلاقهم. ونريد بهؤلاء الفاضلات والأفاضل المشتركات والمشتركين الذين يعرفون مصاعب مثل هذه الأعمال في بلادنا وحداثة عهدها حداثة تجعل هذه المصاعب مزدوجة، ولذلك أقبلوا ينشطونها من تلقاء أنفسهم وذلك بإرسال قيمة اشتراكهم دون طلب أو عند أول طلب فضلاً عن توسيع نطاق المجلة بنشرها بين صديقاتهم وأصدقائهم. ومما يسر ذكره أن هؤلاء الكرام كانوا كثيرين في هذا العام، وسيكونون في العام القادم أكثر بإذن الله لنرقي (مجلة السيدات) ترقية لا تحسد بعدها واحدة من مجلات الرجال.

بيان خصوصي: وهذا القول يجرنا قليلاً إلى انتشار (مجلة السيدات) مع حداثة عهدها. وهذا الأمر وإن كان من خصوصيات المجلة إلا إننا نقدر أن نتكلم فيه

قليلاً بيننا وبين القرّاء بصورة سرية، فنقول إنه يُطبع من مجلة السيدات ألف وخمسمائة نسخة يذهب منها من الإدارة نحو ألف ومائة ويبقى الباقي منها مستودعاً فيها للمستقبل إذ من الصعب إعادة طبع المجلات. وفي ظننا أن بعضهم يجد هذا العدد كثيراً جداً بالقياس إلى أن المجلة نسائية وخصوصاً لأنها في السنة الأولى. وبعضهم يجده قليلاً. أما نحن فراضون به كابتداء وتمهيد للمستقبل. ولما بدأنا بالمجلة لم نقدّر لها في سنتها الأولى أقل من هذا التقدير لمعرفتنا أن الرجال سيقبلون عليها إقبال السيدات إذ من المشهور أنه لا يلذهم شيء كتتبع المسائل النسائية والكلام عنها. ولا شك عندنا أننا في العام القادم سنضاعف هذا العدد بإذن الله وبعناية الوكيلات والوكلاء والقرّاء والقارئات. إلا أننا مع هذا نقول من قبيل إتمام هذا الخبر إن المحصَّل من الاشتراكات يبلغ نصف عدد الاشتراكات كلها. فلو أن النصف الباقي حذا حذو النصف المحصل وسددت المجلة حساباتها في أثناء السنة لأمكنها في مدة قصيرة أن تدخل تحسينات عظيمة على المجلة. ولا نجهل أن هذا الأمر غير خاص بمجلتنا بل هو عام على جميع الجرائد والمجلات. حتى إن بعضها يتأخر لها عدة سنوات. ولكن نؤمل من قرّائنا وقارئاتنا الكرام أنهم سيذكرون في أعوام المجلة القادمة ما أردنا الإشارة إليه في هذه الشذرة. وذوقهم اللطيف تكفيه الإشارة.

إن الأعمال العمومية التي تعتمد على عواطف الجمهور كهذه الأعمال يكون للمشترك فيها فضل. ولكن المشترك الذي يدفع ما عليه لها بدون طلب أو عند أول طلب منها يكون له فضلان إذ لا يكون أتعبها بشيء.

متأخرات مراسلات السنة: هذا وقد ترد أحياناً على المجلة رسائل عديدة تضيق دونها صفحاتها لكثرة المواد وتعدد الأبواب. مع أن في هذه الرسائل مقالات لطيفة مفيدة جديرة بالنشر. فنعتذر لحضرات المراسلات الأديبات عن تأخير نشرها ونعدهنَّ بأن تفسح لهنَّ المجلة في سنتها التالية صفحات خصوصية لنشر أفكارهن فيها.

ومن المتأخرات عندنا رسالة لحضرة الفاضلة المدموازل أدال بندلي في الثغر عنوانها «البنات المعجبات بجمالهنَّ» وهي في غاية الرقة.

وأخرى لحضرة الفاضلة المدموازل سمنه بسطه في سوهاج موضوعها انتقاد بعض العوائد المصرية من جملتها وضع الأب ابنته في المدرسة ثم منعها من العمل بالعادات والأخلاق التي تعلمتها فيها، وهو انتقاد دقيق جدير بكل انتباه.

ومنها مقالة لحضرة الفاضلة المدموازل رضا نخلة سعاده في طرابلس الشام وعنوانها «فصل الربيع» وفيها تأملات حلوة في جمال الطبيعة والأشياء التي تحيط بالإنسان.

ومنها مقالة لحضرة الفاضلة المدموازل نجيبة شبطيني من طرابلس الشام وعنوانها «ربة الدوطة أم ربة الجمال والكمال»، وفيها بحث كله فوائد عن أيهما أحقُّ بالفضل والامتياز.

ومنها رسالة عنوانها «الدجاجة المدفونة في بقعة مباركة» لحضرة الفاضلة المدموازل زينب هانم كريمة جناب محمد أفندي يسري في أسيوط وهي رقيقة لطيفة.

فالمجلة تشكر لحضرات المراسلات الفاضلات مشاركتهنَّ لها في خدمتها. وهي تقبل كل الرسائل والمقالات التي ترسل إليها على سبيل المشاركة والبحث في المواضيع التي تنشرها المجلة. وستفتح في العام القادم باباً خصوصياً لذلك.

تشرين الأول 1904

حديث الصالونات

(الصالون هي القاعة التي يجتمع فيها لاستقبال الزائرين والحديث، وقد ترجمها بعضهم «البهو والردهة». ولكنا آثرنا إبقاء اسمها الإفرنجي لأنه أعم استعمالاً وأشد رنيناً في الأذن. وفي هذا الباب نذكر في كل جزء حديثاً من الأحاديث المهمة التي تقع بين السيدات في مجتمعاتهن العديدة).

من أراد أن يقف على حديث السيدات في (الصالون) فليدخله مشاركاً في الحديث لا منكتاً منتقداً كما فعلت إحدى السيدات التي لا نسميها، وقد قالت تقص زيارتها لإحدى صديقاتها:

ذهبت يوماً لزيارة بعض الصديقات، فحين دخلنا إلى البيت ترددنا عن الدخول لما سمعناه من الضجيج والصراخ لظننا أن السيدات يتخاصمن بعضهن مع بعض. ولكن عندما اقتربنا من قاعة الاستقبال ظهر لنا أن السيدات لم يكن يتخاصمن بل يتحادثن فقط. فدخلنا القاعة، وحين دخولنا انقطع حديثهن فهدأت الضوضاء. إلا أن السيدات لم يصمتن احتراماً لنا لأنه لم يكن لهن معنا سابق معرفة. ولم تهدأ الضوضاءُ لسماع خشخشة فساطيننا الحريرية. ولكن كان ذلك السكون لأجل معرفة من هم هؤلاء الداخلات. فحينما وجدن أنه لا يوجد فينا شيء يلمع ولا ثياب نفيسة ولسنا من سيدات الموضة للعب البوكر، حينئذٍ عادت الضوضاء والجدال. وكانت ربة البيت قد تكرمت ووضعتنا في محلات نقعد بها، ورجعت إلى لعبها وحديثها مع السيدات. فاغتنمنا نحن هذه الفرصة للانتباه إلى حديثهن.

فقالت إحدى السيدات: أصحيح يا جماعة ما سمعناه أن فلاناً سيخطب فلانة، فإذا كان الأمر صحيحاً يكون أعمى القلب فإنه ترك البنات الغنيات ذوات الدوطة الكبيرة وبنات هذا العصر وذهب إلى هذه الفتاة البسيطة. يا ليتني أراه لأقلب دماغه. فقالت الثانية: لا تقولي هذا الكلام، إذ كم من فتاة نسميها بسيطة ولكنها تكون بالعكس. ثم هبي إن الأمر كذلك فلماذا تقطعين نصيبها،

ألا تخافين أن يتكلم أحد عليك كما تتكلمين. قالت: وممَّ أخاف وبناتي عندهن دوطة فلا يهمني شيءٌ لأن الكلام يهم الفقراء لا الأغنياء والزمن زمن فلوس لا ينفع غيرها، فلا جمال ولا علم ولا تهذيب ولا آداب فهم متى وجدت الفلوس. فأجابت رفيقتها وكانت أخذتها الحدة: عفواً أيتها السيدة إنك تشتمين أكثرنا بلطف وصنعة لأنك تعلمين أن بناتنا ليس لهن دوطة. ولما كاد يحمي الجدال بين السيدتين دخلت سيدة جديدة، فلم يقع نظرهن عليها حتى قهقه لها الجميع وصرخن أهلاً وسهلاً بأم الأخبار. بالصحيح إننا لا نسوى بدونك شيئاً. فجلست في وسطهن وأحطن بها إحاطة السيارات بالشمس يتنسمن منها الأخبار. فقالت واحدة: هاتِ ما عندك من الأخبار. قالت: اسكتوا الأخبار كثيرة، ولكن قبل الكلام أخبروني من هذا الوجه الجديد. قالت ذلك وأشارت إلينا بصوت ضعيف. فقرب الجميع منها وقد تركوا اللعب والورق وصاروا يهمسون في أذانها وتهمس في أذانهم وعند كل عبارة يقهقه بعضهن قهقهة شديدة. فشعرت أنا ورفيقاتي بوحشة لهذا الصنيع الذي ليس فيه شيءٌ من سلامة الذوق، وتشاغلت بحديث مع جارة كانت بجانبي.

وفي هذه الأثناء نهضت إحدى الزائرات بتأدَّب وودعت وخرجت، فقالت أم الأخبار: أهذه فلانة التي سيخطبها فلان؟ فأجبن: نعم. قالت: ما أثقل دمها، لماذا كل هذه الكبرياء على الفارغ فإنها قعدت طول المدة ولم تكلمنا كلمة. فإنني قد سمعت قبلاً بكبريائها ولكن اليوم تأكدتها. فاغتنمتُ حينئذٍ هذه الفرصة وأجبتها: اسمحي أن أقول لك أيتها المدام إنك لست مصيبة في حكمك فإن هذه المدموازل على جانب عظيم من اللطف والرقة وكرم الأخلاق وكل من يعرفها جيداً يقول عنها قولي هذا. ولكنها تتحاشى الكلام الفارغ وتكره بالأكثر الكلام في الناس وهي تمقت الزيارات لأنها لا تجد فيها غير الكلام على زيد والتنكيت في عبيد وخبر خطبة فلانة وزواج فلان وأحاديث الموضة والرقص والتياترو وما أشبه ذلك. ولهذا السبب تجتنب الجمعيات كي لا تبذر وقتها وتمتنع عن مخالطة الناس خوفاً من ألسنتهم، فلذلك يقولون عنها قولك هذا والناس أعداء لمن يجهلون. ولكن ماذا تظنين، هل خلصت هذه المدموازل من الألسنة!

كلا لأنني أظن أن لا أحد يخلص من لساننا نحن النساء. فإذا تكلمت الفتاة كثيراً قلنا عنها خفيفة الرأس كثيرة الكلام. وإذا صمتت نسبنا إليها الكبرياء. إذا زارت صديقاتها وجيرانها سميناها (نطاطة دواره). وإذا قعدت في البيت قلنا إنها بوجه وحدها لا تحب الناس. إذا لبست ثياباً جميلة ذممنا تبذيرها وتشكينا من كثرة مصاريفها، وإذا لم تلبس ولم تصرف نسبنا إليها البخل. وهكذا لا بد من الكلام في كل الأحوال. إذاً فمن أراد معرفة حقيقة فتاة فلا يسأل عنها أحداً منا نحن النساء لأننا لا نحكم إلا بحسب عواطفنا ولا نمدح إلا من ينزل إلى أرضنا ويمشي في طريقنا. ولكن من يخالفنا ننسب إليه الكبرياء والمذمة.

قالت المحدثة: فلما قلت هذا الكلام وقعت الماء السخنة على رؤوس السيدات اللواتي كن يضحكن، فسكتن وتركن الضحك وأخذن يرفعن رؤوسهنَّ ويحركن شفاههن دلالة الاستياء. فما قولك هل أخطأتُ أم أصبتُ في تأديبهنَّ هذا التأديب جزاءَ خفة رؤوسهن وطياشتهنّ واستخفافهنَّ بالزائرات الجالسات معهنَّ.

أما أنا فلما قصت عليَّ الصديقة هذه القصة ضحكت منها وسألتها قبل أن أجيبها: ماذا قالت ربة البيت وهل لم يغظها تكديرك زائريها. فأجابت: الكلام في سرك إن شبيه الشيء منجذب إليه. فأجبتها حينئذٍ بما يلي:

اسمعي يا مدام إنك لا تربحين شيئاً بوقوفك في وجه التيار بل تخسرين لأنه يجرفك جرفاً. ونصائحك التي تقولينها في ظروف كتلك الظروف تنقلب عليك بدل أن يستفيد منها سامعاتك فإنهن بدل أن يقلن (والله أصابت) يقلن (لله ما أثقلها). فلماذا تشترين عداوات الناس بلا شيء. نعم إن اللواتي يسئن الأدب مع بعض الزائرات والضيوف اللواتي يتقابلن معهن في الزيارات يستأهلن فوق ما ذكرتِ من التقريع. ولكن هناك طريقة أحسن لصرف المشاكل في أمثال هذا الأمر. وهو أن تبالغي في إكرام أولئك السيدات وتلاطفيهن وتجامليهن فتكسبيهن ويصرن معك بعد أن يكنَّ عليك. أما نصحك فاحفظيه لمن تطلبه منك. وهي أحسن طريقة للاستراحة مع الناس.

فأطرقت محدثتي عند سماعها هذا الكلام وبقيت تفتكر ثم قالت: لا لا إن هذه الطريقة تصلح مع الناس الطيبين الذين يفهمون، ولكن بعض الناس لا ينجع فيهم غير مقابلة المثل بالمثل والكيل كيلين. فأنا لا أغير طريقتي لأنها تؤدب الثرثارات والمتطاولات وإلا لصارت المجالس والجمعيات ميداناً وملكاً لكل ذات لسان طويل وعقل قصير.

فسكتُ عند هذا الكلام وقلتُ في نفسي إن هذه الصديقة ستصرف حياتها في الأخذ والرد والقال والقيل عبثاً، فما ضرَّها أن تترك الناس يقولون ما يشاؤون ولا تجعل لهم ولأقوالهم هذه الأهمية.

تشرين الثاني 1904

حديث الصالونات
رسالة من الرمل

قالت صاحبة الرسالة:

«بينما كنت واقفة مع صديقة لي في محطة إذ نظرنا بعض الصديقات اللواتي كنّ في التصييف بعضهن في سوريا والبعض في أوروبا، فجئنا نسلم عليهن ونهنئهن بسلامة الرجوع. فسألنا عن أحوال الجمعيات والسهرات فقالت صديقتي: كنا ملتهيات بتنزه الصيف عن الزيارات والجمعيات، ولكن الآن بدأنا بزياراتنا وسهراتنا الشتوية. اليوم كنا في بيت مدام فلان في البلد واتفقنا أن تكون الجمعية غداً في بيت فلانة في الرمل لأنه يوم قبولها، فلاقينا هناك غداً الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر. فأجبن: (طيب أورفوار عليكم) وذهبن. فسألت أنا صديقتي: كلمة طيب فهمناها وكلمة أورفوار ألفناها أما كلمة عليكم فما محلها من الإعراب هنا. فضحكت رفيقتي واتفقنا على هذه الزيارة. وذهبنا في الغد.

وكانت الجمعية بغاية الأهمية لأن هذه أول مرة إجتمعنا بعد تشتيت الصيف. ولكن الشيء المغيظ الذي كان هو وجود أولاد الزائرات معنا لأن كثرة حركاتهم وضوضاءهم كانت تقلق الجميع حتى أمهاتهم.

ثم سألت واحدة من اللواتي كن في الإصطياف: أخبرونا قبل أن نبدأ باللعب كل ما جرى مدة غيابنا. فأجابتها إحداهن على سبيل المزاح: هذه عادتك أنت فأنك كثيرة السؤالات وقد أوحشتنا سؤالاتك في غيابك. فدخلك أخبريني ماذا تستفيدين من كثرة السؤالات واستنكاش الأخبار فهل أنت المفتش العمومي فماذا

يهمك. قالت: لا يهمني إلا أن أعرف أخسرت فلانة بغيابي أم ربحت. فأجابتها: مسكينة فلانة فإنها تركت اللعب والجمعيات بسبب تفليس زوجها بالبورصة. فأرتعد جسمها لهذا الخبر وصرخت: يا رب إحمينا... قالت الأخرى: أما رفيقتها الثانية فربحت ربحاً مهماً في هذا الصيف. ثم أتت صاحبة البيت وقالت: أخبرونا ماذا أشتريتم من ثياب الشتاء يا ستات. فصرخ الجميع: دخلك لا تذكرينا، قطعنا رجلينا بالتدوير والتفتيش في الأسواق قبل الظهر وبعده. فقالت مدموازيل (دليكات جداً): أنا حين أنزل السوق أستأجر مركبة بالساعة واذهب من مخزن هانو إلى مخزن شالون إلى البرنطان والعجمي بدون تعب، ومع ذلك فلا أصل إلى فراشي إلا وأنام حالاً من شدة التعب فلا يفتكر الرجال بأنهم يتعبون بشغلهم أكثر مما نتعب نحن. صحيح أننا نأخذ الفلوس بدون تعب ولكن لا تطلع من أيدينا إلا بعد تعب شديد.

فقالت الثانية: الموضة الجديدة الآن هي قلة نزول السوق. لأن كثرة نزول السوق تدل على كثرة التدوير والتفتيش لوجود ما يوافق، ولكن السيدة الغنية لا تحتاج إلى ذلك بل تذهب رأساً إلى خياطة كبيرة وتطلب أن تعمل لها فسطاناً كأجمل فساطين موضة (شيك باريزيان) (Chig Parisian) أو تذهب عند (موض باريز) Mode De Paris وتختار أغلى فسطان هناك. وكلما كثر ثمن الفسطان كان موضة. وهكذا تستريح من تعب التدوير. فسألتها: وكم كلفك فسطانك يا مدام؟ قالت: 15 جنيهاً كله خالص واصل للبيت بعد بخشيش الخادم وأجرة المركبة. فقلت: مبروك هذا لبس أو بلاش. لا شك أنه جميل جداً ولكنه يكون أجمل حين تلبسينه. والبرنيطة؟ قالت: 80 فرنكاً ولكنها جميلة جداً ولابقة للفسطان. ولكن الكلام بسرك لم أدع زوجي يعرف أن ثمن الفسطان أكثر من ثمانية جنيهات لأنه يستاء من ذلك.

وبينما نحن نتكلم دخلت راهبتان فسألتهما صاحبة البيت عن حاجتهما. فعلمنا أنهما يجمعان مالاً لمساعدة المرضى العاجزين، فأخذنا وجمعنا لهما قيمة ريال وأعطيناهما. وبعد أن ذهبتا قالت إحداهن وكانت أغناهن: أف كل يوم ألف طالب على الباب كأن الله أعطانا نصيبهم. فسمعنا حينئذٍ التليفون يضرب، فركضت أخفهن لتجاوب فوجدت أن رفيقاتهن في جمعية في البلد يسألن من الرابحة ومن الخاسرة بينهن، فأخبروهن أن اللعب لم يبدأ بعد. ثم نهضن وأجتمعن حول طاولات اللعب وفتحن كنوزهن وجلسن.

ولما بدأن يلعبن بإيديهن اللطيفة، وعيونهن الجميلة تطارد ورق اللعب وتتابعها قلوبهن من تحت المشدات تخفق خفقاناً شديداً رهبة من الخسارة ورغبة في الربح. يا له من منظر في غاية الجمال. فقد كانت جلستهن رسمية للغاية كأنهن حول أمر عظيم. وكان يخيل لي أن كل نفوسهن وعقولهن الخفيفة اللطيفة تسيل على أوراق اللعب مع نور الشمس المنبعث عليها من النافذة. فلم أتمالك أن قلت: إن كل هذا الجمال والمال والوقت والرقة والمحاسن تنفق على شيء صغير لا فائدة منه. فيا حبذا لو كانت هذه الأيادي البيضاء الجميلة التي تتمنى كل الشفاه أن تعلق عليها تهتم بالأمور والأشغال النافعة للأفراد والجمهور نصف إهتمامها بتلك الأوراق السعيدة. ولكن يظهر أننا لم نصل بعد إلى الطور الذي تفتكر فيه سيداتنا بالأعمال العمومية النافعة فيكون لهن يد ورأي في كل شيء مفيد. وعسى أن يكون ذلك اليوم غير بعيد».

إنتهت الرسالة

كانون الأول 1904

العمل والسيدات

إلى السيدات اللواتي يشعرن دوماً بالضجر والملل والسوداء، فإنه لا دواء كالعمل.

العمل مهذب الأخلاق وحياة الإنسان. وهو شريعة وجودنا وسبب إرتقائنا وعلة سرورنا. وهو حمل وعقاب لنا كما أنه مجد وشرف لنا. وبدونه لا يكمل شيء. وأعظم ما في الإنسان يستخرج بواسطته. فالتمدن ثمرة العمل، ولولاه لسحق النسل البشري بالموت الأدبي.

حين كان الأمبراطور سافرس على فراش الموت أعطى جيوشه كلمة وطلب أن تكون شعاراً للمملكة من بعده وهي «يجب العمل حتى الموت». وهكذا صار، فإن قوى الرومانيين وامتداد سلطتهم كانت بواسطة العمل المستمر.

نعم يجب أن نعمل لأن البطالة تصدئ قلب الإنسان وتأكله كما تأكل قلب الأمة. قال أحدهم إن قلب البشر مثل حجر الطاحون، فأنه إن لم تضع له ما يطحنه فأنه يطحن نفسه. أو كالنار فأنها إن لم تجد ما تأكله أكلت نفسها.

هذا هو مرضنا نحن السيدات. جُعلنا للعمل ولا نعمل، فنحن نخسر أنفسنا. وما المعنى من كلمة نعمل. هل معناها النزول لمصاف الرجال ومزاحمتهم على الأعمال كما يتوهم البعض. كلا، فأنه يمكننا أن نعمل ضمن دائرتنا بدون أن نتعداها مهما كانت طبقتنا ومنزلتنا.

سأل أحد الفلاسفة إبنة صانع بيرة وكان ثرياً: ماذا تعملين أيتها المدموازيل كل نهارك؟ فأجابت: لست محتاجة لأن أعمل سوى إعداد مزج الغلسرين بدقيق الشوفان لدهن يدي قبل النوم لحفظها طرية لينة. فاستغرب جوابها وقال: ألا يمكنك صنع أمر آخر. قالت: لا حاجة لي إلا إلى ذلك. قال: يمكنك أن تدهني يدي أبيك التعبانة أيضاً. فخجلت الإبنة لهذا الكلام.

والعمل خلق ليس للفقراء والمحتاجين فقط بل لكل البشر على إختلاف طبقاتها. للأغنياء والفقراء. للمتعلمين والبسطاء. للجميلين والشنعاء. وهو يجعل الفقير غنياً والبسيط عالماً والقبيح جميلاً. أرني ماذا تقدر أن تعمل وأنا أريك من أنت. إذاً قيمة الإنسان ما يعمله. فلتفتكر السيدات بهذا.

يقولون إن كثيرين يموتون من الإفراط في العمل. ولكن أكثر بكثير هم الذين يموتون من عدم العمل. وحياة العمل مهما قصرت سنوها فهي أطول وأنفع من حياة البطالة مهما طالت مدتها. فحسابنا سيكون ليس كم عشنا بل كم عملنا.

قال أحدهم: إذا كان يوجد شيء في الأرض يستحق الإحترام ويجب أن يحنى أمامه الرأس فهو العمل من أي نوع كان. قيل أن نابليون كان كلما زار معملاً يسلم على صاحبه بإحناء رأسه أمامه إحتراماً. وكان مرة ماراً في الطريق مع مدام بالكوم فاتفق أن أحد الخدم كان آتياً نحوهما وعلى رأسه حمل فأمرته مدام بالكوم بغضب أن يميل من الطريق، فأعترضها نابوليون قائلاً: «إحترمي العمل والحمل الذي على رأسه». فإن أصغر عامل في الهيئة يعمل لنفعها. وهذا يوافق قول أمبراطور الصين الذي قال: إذا وجد في بلادي رجل وإمرأة بدون عمل فلا بد أن يوجد من يتألم جوعاً أو برداً في مملكتي.

إن السيدة التي لا تعمل تكون فريسة للضجر وللأمراض العصبية وعرضة لكل ما يدخل بمعنى كلمة ennui، Melancholy، وقالت إحدى السيدات لإبنتها ساعة إكليلها: إن المرأة بدون عمل مثل البومة في النهار فهي تخبط نفسها حتى تدميها. ولذلك أوصيك يا بنية أن تحترسي من البقاء ساعة واحدة بدون عمل، وإن لم تجدي ما تشتغلي في بيتك فأشتغلي لخدمك. أقول: ولكن كلمة (عمل) ترهبنا وتخيفنا نحن النساء، فترى الرعبة منه مستولية على الجميع. فكم من النساء لمحتاجات للقوت اليومي وباستطاعتهن تحصيله ويمتنعن عن ذلك خوفاً من تنكيت الناس. وكم من سيدة تدفع أجرة الخادمات من دم قلبها في الوقت الذي تكون هي أحق بتلك الأجرة، ولكنها ترفض أن تشتغل حتى في بيتها كي لا يقال عنها إنها تشتغل بيدها كل أشغالها. وهي تفضل الوقوف على البالكون أو في الشباك أو تشتغل بغندرة ثيابها على أن تعمل عملاً من أعمال البيت.

وإذا خاطبها أحد بذلك تقول: أنا لا أستحي من الشغل لكن أمي أو زوجي لا يسمح لي بذلك خوفاً على يدي فقط. ولكن إسمعي قول سيدة أوروبية من أجمل نساء العصر، فهي إذا نظرناها خارج البيت نراها بأجمل وأثمن ثياب ولكن حين تكون في بيتها تلبس أبسط ثوب من الكتان وتضع في وسطها (مريولاً) نظيفاً وبرجلها حذاءً خفيفاً وتشتغل مع خادمة واحدة لها كل أشغال البيت من كنس ومسح وغسل وطبخ الطعام وكيّ الثياب وهي مرددة، وكانت تقول: إني بعملي هذا أحصل على فائدتين رياضتي الجسدية وسرور أفراد عائلتي بواسطتي أنا. إلى أن قالت: لم أشعر بنفسي أني سيدة بمعنى الكلمة الحرفي إلا وأنا أعمل وسط أشغالي البيتية وفي ذلك الوقت يكون إفتخاري أعظم من وقت أكون فيه لابسة أثمن فساطيني. لأني بفسطاني الجميل أرضي صديقاتي وأزين الجمعية التي أنا فيها، ولكن بشغلي في البيت أرضي أعز البشر إليّ وأزين أقدس محل لي على الأرض. وهذه السيدة لم تكن تخجل من أن تراها صديقاتها وهي تشتغل أشغالها، بل إذا إتفق وأتاها زائر وهي تعمل في البيت تركض لا لتخبئ نفسها بل لتستقبل الزائر وتستأذن دقيقة فقط لغسل يديها. فيا لها من سيدة ترفع عمل النساء إلى معظمة.

أتى رجل عامل يزور صديقه فوجد سيدة البيت تشارك الخادمة في مسح الباب وتعليمها كيفية المسح، فأستعذرت منه فأجابها: كلا فإني أحترمك وأنت تعملين أكثر مما لو كنت لا تعملين.

قالت مرة سيدة إلى رفيقتها: يتهموننا نحن النساء بأننا نبذر أوقاتنا بدون فائدة، ولكن الله خلق الرجال للعمل والنساء كالأزهار لتزيين الأرض. فأجابتها: إذا شبهت السيدات بالأزهار فيجب أن يكون التشبيه تاماً، فالأزهار تزين الأرض التي هي فيها ولكن ترسل رائحتها الذكية إلى بعد. وبعد ذهاب الأزهار تبقى رائحتها زمناً طويلاً ولأكثرها فائدة خصوصية. وهكذا السيدات يجب أن تكون لأعمالهنَّ رائحة جيدة، وأحسن شبه لهن زهرة البنفسج الجميلة ذات الرائحة الذكية ولكنها تعمل بدون أن تُرى لأنها تستتر بين الأعشاب.

كانون الثاني 1905

أسئلة صحية وأدبية

تقليد المرأة عمل الرجل

سؤال: هل يوافق الهيئة الإجتماعية والعمران أن تشتغل المرأة أشغال الرجل كما تفعل أكثر النساء الغربيات؟

الجواب: سُئلنا هذا السؤال في العدد الأسبق فطرحناه لبحث الكاتبات والكتاب فلم يُجب أحد عليه، فرأينا أن نجيب عليه بإيجاز الآن ونبقي باب البحث مفتوحاً إذا شاء أحد أهل النظر إبداء الرأي فيه.

المسألة عمرانية محضة. والجواب عليها بهذا الإيجاز لا يروي غلة ولا يكون باتاً على أننا نقول إجمالياً. إن نمط العمران في الأعصر الغابرة كان أكثر مطابقة للنظام الإجتماعي الطبيعي. هذا النظام الإجتماعي الطبيعي القاضي بأن يكون الذكور والأناث أزواجاً يقضي بأن يتقاسم الزوجان العمل. فالمرأة تعمل في البيت والرجل يعمل خارجه. وقد قضي بهذا التقاسم لأنه طبيعي، فإن الحمل والرضاع وتربية الصغار تضطر المرأة أن تلازم البيت، وبالتالي أوجبت عليها أن تقتصر على كل عمل يعمل في البيت. ويغلب أن يكون هذا العمل مما يخص البيت نفسه. وأما الرجل فلأنه لا يوجد ما يقيده في المنزل، إقتضى أن يعمل الأعمال التي لا بد من عملها خارج المنزل بحيث لا تصل يد المرأة إليها. هكذا قضت الطبيعة والإجتماع في الأعصر السابقة. وكانت نتيجة هذا القضاء أن الرجل إختص بالأعمال الكسبية أي أن يجمع الثروة، والمرأة إختصت بتدبير المنزل أي أن تنفق الثروة بالحنكة.

والظاهر أن النظام الإجتماعي آخذ بالتغيُّر. وقد بعد حاله الحاضر عن حاله السابق بعداً ظاهراً. فقلّ الزواج وضعف التضامن العائلي حتى كاد كل فرد يصبح مسؤولاً عن نفسه. ولذلك اضطرت معظم النساء ولا سيما الفتيات أن يشتغلن

لكي يقمن بمعيشتهن ولا يعشن عيشة شظفة بهوان وهنّ عالة على ذوي قرباهنّ.

وإذا كان الأمر كذلك ينشأ سؤالان:

السؤال الأول: ما الذي دعا إلى هذا التغيير في النظام الإجتماعي؟

ـ له دواع كثيرة من جملتها إطلاق الحرية للمرأة في الغرب إلى ما وراء الحد الطبيعي المعين لها، فسلكت في أسلوب معيشتها الإجتماعية مسلك الرجل تماماً وطاوعت أميالها وأتبعت هواها فجاء سلوكها معه مغنياً لهما عن الزواج. ومتى استغني عن الزواج الشرعي واستقل كل بنفسه، بطل التضامن وصار كل مكلفاً بأن يعول نفسه. ولذلك اضطرت المرأة أن تخرج من مملكتها في البيت وتتجاوز دائرة تدبير المنزل وتدرج في دائرة الأعمال الكسبية.

السؤال الثاني: هل يُحمد هذا التغير الذي درج عليه العمران فأفضى إلى هذه النتيجة؟

ـ لا نظن لأنه خرج عن دائرة النظام الإجتماعي الطبيعي، وحسبك قلة الزواج في أوروبا برهاناً على مخالفة قانون الطبيعة.

هذا بحث إجمالي وأساسي في الموضوع، بقي هناك مباحث أخرى من حيث وجوهه المختلفة شخصية وعائلية وأدبية سنغتنم أقرب الفرص للنظر فيها، لأن الموضوع إجتماعي عملي وقد أصبح ماساً لهيئتنا الإجتماعية الشرقية. فلا ندحة من الكلام المشبع فيه لعله يبث نوراً للسالكين في طريق التمدن الحديث عساهم لا يزوغون عن محجة الصواب.

أيلول 1906

في مجالس السيدات
أو حديث الصالونات

لبيت دعوة إحدى صديقاتي القديمات بغية أن تعرفني بزائرة أوروبية جاءت حديثاً من أوروبا. فوجدت عندها عدداً من السيدات أعرفهن جميعاً. ولما مللنا إنتظار السيدة الأوروبية قلت لصاحبة الدعوة: صاحبتك تأخرت كثيراً عن الميعاد.

فأجابتني: وهل من وقت محدود للزيارات. أية ساعة تأتي كانت الميعاد.

فقلت: ولكن هذه أوروبية تحافظ على المواعيد.

فقالت إحدى الزائرات: نعم إنها أوروبية في بلدها. ولكن متى أتت إلى بلادنا جاز لها كل شيء تبعاً للمثل السائر «مع السوق سوق».

فأجابت أخرى: ما هذه الشتيمة يا مدام. كأنك تقولين إننا نحن في الشرق لا نحافظ على كلمتنا وعلى ميعادنا.

فقلت: نعم يا مدام هذا هو الواقع فلماذا ننكره أو نحاول أن نخفيه. ندعى إلى حفلة زواج تحددت لها الساعة التاسعة موعداً مثلاً، فتمر الساعة العاشرة والحفلة لا تبتدئ. يعلنون أن التمثيل يبتدئ في الملعب الساعة 9 فتزهق روحنا إنتظاراً حتى بعد الساعة العاشرة.

يعد الطبيب أن يأتي بعد ساعة فلا يأتي حتى بعد ساعات، فإما أن يكون العليل قد تحسن أو قد مات. فكفانا تمويهاً على نقائصنا وحسبنا نوماً وغفلة والغرب ينتفع من غفلتنا.

فقالت مدام: صدقت في ذلك. ولكن بالله ما لهذه السيدة الأوروبية المنتظرة من المزايا حتى تستحق هذه الحفاوة.

فقالت صاحبة الدعوة: إنها جميلة ولسنة وتروي أخباراً جديدة غريبة عن سيدات أوروبا.

فقلت: بالطبع تغيرت الأشياء في أوروبا كثيراً بعد الحرب، فماذا روت يا ترى.

ـ تقول إن السيدات أصبحن يجارين الرجال في كل شيء لأنهنّ لمّا حصلن على حقوق الإنتخاب صار لهن سبيل للشغل في السياسة وصار عليهن أن يشتغلن لتحصيل عيشهن. لأن التي أخذت حق الإنتخاب يجب عليها ألا تكون عالة على غيرها.

فقالت مدام ل: ويقولون إن المرأة الأوروبية نالت حق الإنتخاب لأنها كانت عاملاً قوياً في الحرب. وقد اعترفوا لها بتأثير أعمالها العظيمة في الحرب.

فقالت سيدة أخرى ثورية المزاج: أوه. إذا كانت مسألة إستحقاق الإنتخاب متوقفة على مسألة التأثير في الحرب فنحن الشرقيات أحق وأولى بالإنتخاب، لأنه إذا كانت الغربيات يعملن في الحروب ويؤثرن فيها فنحن في وسعنا أن نثيرها.

فقلت: الله منك يا مدام. كأنك تقولين إنا أبالسة نوقد النيران في حين أن نساء أميركا يطفينها. أما سمعت الخبر.

ـ ماذا؟

ـ سينعقد في أميركا في هذا الشهر مؤتمر لتقرير نزع السلاح. والنساء الأميركيات سبقن هذا المؤتمر بعقد إجتماعاتهنّ للتأثير على رجال المؤتمر حتى يبطلوا التسليح بتاتاً. فما قولك بهذا.

قالت: هل تريدين أن نحذو حذوهن.

فقلت: إن النساء الغربيات هنّ اللواتي قلدن رجالهن السلاح وهنّ الآن يبتغين نزعه. أما نحن فلم نقلد رجالنا سلاحاً حتى ننزعه منهم.

فقالت: أي سلاح تعنين؟

أجبت: أعني السلاح الذي نالت به أوروبا وأميركا ما نالتا من حرية وتمدن، السلاح الذي يكسر قيود العبودية، السلاح الذي يدك حصون الإستبداد، السلاح الذي لا تنال بلاد ضالتها المنشودة إلا به، سلاح ماض فتاك...

فقاطعتني إحداهن وقالت: صه صه. ما هذا السلاح. وما هذه الأفكار الثورية؟

هل نحن في ساحة حرب أو في برلمان. نحن في صالون زيارات.

فقلت: نعم. والإنتصار في الحروب يتوقف على الصالون الذي يضم أمهات رجال المستقبل.

فاعترضت مدام قائلة: إنكن تشردن عن الموضوع، فإن حديثنا كان على أن السيدات الأوروبيات جعلن يقلدن الرجال في بساطة اللبس.

فقلت: بالطبع لم يعد في وسع المرأة أن تقف أمام مرآتها ساعات طويلة لئلا يقفل البارلمانت قبل وصولها إليه.

فقالت ربة البيت: أتعنين أنهن يلبسن بنطلوناً وجاكتة كالرجل.

فأجابت مدام ك: نعم يلبسن جونلا قصيرة بسيطة وجاكت فوقها تشبه جاكت الرجل وحذاء واطئ العقب وبرنيطة كبرنيطة الرجل ويحملن عصا ويدخنّ في الشوارع ويقصصن شعور رؤوسهن. فما رأيكن بهذا؟ أنحذو حذوهن أيضاً؟

فأجابت إحداهن: والله إنهن لمصيبات. إذا كان رجال أوروبا صاروا يحلقون شواربهم فضلاً عن لحاهم فلا بدع أن تقص نساؤهم شعورهن.

فقالت أخرى: وكثير من فتياننا اليوم صاروا يحلقون شواربهم إقتداء بالأوروبيين، فماذا يمنعنا نحن من أن نحذو حذوهم بالإقتداء بالأوروبيات.

فقلت: أتأسف أن حياتنا كلها إقتداء في إقتداء، ولو كانت إقتداء بالحسن الصالح فقط لما كان ثمة بأس. ولكننا نتطرف بالإقتداء والتقليد. فما اكتفى فتياننا بأن يحلقوا شواربهم بل جعلوا حلقها من قبيل التخنث وصاروا يتمادون فيه فاحتذوا الأحذية العالية العقب وقصروا بنطلوناتهم جداً لكي تظهر جواربهم الحمراء والخضراء. فإذا كنا نود تقليد الغربيات فلنقتبس عنهن المحمود من عاداتهن وأزيائهن. قرأت عن محررة أميركية قامت تدعو السيدات للتشبه بالرجل في بساطة «الموضة»، وجعلت نفسها قدوة لهن فخاطت 3 فساتين مختلفة الأقمشة للبيت وللسهرات وللزيارات ولكنها كلها في زي واحد بسيط جداً.

فقالت ربة المنزل: والله إنها لقديرة، لماذا لا نؤلف نحن جمعية لبث هذه الدعوة.

فقالت سيدة أخرى: إنها لفكرة جميلة، ويمكن أن هذه الجمعية تفرج أزمة الزواج لأن الفتيان أصبحوا يتخوفون من الزواج بسبب بذخ النساء.

وفي دقيقة إتفقن جميعاً على تأليف الجمعية، وأصبحن يخترن الرئيسة وكاتبة السر وأمينة الصندوق. وفي إبان لغطهن دخلت مدام ي. تصحبها سيدة آية في الأبهة والجمال وزخرف الثوب وتبرج نادر النظير. فجعلنا نتغامز ونحن نغالط أنفسنا بأنها ليست السيدة الإفرنجية المنتظرة، إلى أن فهمنا صريحاً من حديث مدام ي. أنها هي. ولكن أين بساطة الملبس التي كانت موضوع حديثنا السابق؟

وكانت مدام ن إلى جنب هذه الضيفة الجديدة. وكان مع الضيفة كتاب جميل أنيق. فوقع من يدها فانحنت مدام ن وتناولته وقالت: كتابك جميل يا مدام.

فإبتسمت الضيفة وقالت: إفتحيه يا مدام وتفرجي عليه. إن كل ما فيه آية الجمال الحديث.

ففتحت مدام ن الكتاب، فإذا هو كاتالوج جديد لأعظم محل ملابس للسيدات في أوروبا وقد أتقنت فيه صور الأزياء الحديثة إتقاناً لم يسبق له نظير.

فجعلت مدام ن تقلب صفحات الكتاب وهي تقول: الله ما أجمل هذه الموضة! أنظري يا مدام ك، أنظري يا مدام ه.

وتكأكأت السيدات حول الكتاب وهن يشاهدن جمال الأزياء ويبتهجن. وبعد برهة قلت للضيفة: يقولون إن السيدات الأوروبيات أصبحن يقلدن الرجال في اللبس. فلماذا هذا الكاتالوج!

فتبسمت ملء شفتيها وقالت: نعم إن السيدات الأوروبيات يقلدن الرجال. وأما هذا الكاتالوج فقد أعدّ خصيصاً لخدمة السيدات الشرقيات.

فقلت باسمة: يظهر أن مخازن أوروبا لم تجد بعد هذا التغيير الذي حدث في الغرب بعد الحرب سوقاً غير الشرق لتصفي فيه بقايا بضائعها من الموضة. وأظن حضرتك...

ـ ما أنا إلا مندوبة من قبل محل تجاري عظيم، وما ألبسه هو نموذج من نماذج المحل.

وكانت سائر السيدات عاكفات على الكتاب يتفرجن ويعجبن وينتقين من الأزياء ما يستحسنّ.

فقلت: إذا كنتن لم تتفقن على رئيسة «لجمعية مقاومة الموضة» فلا أظنكن تجدن رئيسة أفضل من هذه السيدة الإفرنجية، فأظفرن بها. إلى الملتقى.

تشرين الثاني 1921

في مجالس السيدات
التربية الاستقلالية:
حديث مع محررة أميركية

قرع جرس التلفون وأنا أتناول طعام الصباح، فأخذت السماعة وسألت: «من المتكلم؟» فسمعت صوتاً ناعماً لطيفاً يقول: «احزري من هي التي تكلمك». وبعد الأخذ والرد علمت أنها صديقة لي أميركية قدمت أمس من نيويورك وهي محررة مجلة نسائية هناك. وافت إلى الشرق لتكاتب مجلتها عما تراه في سياحتها. فدعوتها لتناول الشاي عندي. وما دنت الساعة الرابعة بعد الظهر إلا سمعت دوي أوتوموبيلها لدى الباب. وكنت قد دعوت عدة من صديقاتي لأعرفهن بها. فدخلت صاحبتنا كما تدخل الأميركيات بقولها: «هالو هالو»، وحيّت التحية الأميركية المعروفة أي بالهرج والظأطة. ثم جلست.

فقامت إحدى الزائرات اللطيفات وجعلت تضرب على البيانو النشيد الوطني الأميركي مجاملة لها. فوقفت السيدة الأميركية إحتراماً وتبجيلاً لذكر وطنها، ووقفنا جميعاً معها كعادة الشرقيين بمشاركة الأجانب في عواطفهم. وما لبثنا أن رأينا الدمع يترقرق في عينيها الزرقاوين. فطفقت سائر السيدات يهامسن بعضهن بعضاً إلى أن قالت إحداهن: «أظنها تبكي لفراق أهلها». وقالت أخرى: «تذكرت بيتها». وقالت ثالثة: «أظنها تذكرت حبيبها، إن هذه الدموع ليست دموع ذكرى الأهل بل ذكرى الحبيب». ولما جلست قالت من غير أن تفهم ما قلنا: «يمكنني أن أسلو كل شيء إلا بلادي. وهذا هو الأمر الوحيد الذي يزعجني في سفري».

فتهامست السامعات لأنّ بعضهن لم يفهمن لغتها. ففسرت لهن قولها. فقلن جميعاً بلسان واحد: «الآن فهمنا معنى هذه الدموع». فقلت: «نعم هذا هو معنى

هذه الدموع. إن السيدة الأميركية قوية الإرادة شديدة القلب لا تذرف دمعاً إذا مات عزيز لها لأنها تعلم أن الموت مصير كل حي. ولكنها لا يمكنها أن ترد دموعها حين يذكر أسم وطنها ولا سيما إذا كانت بعيدة عنه. وليس ذلك فقط بل تراها في غربتها تطلب أكل بلادها وبضاعة بلادها وزينة بلادها وهواء بلادها. وتراب بلادها عندها أفضل من ذهب العالم».

فقالت إحدى الزائرات: «يا للغرابة. إن هؤلاء القوم يحبون وطنهم إلى هذا الحد وتدمع عيونهم لسماع أناشيدهم الوطنية ويقفون إجلالاً لذكر إسم بلادهم ويقيمون الدنيا ويقعدونها إذا أهين أحد مواطنيهم ثم يحرمون علينا حب أوطاننا. بل يعدوننا همجاً إذا تفانينا في طلب حقوقنا».

فقالت مدام ك: «نعم إنه لكذلك لأنهم تعودوا أن لا يعرفوا للشرقي وطناً. فترى الشرقي طيب القلب لين العريكة مسالماً محباً للغير كريماً يضحي بنفسه لأجل الآخرين - تعودوا أن يروه هكذا. فكيف يحتملون أن يروا الآن يقظته وإنتباهه ليقاسمهم ويشاطرهم الحظ والتمتع بالحرية والاستقلال في بلاده التي طالما كانت فردوساً يتمتع به الغربي وحده ولا سيما لأن الشرقي ناهض ليسير بخطى واسعة لأنه أخذ يشعر بخسارة ما فاته في أثناء غفلته».

وفيما نحن نتكلم مرت بمنزلنا بنات مدرسة يهتفن للحرية وللاستقلال. فوقفنا ننظر إليهن. وإذا بأوتومبيل مسلح وقف وتسددت بنادقه إليهن. ففرفرت البنات كالعصافير هاربات من أمامه. فضحك الجند منهم.

أما السيدة الأميركية فظهرت على وجهها علائم الاستياء وقالت: «ما الذي أراه؟» فحدثتها بالأحدوثة...

فقالت: «ولكن لو تربت هؤلاء البنات تربية قوية لما هربن هكذا، بل لوقفن وكففن عن المناداة وسألن الجند لماذا يريدون رميهن بالرصاص. هذه هي التربية القوية التي يحتاج إليها الشرق».

فقالت مدام ن: «ولكن لو لم تهرب هؤلاء البنات لقتلن جميعاً».

فأجابت السيدة الأميركية: «كلا. فما هذا إلا تهويل. لأنه يستحيل أن قوماً

متمدنين يطلقون بنادق على صغيرات كهؤلاء، فالتربية القوية الثابتة يجب أن تغرس في الولد وهو طفل. فإن الأم يجب ألا ترضع طفلها قبل أن تجعله يبكي ويصرخ ويقلق راحة أهل البيت كلهم حتى يتعود ألا ينال شيئاً ما لم يطلبه بعنف. وحين يصبح الطفل غلاماً لا يجوز أن يعطى بسهولة كل ما يطلبه بل يجب أن يجاهد ويتعب لأجل كل ما يريده، لكي تتحرك فيه قواه الكامنة التي يراد إيقاظها فيه. وإذا أراد أن يعمل عملاً فيجب أن توضع الصعوبات والمشاكل والموانع والشروط في سبيله. وأن يطلب منه أن يذلل كل هذه الصعوبات لينالـه. وإذا أراد دراهم فيجب أن يعمل في البيت عملاً في مقابل ما يطلبه. وعلى هذا النحو يمكن أن يشب قوياً نشيطاً حراً مستقلاً هيهات أن يستطيع أحد أن يحكمه».

فقالت مدام م: «ولكن هذا النوع من التربية متعب للأمهات».

فأجابت مدام ك: «نعم أنه متعب. ولكن نساءنا أصبحن مستعدات لكل تعب ولكل تضحية. ومقدرتهن على ذلك صارت معروفة في الشرق والغرب. ألا نسمع ماذا تفعل نساؤنا في هذه الأيام من صنوف التضحية ومن الأعمال في سبيل الاستقلال؟ فكأنهن شعرن بتقصيرهن في الماضي وندمن على عجزهن عن تربية أولادهن التربية القوية الشديدة، فجعلن يضحين بأنفسهن ككفارة عن تقصيرهن في الماضي. وسيعلم الغرب قريباً أن شرقيات الوقت الحاضر غير شرقيات الزمن الغابر. وسيدوّن لهنّ التاريخ هذه النهضة الجميلة. وستعلم النساءُ الرجالَ كيف تكون التضحية لأنهن تعودن التضحية التي هي أسمى الفضائل. فلا حياة بلا موت. تموت الأمهات ليحيا الأبناء».

وكان في الغرفة الأخرى شيخ مسن يسمع هذا الحديث ويقابله بما عرفه في الماضي، فما تمالك أن دخل على السيدات واعتذر عن دخوله وقال: «إذا كانت هذه هي نساؤنا فلنستبشر الآن بنيل أمنيتنا. فأذهبي أيتها السيدة الأميركية العاقلة إلى بلادك وأخبري شعبك وأولاد عمه عما رأيت وسمعت في الشرق. ولتكن أقوالك صادقة حرة كتربيتك».

وسنقرأ قريباً مقالة تلك السيدة في المجلة الأميركية.

كانون الأول 1922

في مجالس السيدات
سوريا... وماذا تحتاج

زارني بعد عودتي من سوريا بضع من الصديقات، ورغبن أن يعلمن شيئاً عن حالة أخواتهن في تلك البلاد. فسألتني سيدة: كيف رأيت سوريا بعد مضي 10 سنوات؟

فقلت لها: سوريا لم تزل كما هي ولم يتغير شيء من جبالها وهوائها وأوديتها وجمالها الطبيعي، مع أنني زرتها والطبيعة تخلع ثوبها الزاهر وتلبس ثوبها الخريفي القاتم. فكأنها كانت تشاركني بحزني وبثوبي. ولكن شتان ما بين الطبيعة والإنسان، فإنها كانت تجمل وتبسم للرائي وتزري بالتغيرات الفجائية ولسان حالها يقول: «كل شيء يزول أما أنا فلا أزول».

وكنت أكثر من زيارات الأحراش لأتمتع بمناظرها الطبيعية الساحرة التي لا تشبع نفس الرائي منها ولا تتعب عين المحدق فيها. كنت أعاشر الطبيعة لأتعلم منها، فكانت تلقي علي كل يوم درساً جديداً بلغة جديدة. فكانت لي خير رفيق ومرشد أمين.

ذهبت إليها في مواعيد مختلفة وفي أحوال متعددة وفي طقس بارد معتدل وحار، وفي الليل والنهار، فكانت حالتها واحدة ولهجتها ثابتة لا تتغير. فسوريا هي سوريا الجميلة العذبة الماء العليلة الهواء. وهذان هما الأمران الوحيدان اللذان لم يستطع أحد أن يفسدهما بعد.

وسألتني إحدى السيدات: وماذا رأيت من جديد فيها بعد الحرب؟

فأجبت: لم أر فيها شيئاً جديداً غير أمرين: الأول البدلة العسكرية. والثاني: أن كل الناس رجالاً ونساءً وأولاداً وخدماً وفلاحين في الحقول يتكلمون بالسياسة. وكل إجتماعاتهم عبارة عن مجادلات ومناقشات سياسية لا تقل عن مناقشات البرلمانات.

فسألت مدام ر: وكيف حالة السيدات هناك؟

فأجبت: أن السيدات هنّ هنّ في كل مكان. الأكثرية منهن بثياب وزخرفة وضفائر مع صغائر ووله وجنون، والأقلية ذات علم وأدب. والأقلية غير ظاهرة بل هي مضغوطة بالتيار الهائل، تيار المدنية الجديد الذي هجم على سوريا بعد الحرب وأخل أموراً كثيرة فيها وأرجعها القهقرى أعواماً.

فأجابت مدام ب: رجعنا إلى الأقلية والأكثرية. يظهر أن سوريا بلاد الأنبياء وأرض القداسة لا يمكن أن يكون فيها توازن بشيء. فهي خليط متناقض متنافر لا قيام له إلا بطريقة واحدة بطيئة ولكنها أكيدة، وهي طريقة التعليم الذي يعود إلى توحيد المبادئ وتقديس الوطنية ورفعها فوق كل شيء، وسقوط الأحزاب الدينية وتوحيد الأحزاب السياسية المتعددة وتعميم روح حب الوطن وحده في كل البلاد، حتى إذا صرخ صارخ الوطنية لبته البلاد كلها من أقصاها إلى أدناها ونهضت نهضة واحدة بطلب واحد. وهذه الضالة لا يمكن التوصل إليها إلا بواسطة الأمهات. إن سوريا تحتاج إلى أمهات قبل كل شيء.

فقالت مدام ن: غريب كلامك هذا، فإن أمهات هذا الزمان بعيدات عن الوطنية لأنهن مغرمات بالفرنجة لا يتكلمن إلا لغات أجنبية ولا يلبسن إلا أزياء إفرنجية ولا يقتبسن إلا عادات الإفرنج.

فأجبتها: وأنا كنت أفتكر مثلك، ولكن قد ثبت لي بالإختبار أن هذه الروح ابتدأت تموت عند كبار القوم العقلاء والسيدات العاقلات. وفهمت ما ينافي ذلك، وقد جمعتني الظروف ببعض السيدات الفاضلات الراقيات في بيروت وغيرها فوجدت الروح الوطنية حية فيهن، وفهمت أن هذه الروح داخلية تنمو شيئاً فشيئاً. ومن علائم تلك الروح الحية أن السيدات بدأن يتطبن عند أطباء وطنهن بعد أن كان الطبيب الأجنبي وحده محل ثقتهن. وأخذن يشجعن التجارة الوطنية فلا يشترين من محلات أجنبية. ولا يتكلمن لغة أجنبية إلا عند اللزوم. وقد استبدلن كلمة «أشكرك» بدل «مارسي» وكلمة «أودعك» بدل «أورفوار» و«ليلة سعيدة» أو «صباح الخير» بدل «بنسوار. بنجور».

فقالت مدام ن وكانت عائدة حديثاً من مصيفها لبنان: إنني استغرب ذلك، فقد رأيت سيدة حاملة المقطف بيدها الواحدة وذاهبة إلى الكروم تقطف عنبها والجرة بيدها الأخرى لتملأها من العين فقالت لي «بانجور كيف حالك يا ست، أورفوار»، وذهبت في طريقها. فضحكت بعد أن ذهبت وقلت يا ليتها كانت لاهية عن التسليم عني بأغنيتها «حنايانا. حاملة المقطف وذاهبة للكروم». فكان ذلك أجمل بكثير من تلك التحية.

فأجبتها: هذه من الأقلية الجاهلة تحب أن تتفرنج بكل شيء فلا يعتد بها. ولكن الأكثرية أصبحت تفتخر بلغتها وتعززها. ولا شك أن سوريا ابتدأت تستيقظ، والسيدات بدأن يشعرن بالمسؤولية التي عليهن فترين مدارسهن وجمعياتهن واجتماعاتهن ذات صبغة وطنية ما كانت من قبل. وهكذا الذي ينتقل من مصر إلى سوريا يرى الروح التي رآها في مصر. فإنني لم أزل أذكر حين تركت مصر وأنا في الباخرة إذ كان مرافقاً لنا الوفد الفلسطيني عائداً من أوروبا. فأتى إلى الباخرة لاستقباله جمهور من الأدباء وكانوا يسلمون على الوفد ويصفقون له ويحيونه بالدعاء للحرية والاستقلال وليحيي فلان وفلان.

وكان جمهور الركاب واقفين ينظرون إلى ذلك الاستقبال وهم في باخرة إفرنسية. وإذا بسيدة وسط الجمهور تحمست وأخذت تصفق وتنادي «لتحيى الحرية وليحيى الاستقلال» والدموع في عينيها. فنظرت إليها ثم إقتربت منها وقلت لها: إنك مصرية ولماذا تصفقين للوفد الفلسطيني؟ فأجابت: لتحيى الحرية في كل قطر فأنا أعتبر نفسي شرقية وأهتف للحرية لأنه يهمني استقلال الشرق كله. فقلت في نفسي هذه كشافة الأمة.

فسألتني مدام ب: ما معناك بكشافة الأمة؟

أجبت: إن قواد الجيوش يرسلون أمامهم كشافة تستعلم الأمور. وحال الأمة تعلم من حالة كشافها. فنحن الآن نرى فريقاً من الأمة ينادي بمبادئ جديدة. فذلك الفريق يبشرنا بحياة اجتماعية جديدة إذ تجمعنا جامعة جديدة وهي «الشرق»، حتى إذا اجتمعنا تحت راية الشرق ضمن نطاق لغة واحدة - العربية

- بلا فارق، أمكننا حينئذ أن نفخر بوطن عزيز الجانب ولا نعود نتساءل أين وطننا ولا ما هو وطننا. إذ يكون وطننا الشرق كله.

فقالت مدام ث: تقولين إن الطريق الوحيد لقيام سوريا هو العلم. وقد سمعنا أن العلم غال في سوريا والأشغال ضعيفة والإيرادات قليلة. وإذا لم يكن مال فلا علم.

فأجبتها: نعم أن العلم أصبح يكلف أكثر من الأول كما قلت. ولكن لماذا نقول العلم صار غالياً ولا نقول أزياء السيدات صارت أغلى فإن ثياب السيدات وزينتهن أصبحت أمراً غير معقول. فإذا كان التمدن بالأزياء والجواهر و»البودرة»، فإذاً على الدنيا السلام. نسمع أن فلانة باعت «مباريمها» لتلبس على آخر زي. والأخرى رهنت مصاغها لتتمكن من أن تجاري أختها الغنية إلخ. ولا نسمع أن سيدة باعت أو رهنت لأجل تعليم إبنها او إبنتها. وهكذا نرى الناس يستكثرون دفع قرش على العلوم ولكنهم لا يستكثرون على أزيائهم رخيصاً ولا غالياً. يصرفون على لهوهم ألوفاً ويستكثرون القليل على غذاء عقولهم. مثلاً ترين قرية تعد 3000 شخص. فإذا وصلت إليها جريدة أو مجلة واحدة تداولتها أيدي الجميع ولا يستحون بذلك. فلماذا تختشي السيدة أن تلبس ثوب جارتها أو أن تأكل طعامها. فترى المرأة تضن بجنيه إشتراك مجلة أو جريدة في السنة ولكنها تسخو بجنيه ثمن علبة البودرة في الأسبوع. تستكثر أن تنفق على أخيها أو إبنها جنيهاً بالشهر للمدرسة لأجل علمه ولكنها تنفق على فسطانها عشرة في الشهر.

والأغرب أنهم يلومون الحكومة المحتلة لأنه لم تكثر لهم المدارس. فكأن القوم أحتلوا البلاد لكي «ينوروهم» ويعلموهم رمي النبال. لماذا نطلب من الأجنبي أن يعلم أولادنا ويغذي عقله على هواه ويشب على لغته ومشربه؟

فقالت مدام ر: غريب ولكن نسمع أن في البلاد نهضة علمية مهمة.

فأجبتها: لا شك أنه توجد نهضة علمية ولكن ليست قوية كما يجب أن تكون والصوت البعيد يودي كثيراً. وبهذه الأمور يجب أن نكون طماعين ولا نرضى إلا بالمزيد. ونحن الآن نحتاج إلى عاملات تعمل بالفعل لتعضيد هذه النهضة.

فأجابت مدام ب: هذا صحيح نحن في حاجة إلى سيدات عاملات فقد فات وقت الأغاني والغزل، وفات وقت تنسيق الكلام والعناية بنسيج العبارات وصف الأحرف والتأنق بالتعبير وتغريد الطيور وخرير الماء وتلحين الألوان وتلوين الألحان وصرير الأسنان. والآن وصلنا إلى وقت العمل والجد لرفع شأن الأمة.

فقالت مدام س: كلمة رفع شأن الأمة ذكرتني بما شاهدته مرة. فإنه إجتمع عندنا مخترع سلاح واستاذ مدرسة مع سيدات كثيرات وكان حديثهن البلاد وطريق عمرانها. قال مخترع الأسلحة: لنحنين رؤوسنا أمام السلاح لأنه لا قيام لنا إلا به. فأجاب أستاذ المدرسة: رد سلاحك إلى مكانه. لا قيام لنا إلا بهذا. واستل القلم من جيبه.

فأجابته سيدة: وماذا يفيد السلاح والأقلام ما دام ليس عندنا أمهات. فالبلاد تحتاج إلى أمهات قبل كل شيء... فلتحيي الأمهات.

كانون الأول 1922

مشاهداتي في سوريا الجديدة
نسيم الحرية في جو الاستقلال

لم تتغير التأثيرات القديمة عليّ بتغير المناظر الجغرافية

في أوائل يوليو الفائت افتقدني الله تعالى فأفقدني فرحي اسماً ومسمى وفعلاً، وهدم الأسى بنيان عصبي هدماً، وأمرني أطبائي بالسفر العاجل إلى لبنان تفادياً لحدوث نكبة أخرى لعيلتي. فسافرت مكرهة.

الذكرى الأليمة

فنزلت مع صغاري ومربيتهم في باخرة فرنساوية تدعى الإسفنكس قاصدة إلى لبنان ملجأ التعساء كما هو ملجأ السعداء، لأنه يشفي العليل ويسلي الملول. وما كان أسوأ تذكاراتي حينئذٍ وأشدها إيلاماً لي وتلويعاً لفؤادي لأنها كانت تذكرني بعودتي مع أخي من أميركا في باخرة فرنساوية كهذه. وعظمت الذكرى إذ كان في الباخرة زوجان قادمان من أميركا إلى وطنهما سوريا. ولما كانا لا يحسنان الكلام بالإفرنسية كانا يتقربان من أي من تكلم العربية أو الإنكليزية. وتحينت السيدة الفرصة في خلال حديثها معي وسألتني على من حدادي. فرجوتها أن تعفيني من حديث يؤلمني. فاعتذرت وسكتت عن هذا الحديث.

وبعد الغداء عادت السيدة وزوجها إليّ يذرفان دموعاً سخينة ويقولان: لقد عرفنا من هو فقيدك. فيا للخسارة. لقد كان صديقاً مخلصاً، ليس لنا فقط بل لجميع المهاجرين عندنا. وقد كان رحمه الله سبب اغتباط كثيرين من المهاجرين إذ وجه نظرهم إلى الزراعة هناك ودرّب بعضهم إليها وساعدهم ما استطاع. وقال

الرجل: وأنا واحد ممن انصاعوا لدعوته فبعت متجري وعكفت على الزراعة، فأفلحت واقتنيت أملاكاً وحصلت على شيء من الثروة.

بعد ذلك اللقاء أقللت من الخروج من غرفتي في السفينة حرصاً على هدوء عواطفي.

في بحرين: ماء وبأساء

وبعد أن غادرت الباخرة مياه بورسعيد وأصبحت بين القطرين المصري والسوري، ذكرت سفرتي الأولى إلى مصر وفطنت إلى وجه الشبه بين السفرتين تلك وهذه: في الأولى برحت سوريا على أثر فقد أخ. وفي الثانية تركتها على أثر فقد أخ آخر. هذا وجه الشبه. ولكن هناك وجهاً للتناقض أيضاً: في الأولى برحتها مودعاً أخاً الوداع الأخير للقاء الأخ الآخر في مصر. أما الآن فبرحت مصر مودعاً أخاً. ولكن لا أخ آخر يستقبلني في سوريا. فما كان أشد ألمي. تذكارات مؤلمة محزنة من الشمال ومن الجنوب. من حيث غادرت ومن حيث أقبلت. فكنت بالحقيقة في بحرين: بحر من ماء وبحر من بأساء. وفوقهما جو من أدواء، تهب فيه رياح سامة من الأفكار السوداء. وكانت نفسي تخوض بحراً من غم، كما تخوض السفينة ذلك الخضم. ولكن أنى للإنسان قوة البخار، حتى تستطيع نفسه مخر مثل هذه البحار. أجل أن الطبيعة منحت الإنسان قوى عقلية وأدبية لكي يستطيع بها أن يتغلب على زوابع الحياة، ويثبت في تيار العالم. ولكن هذه القوى تحتاج إلى إدارة لكي توجه في السبيل الموافق. وهذه الإدارة تقوم بحسن التربية والتهذيب، وإلا فالقوى بلا تربية يقاوم بعضها بعضاً أو تصرف في غير سبيلها النافع فتتحول إلى ضعف. ففي إبان يأسي وبؤسي شعرت بشدة حاجتنا نحن الشرقيين إلى تربية صحيحة تحتفظ بقوانا الأدبية لنستعملها في سبيلها القويم فتكون نافعة.

الأزياء الصريحة

في أثناء خطرات هذه الأفكار لاحت أمامي سيدة في بيجاما (بذلة النوم للرجال) مقصوصة شعر الرأس تدخن سيكارتها. ثم جلست أمامي وألقت ساقاً على ساق. فأشغلتني هذه السيدة عن تلك الأفكار بشكلها وغرابة أمرها. ولا

سيما إذ رأيت سيدات آخريات يتغامزن عليها مستهزئات بها. أما الرجال فكانوا مسرورين بها يضحكون. ثم بدا مصور بعدة تصوير واختطف رسمها وهو يعتقد أنه غنم غنيمة.

أما السيدة التي كانت موضوع الهجنة فكانت غير مبالية بتغامز السيدات ولا بضحك الرجال ومزاحهم، بل كانت تنظر إليهم شزراً واستهتاراً. وبعد قليل أتى زوجها وجلس إلى جنبها وهو حليق الشاربين يلبس مثلها، لم نعد نعلم حقيقة من الرجل ومن المرأة منهما.

وفي حين آخر جرى حديث بين هذه السيدة وإحدى السيدات الآخريات، فقالت: شعرت أنكن كنتن تتغامزن عليّ.

ـ أجل استهجنا زيك.

ـ وأنا أستهجن زيكن واستقبحه.

وتناولت المرأة المسترجلة منديلاً ومسحت به وجه المرأة الأخرى، وقالت: إنك يا هذه ترسمين وجهاً آخر على وجهك من «بودرة» وحمرة وكحل إلخ. فلماذا لا تستهجنين هذا؟ أقص شعري لأنه قصير جداً ولا أود أن أكذب على الناس بشعر عارية كما تكذبين على الناس بمساحيقك وحمرتك وكحلك. وأدخن في حضرة زوجي ولا أفعل شيئاً بالخفاء عنه.

وكادت المناقشة تأول إلى ما لا تحمد عقباه لو لم يحولها بعض الناس إلى ممازحة ويفرق بين المرأتين.

فليحي. فليعش

أصبحنا في الصباح التالي في مياه حيفا ـ وبسبب الحجر الصحي لم ينزل أحد من الركاب إلى البر. وإنما ما رست السفينة حتى باغتنا هتاف، وما لبثنا أن علمنا أن الوفد الفلسطيني العائد من أوروبا كان في سفينتنا وقد تهافت أهل فلسطين من جميع أنحائها لاستقباله. وكانت الزوارق تحوم حول السفينة بعلية المستقبلين ووجهائهم.

في تلك الدقيقة هرعت بنتي الصغرى إليّ تقول بأعلى صوتها: تعالي شوفي سعد باشا زغلول.

وجعلت تصفق وتقول: «ليحيى سعد باشا زغلول. تعيش مصر حرة». فضحك الذين رأوها وسمعوها.

فقلت لها: هنا يا بنتي زغلول آخر. فقولي ليحيى الوفد الفلسطيني.

بالطبع يتعذر على طفلة في الخامسة من عمرها أن تفهم أن في الدنيا بلاداً غير مصر، وفي العالم أمماً أخرى لها قضية كقضية مصر، وفيها مجاهدون كمجاهدي مصر. فكلما رأت جماعة يهتفون اعتقدت أن الهتاف لزعيم مصر فهتفت له.

ولكني لم أتمالك حينئذٍ من سكب الدموع، وإنما لم تكن دموع الحزن حينئذٍ بل بالعكس كانت دموع العاطفة الوطنية. وقلت في نفسي ليت لكبارنا روح هؤلاء الصغار الذين نشأوا في جوّ غير الجو الذي نشأنا فيه. نشأوا في وسط الهتاف للحرية والاستقلال. نشأوا وهم يشعرون أن الحرية معبودهم وعقيدتهم وإيمانهم. وأما نحن فنشأنا ونحن نعتقد أننا مخلوقون لنكون عبيداً بلا أجر ولا شكر. فما أسعد أهل الجيل القادم بإيمانهم الجديد.

قيام الشرق بوحدته

حدثت نفسي كثيراً حينئذٍ وقلت: أحقيقة أننا أوشكنا أن نصير أمةً بكل معنى الكلمة ـ أمة حائزة جميع روابط القومية؟ أين كانت هذه النفوس الحرة كامنة؟

عند ذاك شعرت أننا نحن الشرقيين بشر. لا فرق إن كنا مستقلين أو مغتصبي الاستقلال. يكفي أن نشعر أننا لا نطيق العبودية.

وكان الهتاف ينطح عنان السماء وأنا سارحة في فضاء هذه التخيلات، فما نبه لبي إلا صراخ سيدة تصفق وتصيح: فليحيى الاستقلال التام. فالتفت فإذا بي أرى سيدة في الإزار المصري واليشمق التركي فدنوت منها، وقلت: أراك تهتفين للوفد الفلسطيني فهل حضرتك من فلسطين؟

فقالت: لا بل أنا من مصر، وحيث أكون تكون أمنيتي الاستقلال للشرق كله ولا سيما كل أمة عربية.

فقلت: شكراً لأفكارك هذه. نحن مهما فرقتنا الجغرافية والسياسة الاستعبادية تبقى لنا جامعة عظيمة متينة هي جامعة اللغة. فيجب أن نربي الناشئة على انضمام أبناء العربية كلهم ضمن جامعة واحدة حتى يكونوا أقوى وحدة في مضمار النزاع الأممي.

شيء عن أخلاقنا

وفيما كان الوفد ينزل من الباخرة كان مصور فوتوغرافي يأخذ صور المناظر، فطلبت أن أشتري منه بعض صوره إذا كان شراؤها ممكناً. فقال: لست أبيع صوراً «يا مدام». وإنما أهديك بعض الصور فأخبريني عنوانك. فأعطيته عنواني في فندق سنترال في بيروت.

ورغبت إلى أحد عمال المحجر الصحي في حيفا أن ينقل لقاء أجر له لدار التلغراف تلغرافاً مني لفندق سنترال. فعظم وكبر وادعى الكبر والنزاهة وقال: لست آخذ أجراً ولا مالاً يا سيدتي. سأرسل تلغرافك وأبرهن لك أني صادق خلافاً لما يظن الناس بأمثالي. «نحن يا ست أولاد ناس نصدق»... إلى غير ذلك من هذا التبجح.

ولكني أتأسف أني وصلت إلى فندق سنترال وأمضيت فيه بضعة أيام والتلغراف لم يصل ولا الصور وصلت. فما آلمني عدم وصول هذه ولا ذاك. وإنما آلمني أن يكون فينا نحن الشرقيين هذا الرياء. لو أخذ المصور ثمن الصور مضاعفة وأرسلها لكان صدقه عندي أعلى قيمة من صوره. ولو أخذ عامل المحجر أجرة له مضاعف أجرة التلغراف وصدق لسرني وصول التلغراف عن يده ولو متأخراً.

بمثل هذه الصغائر نقع في شرور الكبائر. بمثل هذه الأخلاق ضيعنا أوطاننا ـ فما أشد حاجتنا إلى التربية القومية والاجتماعية.

صورة أخرى من أخلاقنا

نزلنا في فندق سنترال لصاحبه نجيب أفندي شقير بغية الراحة من عناء السفر البحري قبل الارتحال إلى الجبل. وكنت أتحاشى أن يعلم بوجودي في بيروت أحد من المعارف والأصدقاء لأني لم أكن في حالة تسرهم، وأشفقت أن أشركهم بحزني. نعم إني كنت من الوجهة الصحية في حاجة إلى عناية الأصدقاء. ولكن صاحب الفندق نجيب أفندي وأعوانه لم يدعوني في حاجة إلى شيء. وإذا كنت لا أنوه بحسن الخدمة في هذا الفندق وحسن المعاملة أكون قد أغفلت واجباً وتجاوزت عن فصل في هذه المقالة لا يجوز أن أتجاوزه.

أن فندق سنترال في بيروت يعد خير نموذج للفنادق التي تجتذب السياح والمصيفين في ربوع سوريا. فقد استوفى جميع معدات الراحة وجميع حاجيات الضيوف وكالياتهم على غاية من الإتقان والترتيب والنظافة والتلبية في الخدمة. فلا نحن ولا غيرنا من النزول شكا تقصيراً أو نقصاً أو أمراً شاذاً.

فلو كان كل فندقاني يتقن فندقه هكذا والتاجر تجارته والعامل عمله والصانع صناعته، لكنا نرى البلاد في مظهر غير مظهرها الذي يغلب السيء فيه على الحسن ـ نقول ذلك بكل أسف حتى لا نكون خادعين أنفسنا في الثناء على أنفسنا.

عهد طفولية الأمة

ولعل لنا بعض العذر في هذه المظاهر التي لا تسر لأننا في دور الهدم ـ هدم القديم والتأسيس لبناء الجديد. فلا بدع أن يخنقنا الغبار المتطاير من الهدم. ولا غرو أن تصيبنا الحصى من الأنقاض المتساقطة. فصبراً.

إن حالة الأمة في أول نهوضها كحالة الطفل في أول مشيه. يقف ويقع مراراً قبل أن يستطيع الوقوف. ويعثر مراراً قبل أن يستطيع المشي. ولكن لا بد له من الوقوع والعثر، وإلا فلا تشتد أعصابه.

لا أغفل عن أن في البلاد طبقة على غاية من التعليم والرقي. ولكنهم لا يكفون لتكوين عقلية الأمة، وما هم بالسواد الذي يستطيع أن يستغرق طبقة البسطاء الساذجين والأغبياء الجاهلين. وكل أمة تكون تحت تأثير أكثريتها.

نعم إن السواد الأعظم من الساذجين عندنا طيبو القلوب دمثو الأخلاق لطيفو المعشر. ولكن السذاجة الطيبة لا تكفي وحدها لتقوية الأمة، بل تحتاج الأمة إلى أخلاق أخرى تستوفي بها قوتها.

هل العلم مفسدة؟

واتفق أن كان لي مع بعض الغيورين على وطنهم حديث بهذا الشأن، فقلت في غضون الكلام: لا قيام لنا إلا بالعلم.

فقال: أخاف أن يكون العلم قد أفسدنا.

فقلت: عجباً كيف ذلك.

فقال: يتعلم الغلام، ومتى خرج من المدرسة لا يعود يشتغل. يأنف كل شغل إلا الشغل الأدبي طبعاً، وهذا غير ميسور لكل فرد. يستحي بأبويه إذا كانا أميين أو جاهلين.

إلى أن قال: كنت يوماً مع فتى متعلم فمر بنا رجل يحمل سل عنب. فحيانا تحية ودادية. فلما مضى قلت للغلام: من هذا؟ أتعرفه؟ قال: هذا فلاح مسكين من القرية... وبعد حين تبين لي أن ذلك الرجل كان أبا الغلام، وقد استحى الغلام أن ينتمي إليه، مع أن الغلام ليس على شيء عظيم من العلم، فكيف به إذا كان ذا علم راقٍ. فتأملي.

فقلت: لا بدع أن يأنف المتعلم أن يشتغل في الفلاحة أو أنه يستحي بأبيه الفلاح إذا كان السواد الأعظم من حوله جهلة أغبياء. فاشتغاله بينهم يصمه بالجهل مثلهم. ولكن متى كان الكل متعلمين التعليم الأولي على السواء فلا يعود أحد يستحي بأحد، ولا يأنف أحد الشغل إذا كان جميع المشتغلين مثله وفي منزلته.

لا أقول هذا افتراضاً أو تكهناً بل هو أمر واقعي نجده في ممالك أوروبا الراقية وفي أميركا حيث الفلاحون والعمال وكل فئة من الناس متعلمون على السواء. وما من أحد يحسب أي نوع من العمل معرة ما دام يكسب منه المكسب الكافي بالوسيلة الشريفة. فمتى قلنا إننا في حاجة إلى العلم عنينا تعليم جميع أفراد الأمة على السواء. وهذا ما يجب أن نوجه النظر إليه أولاً في تجديد مدنيتنا وترقية قوميتنا.

الأمة سكرى

لقد خبرتُ روح أمتنا في هذه الرحلة بالرغم من تجنبي الجولان والاختلاط، وأدركت أن شعبنا ليس ميتاً كما يقولون ولا هو جاهل ولا هو بارد ولا هو خامل ـ إنما هو سكران. فيحتاج إلى علاج لينقذه من سكره، ويحتاج إلى صيحات توقظه من خبله، يحتاج إلى منبه ينبه عصبه، بل يحتاج إلى لطمات انتقادية توقظه وتثير حماسته.

نعم إن شعبنا سكران من كؤوس النوائب والكوارث التي كادت تفقده نخوته وتذهب بعزة نفسه وكرم أخلاقه. فيحتاج إلى من يصيح في أذنيه أنه لا يزال الشخص المستوفي الأخلاق والقوة والأهلية.

إننا نحتاج إلى صيحات أدبائنا الأحرار الذين لا يتاجرون بمبادئهم وببلادهم. نحتاج إلى جرأة نزيهة وصرخات قوية. فمن أين لنا هذه الصرخات؟ أمن فم الأجنبي الذي من مصلحته أن تبقى البلاد مترنحة في سكرها فيقدم لها الكأس بعد الأخرى؟ أم من أبناء الوطن الذين أصمتت المناصب أصواتهم؟ أم من الذين يئسوا من سوء الحال فهجروا البلاد؟ أم من الذين أشغلهم ترفهم عن واجباتهم الوطنية، وهم يعتقدون أنهم ما داموا في بحبوحة من اليسر فلا يهمهم مستقبل البلاد. وما دروا أن يسرهم يذهب بذهاب البلاد من أيدي أهلها.

أخاف أن هذه الصرخات الموقظة لا تكون إلا من أفواه أولادنا. وويل لنا إذا كانت صرخاتهم «أين بلادنا لقد أضاعها أهلونا».

لقد طال بي المقال الآن وأخاف أن يملني القارئة والقارىء. فوداعاً الآن إلى العدد القادم. والقادم في يد الله.

شباط 1923

مشاهداتي في سوريا
عواصف أخلاق في جو سياسي غائم
مفارقات تكاد تكون ألغازاً ومعميات وأحاجي

يقول المثل إذا أردت أن تركب القطار الحديدي فصلّ مرة. وإذا أردت أن تركب الباخرة فصلّ مرتين. وأنا أقول إذا أردت أن تركب أوتوموبيلاً في سوريا فصلّ ثلاث مرات. وإليك الخبر.

المنفى راحة

رغبنا أن نذهب إلى دوما (لبنان) حيث لنا أقرباء فيها كانوا ينتظرون أن نصطاف في بلدهم. ولكن ما لبثت أن سمعت القول المتواتر أن دوما بلد المنفيين فهي بعيدة والسفر إليها مشقة لوعورة الطريق، فعدلنا عن الاصطياف فيها بالرغم من أن لنا فيها مؤنسين. وحبب إلينا البعض «بيت مري» فرغبنا فيها ولا سيما إذ عرفنا أن لنا فيها أصدقاء قدماء هم أسرة حضرة الفاضل الخواجة إلياس بخعازي. ولما عرف هذا الفاضل بعزمنا ما تردد في أن رافقنا قصد العناية بنا وتسهيل الإقامة لنا في بلد نحن غرباء فيه. وقد كان من عناية هذا الكريم وترحاب عقيلته الفاضلة بنا في بيت مري ما لا يوازيه شكر ولا ثناء. وقد أذكرانا بالمروءة والوفاء العربيين اللذين هما مضرب المثل.

لله ما أجمل موقع بيت مري وما أبدع مناظرها. إنها الجنة لو كانت تجري من تحتها الأنهار. ولكن ما لبثنا أن شعرنا أن من كان تعب الأعصاب مثلنا لا تطيب له الإقامة في مصيف ازدحم بالمصطافين. وما مكثنا أسبوعاً حتى شعرنا بدافع

يدفعنا إلى تغيير هذا المصيف. فعدنا إلى بيروت ونحن نعقد العزيمة على تنفيذ رغبتنا الأولى ـ السفر إلى دوما: بلد المنفيين، لأن من كان في ظروفنا حري به أن ينفي نفسه من بين ضوضاء العالم إلى هدوء الوحدة والخلوة.

كيف يعامل الغريب

عدنا إلى بيروت وذهبنا تواً إلى أشهر إصطبلات (كاراج) الأوتوموبيلات وألقينا فيه عصا الترحال وأودعنا فيه حقائبنا على نية أن نأخذ منه أوتوموبيلاً إلى دوما في النهار نفسه، وسألنا عن أجرة أوتوموبيل خاص إليها. فطلب صاحب الإصطبل 25 ليرة سورية وكانت حينئذٍ تساوي نحو تسعة جنيهات مصرية. ذلك لأن الرجل رآنا غرباء في البلاد فظنها فرصة حسنة ينتهزها للكسب الفاحش. فمضينا إلى الفندق لنرتاح هناك ريثما نستأجر أوتوموبيلاً آخر بقيمة معقولة. وأرسلنا رسولاً ليأتي بالحقائب من ذلك «الكاراج» فأمسكها صاحبه وطلب عشر ليرات قيمة فكاكها.

ولما سُئل عن السبب قال إنه وقف أوتوموبيلاً لأجلنا منذ سألنا عن أجرته. مع إننا لم نتفق معه ولا كان في كلامنا معه ما تشتم منه رائحة الاتفاق بتاتاً. وأصرَّ الرجل على طلب العشر ليرات أو لا يسلم الحقائب. ولولا توسط مدير فندق السنترال في الأمر ما كانت هذه المشكلة تنحل إلا بأحد أمرين أما دفع الليرات العشر أو أخذ أي أوتوموبيل يتفضل به صاحب الكاراج بالأجرة التي يعينها.

أهكذا يجعل لبنان مصيفاً

ما ذكرنا هذه الحكاية لكي نشنع بالكاراج وصاحبه وإلا لذكرنا اسمه. وإنما أوردناها نموذجاً لبعض المعاملات الرديئة التي تنفر الأغراب وتجفل المصطافين، في حين أننا نحن السوريين نملأ الأرض والسماء صياحاً أنه يجب أن نجعل سوريا مصيف العالم كله ومصيف مصر خصوصاً، وأن يكون الاصطياف فيها أعظم موارد رزقها. أفبمثل هذه المعاملات نرغب الغرباء أن يأتوا إلى سوريا ويصطافوا في جبالها؟

فهواء لبنان العليل ومناظره الجميلة ومياهه العذبة وفاكهته الشهية وخضرته النضرة إلى غير ذلك مما خصه الله به من محاسن ومحامد ـ كل ذلك لا يجتذب إليه مصطافين ولا أغراباً إذا كان أهله خلواً من حسن المعاملة. بل بالعكس متى صادف الغريب معاملة سيئة مرة واحدة محت هذه المعاملة من ذهنه كلما صادفه من الحسنات ونفر من البلاد وأهلها.

فكل شخص يفعل كما فعل صاحب هذا الكاراج يكون كمن يقفل بيده أبواب رزقه وأرزاق مواطنيه أيضاً. ولذلك نستغرب أن يغفل الرجل عن سوء نتيجة عمله هذا ـ ترى هل يبلغ قصر النظر من بعض الناس إلى هذا الحد؟

إن هذه الحادثة البسيطة أذكرتنا بحادثتين صغيرتين: الأولى أن أحد ذوينا ذهب مرة إلى مخزن مدكور في مصر لكي يختبر أنواع كراسي الخيزران عنده. فاستقبله أحد مستخدمي المحل. فاستدرك الأمر وقال: أرجو أن تعلم مقدماً يا صاحبي إني جئت لأتفرج فقط لا لكي أشتري فاعذرني إذا لم أشتر. فما كان من عبد الخالق باشا مدكور نفسه صاحب المحل إلا أن وقف ورحب به وقال: «تفضل فأريك كل شيء ولا تشتر». وبالفعل طاف به على كل ما عنده من أثاثٍ ثم شيعه إلى خارج المخزن متلطفاً. وبعد ذلك لم يعد صاحبنا يرتاح لشراء الكراسي وغيرها إلا من محل مدكور.

والقصة الثانية: لما عدنا من أميركا إلى أوروبا نزلنا في الهافر. وفيما نحن في أحد المطاعم رأينا في الطعام ما تقز النفس منه، فنبهنا الخادم فأبدل الطعام فإذا فيه نفس الشيء. فدفعنا بعض ثمن الغذاء من غير أن نتناول شيئاً منه ومضينا. ولكن صاحب المطعم أصر على طلب ثمن الغذاء كله، وتبعنا حتى رآنا قد دخلنا إلى مطعم آخر، فاستدعى شرطياً يأمرنا أن نذهب إلى دائرة البوليس. فصحبهما أحدنا وهناك شرح الحكاية لمأمور البوليس. فما كان من هذا إلا أن اعتذر وجعل يوبخ صاحب المطعم توبيخاً عنيفاً ويقول له: إن عملك هذا أضر بسمعة المدينة ضرراً بليغاً. ثم أمره أن يرد لنا ما قبضه من ثمن الغذاء. واعترف صريحاً بأن أفراداً كهؤلاء يشوهون محاسن البلاد في نظر الغريب.

فلكي يصح أن يكون لبنان الجميل مصيفاً مرغوباً فيه يجب أن يكون في كل عمل عمومي فيه من فندق ومطعم وكاراج «مدكور»، وفي كال مكان شرطي هافري.

ليست سويسرا التي يقصد إليها المصطافون من جميع أقاصي الدنيا بأجمل مناظر من لبنان، وليس فيها اعتدال الطقس الذي في لبنان، وإنما فيها من حسن المعاملة ومن تسهيلات الإقامة ما يحبب للغريب قضاء زمن النزهة وترويح النفس في ذلك الفردوس الأرضي المصنوع.

حكاية الحوذي

ثم تقدم لنا أوتوموبيل من محل آخر فسألنا الحوذي: هل تعرف دوما؟

ـ كيف لا وهي مسقط رأسي.

ـ هل تعرف بيت فلان؟

ـ بالطبع. هذه العيلة مشهورة وبيتها على العين.

ـ كم تطلب أجرة؟

ـ 14 ليرة.

ـ أعطيك 15 ليرة على شرط ألا تدخن ولا تشرب مسكراً مدة مسيرك معنا وأن تسير على مهل.

ـ تحت أمركم.

ركبنا الأوتوموبيل، وما ابتعدنا عن بيروت بضعة أميال حتى جعل الحوذي ينهب الأرض نهباً غير مبالٍ بوصيتي. ولم يكن ليصغي إلى رجائنا وصراخ الأطفال أحياناً.

ومر بمخفر بعد البترون حيث تؤخذ «نمر» الأوتوموبيلات ووجهتها إلخ فلم يتوقف حسب العادة. فصاح به أحد الخفراء أن يقف، فاضطر أن يقف. ولما تبينه أحدهم قال: دعوه، هذا «نمرته» في وجهه. فما فهمنا إلا بعد حين أن معناهم بذلك أنه حوذي أهوج.

وعاد ينهب الأرض، وكلما رأى أوتوموبيلاً أمامه أطلق لأوتوموبيله العنان وجعل يسابقه كأننا في مضمار مع أن الطريق ضيق.

وما أوغلنا في الجبل حتى جعل يسأل كل من يصادفه أين الطريق إلى دوما؟ ففهمنا أننا أصبحنا تحت رحمة حوذي منافق أهوج.

ولما وصلنا إلى نهر إبراهيم توقفنا لتناول الغذاء. فقدمت له صاحبة الحانة سيكارة وكأساً من الخمرة. وفهمنا أنها ترشيه حتى يقف بالزبائن عندها. فما تردد في القبول وشرب على حساب الحانة حتى انتشى.

ومع نشوته وهوجه كان كلما مر على مقربة من دير أو كنيسة رسم إشارة الصليب على وجهه ـ هكذا يفهم أمثال هذا عبادة الله وتقواه.

مروءة الحجارة

في بطرام توقفنا إذ استوقفنا بعض أنسباء وقدموا لنا عنباً فاخراً جداً. ولما وصلنا إلى أكواع كفر حلدا كان من نتائج طيش هذا الحوذي أن ارتد الأوتوموبيل على عقبه وكاد ينقلب بنا لو لم يقيض الله لنا في ذلك المكان بعض فعلة يقتلعون الحجارة فتداركونا وأسندوا الأوتوموبيل، ولولاهم لتدهور بنا في الهاوية. في تلك الدقيقة فقط أدرك حوذينا طيشه إذ خاف وصرخ معنا صرخة الاستغاثة والضراعة. ولكنه لما أيقن أنه سلم كان أول ما خطر له أن يسألنا أين العنب، وسرعان ما نسي أن طيشه الذي كاد يدهورنا قد دهور العنب تحت عجلاته.

ولما عرضنا على الحجّارة مكافأة إعراباً عن امتناننا لهم أبوا كل الإباءة وقالوا إن سلامة الأولاد هي خير مكافأة لهم.

فاستغربنا أن توجد هذه المروءة عند حجارين محصور رزقهم في حجارة الأرض، وأن تنتفي هذه المروءة من قلب إصطبليّ رزقه موقوف على رضى الجمهور عنه.

والظاهر أن عيشة المدن جارية على مذهب دارون، تنازع البقاء بأي الوسائل محللة أو محرمة. وأما معيشة القرى فجارية على مذهب الإنسانية، العطف

والمروءة. أساس هذا القناعة وأساس ذاك الطمع. ولكني بقيت أفكر، لماذا القروي قنوع والمدني طموع؟ لعل تعدد مطالب الحياة ينشىء الطمع.

أيهما أفضل للفرد؟ وأيهما أفضل للجماعة؟ لا ريب أن مصلحة الجماعة وبقاءها وحفظ كيانها تقضي بالجري على مذهب القروي، لأن مصلحة الجماعة تستلزم تضحية شيء من مصلحة الأفراد.

عدنا إلى الأوتوموبيل وأنا أقول إن من يركب أوتوموبيلاً في سوريا يجب أن يؤمن على حياته ويكتب وصيته قبل أن يصلي المرات الثلاث، وأصبحنا نعرض عن تلك المناظر الجميلة لأن الخوف والحذر لم يدعا لنا نفساً تبتهج بها.

ولما بلغنا إلى دوما قلت للحوذي: أرى أنك غريب مثلنا لا تعرف الطريق ولا البلد ولا أهله، فلماذا خدعتنا؟

فأجاب: كلنا أصبحنا غرباء في بلادنا يا سيدة. لم نعد نعرف شيئاً في البلاد منذ دخل الإفرنسيس إلى بلادنا لأنهم غيروا كل شيء ووضعوه على هواهم.

فقلت: يجب أن تمتدح الإفرنسيس لأنهم يؤذنون لمثلك أن يتولى قيادة أوتوموبيل.

التلغراف اللاسلكي الطبيعي

حالما دخلنا في البلدة سألنا عن فندق ننزل فيه أولاً، فقيل لنا أن كل بيت في دوما إنما هو فندق للغريب. وأنزلنا أقرباؤنا في منزلهم ريثما نستأجر منزلاً.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى وافت إلينا سيدة من أنسبائنا من طرف البلد الآخر عن بعد بعض الساعة، فاستغربنا كيف عرفت بقدومنا وقد كان فجائياً. فقالت إنه بلغ إليها باللاسلكي.

ـ كيف ذلك؟

قالت: في مثل هذه الحال تبلغ المرأة الواحدة الخبر إلى قريبة أو صديقة لها بأعلى صوتها ـ وكل أهل البلد أصدقاء وأقرباء ـ وهذه تبلغه إلى من بعدها وهكذا دواليك. ففي دقيقة أو دقيقتين ينتقل الخبر من طرف البلدة إلى طرفها الآخر. هذا هو التليفون اللاسلكي عندنا.

قلت: إذاً الخبر لم ينحصر في ناقليه.

ـ بل شاع في كل البلد في دقائق معدودة.

فأذكرتني هذه الطريقة بطريقة البلاغات السريعة لعهد الرومانيين القدماء. فقد كان الحكام يقيمون في الطريق أنفاراً على أبعاد متناسبة يتناقلون الأخبار من جانب إلى جانب في برهة قصيرة. وكذلك كانوا يستعملون المشاعل أو إحراق الإبالات وسيلة للتفاهم بن الأماكن المتباعدة. ويقال إن الإبالات التي يشعلها النصارى ليلة عيد الصليب إنما هي من بقايا هذه الطريقة. وكانوا يستعملون في النهار المرائي أيضاً بدل المشاعل والإبالات لهذا الغرض، فكانوا يعكسون أشعة الشمس عن هذه المرائي من أبعاد مختلفة. ويتفاهمون بواسطة حركات هذه الأشعة المعكوسة.

محامد دوما وكرامها

بعد ذيوع خبر وصولنا بواسطة هذا اللاسلكي الطبيعي لم أعد أشعر أني غريبة في هذا البلد، ولم أعد أجد فرقاً بين أهله وسائر الأقرباء والأنسباء لأنهم كلهم غمرونا بمكارمهم وألطافهم وعذوبة عشرتهم ورقة أخلاقهم ودماثة طباعهم.

نعم إن البلد خلو من الفنادق والنزل. ولكن رحابة أهله وحسن ضيافتهم لا يدعان حاجة لفندق أو نزل. وما هي إلا برهة حتى توفقنا إلى منزل أقمنا فيه بملء الراحة ونحن محفوفون دائماً بعطف الأهالي ومؤاساتهم ومجاملتهم مما أزال معظم أسانا وأحزاننا.

دوما بلدة عالية متطرفة وكبيرة تشتمل على نحو 4 آلاف نسمة، فلا بد من توفر أسباب المعاملات الخارجية فيها وألا تصعب السكنى فيها. فسألنا إن كان هناك بريد وتلغراف، فقيل نعم. وسألنا عن كيفية المعاملات المالية فقيل أن فيها بنكاً أيضاً يعامل أقصى الممالك الغربية. فاستغربنا وسألنا أين؟ فقيل لنا إن داود أفندي بشير هو بريد دوما وتلغرافها وبنكها وهو واسطة لكل معاملة بين أهلها والخارج.

وقد ثبت بالفعل لنا أن جميع أموال المهاجرين التي ترد إلى دوما وما جاورها من البلدان تأتي عن يد هذا الوجيه. فهو وسيلة التعامل في بلده وقد كسب ثقة الجمهور حتى أصبح مستودع معظم أموالهم.

وما لبثنا أن اجتمعنا بهذا الفاضل فإذا هو جدير بأن يكون موضع ثقة قومه لتخلقه بأكرم الأخلاق واتصافه بجميع الفضائل لما هو عليه من سعة العلم والاختبار والاطلاع.

وكنا نبحث عن مجموعة لمؤلفات فقيدنا لأننا لم نكن حائزين عليها كلها، فوجدناها عنده كاملة وهو محافظ عليها. وبالرغم من عظم قيمتها عنده أذن لنا بها.

فكتوريا عبد النور

وقد علمنا أن كثيرين من أهالي دوما هاجروا إلى جهات أميركا وغيرها من المهاجر التي هجر إليها السوريون، ومعظمهم بل كلهم ناجحون وأخبارهم سارة وسمعتهم طيبة. وكثيرون لا يزال لهم أهل في دوما كأنهم تركوا في الوطن روابط متينة تربطهم فيه. ولهذا يرد جانب كبير من نفقات دوما من الخارج. وهنا لنا ملاحظة قد لا تكون سارة لمن لهم أهل في أميركا وهي أن إرسال الأموال إلى الوطن من المهاجر قلما يفيد البلاد بل كثيراً ما يعود بالضرر الاجتماعي. فأولاً أن من يتكلون في معيشتهم على ما يردهم من المال من المهاجر يتعودون الكسل، وعواقب الكسل غير مجهولة. وثانياً أن هذه الأموال لا يندر أن تنفق جزافاً على بضائع الأزياء الأجنبية. فقد لاحظت أن معظم الذين يبذخون ويبذرون المال في الأزياء هم من حصلوا على هذا المال من الخارج ـ هذه ملاحظة لا نخص بها أهل دوما بل نطلقها على جميع البلاد التي هاجر منها مهاجرون.

وقد عرف عن مهاجري دوما السخاء وحب العطاء للأعمال الخيرية. ومن شواهد ذلك أن في دوما جمعية خيرية للسيدات ناجحة كل النجاح. ولها عضو بين المهاجرين في ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة هي الفتاة النشيطة الغيورة الآنسة فكتوريا عبد النور. وقد انبرت هذه الآنسة بين بني وطنها تدعوهم لمساعدة هذه الجمعية، فلبوا دعوتها مسرورين وجادوا جود النفوس الكريمة. ففي أول مرة

أرسلت للجمعية من هذا الجود نحو 500 ريال وفي المرة الثانية ما يقارب هذا المبلغ. ولا تزال كل حين بعد آخر تجمع من أهل الجود والكرم مثل هذه المبالغ لهذه الجمعية.

وفي الصفحات التالية خصصنا هذه الجمعية بالكلام ونشرنا صورة أعضائها العاملات.

هذه صورة مختصرة عن نخوة تلك الآنسة وعن غيرة المهاجرين الدومانيين وسخائهم.

المنفيون

ولما قيل لنا أن دوما بلد المنفيين خطر لنا أن تكون الحكومة قد نفت بعض المتشردين الذين يدمرون مصالح البلاد.

وما لبثنا أن اجتمعنا بالمنفيين ـ وما أدراك من هم المنفيون ـ هم السادة الذين تجد في الصفحة التالية أسماءهم الكريمة تحت صورهم*.

وهم في بيروت وسائر سوريا أشهر من نار على علم في وجاهتهم ونفوذهم ومن أهم عوامل التعمير في البلاد. وكان أول ما أثر فينا من أمرهم ثناؤهم على أهل دوما لما لقوه من كرم أخلاقهم وحسن ضيافتهم، حتى أنهم ما شعروا أنهم في منفى بل في مصيف نزه بهج سار. فكانت دوما نعم المنفى المحبوب لهم.

اجتمعنا بهؤلاء الأفاضل وحادثناهم مراراً في مواضيع مختلفة من أدبية وأخلاقية وسياسية أيضاً. ووقفنا على ما تكن ضمائرهم وما تبطنه سرائرهم، فإذا بضمائرهم وسرائرهم مكشوفة، في مظاهرهم شيمة الأحرار الذين يجاهرون بعقائدهم ومذاهبهم السياسية.

حرنا في سبب نفيهم إذ لم نجد لهم ذنوباً سوى تلهبهم غيرة على وطنهم وشوقاً إلى رؤية بلادهم على غاية من حسن النظام والإدارة والنجاح الأدبي والعلمي والاقتصادي.

ـ هل تقاومون الانتداب الفرنساوي؟

ـ لا. لأن الانتداب قضاء دولي فنسلم به أملاً بحسن مراقبة جمعية الأمم عليه.

ـ هل بينكم وبين منفذي هذا الانتداب ضغينة؟

ـ لا. بل نحن كنا ممن أكرمهم متوسمين خيراً للبلاد عن يدهم.

ـ إذاً أنتم غرماء من؟

ـ نحن أعداء الإدارة السيئة التي تضعضع البلاد. نحن طلاب إدارة حسنة. نحن طلاب إصلاح يكفل المستقبل الحسن للبلاد.

هذا كان دائماً مدار حديثنا مع المنفيين في موضوع نفيهم. فإذا كان مثل هؤلاء تنفيهم إدارة الانتداب من بلدهم لمثل هذه الغيرة الوطنية، فمن أبقت من رجال البلاد المخلصين حتى تعتمد على رأيهم في إدارة الأمور!

إذا كانت الحرية والغيرة والإخلاص ذنوباً تستوجب النفي، فهل تريد إدارة الانتداب أن يكون أساس أعمالها في إنشاء سوريا الجديدة الإملاق والمداهنة والخيانات والغش؟

وإذا كان وجهاء البلاد وكبراؤها وذوو النفوذ فيها يجب أن ينفوا لعدم سكوتهم عن الإدلال على الخلل، فعلى من تعتمد الإدارة في الاسترشاد إلى الصواب في العمل. أعلى الصعاليك الذين لا حول لهم إلا ما يستمدونه من الانتداب نفسه بالحيلة والخداع؟

نصيحة مخلصة

والظاهر أن كبار رجال الانتداب شعروا بالخطأ الذي ارتكب في نفي هؤلاء الوطنيين الأحرار فما لبثوا أن أفرجوا عنهم ونحن هناك. ولولا هذا الإفراج لضعفت جداً الثقة بحسن نيات الرجال القائمين بالانتداب.

وبعد الاختبار فيما رأيت وسمعت في سوريا صرت أسوغ لنفسي القول أن حالة سوريا الإدارية سيئة جداً. وإلى الآن لا أقدر أن أعزو سوءها لسوء قصد رجال الانتداب بل إلى جهلهم أمرين جوهريين جداً:

الأول جهلهم عقلية السوريين، فهي غير ما ظهر لنا أنهم يظنونها. يجهلونها جهلاً مطبقاً. ولا بدع أن يكون جهلهم لها هو السبب الأكبر في تقصيرهم عن ضبط الإدارة.

والثاني جهلهم أحوال البلاد الاجتماعية المختلفة.

ولهذا هم محتاجون إلى الأحرار من سراة القوم لكي يرشدوهم إلى الصواب في جميع أعمالهم. فعسى أن تجد هذه النصيحة موقعاً صالحاً.

قد يستنكر بعض الناس تطرقي في هذا البحث إلى نقطة سياسية. فأرجو ممن يلوح في باله هذا الخاطر أن يعلم أمراً وهو أن المرأة عنصر عامل في كل هيئة اجتماعية ولها في كل حالة من حالات الاجتماع نظر ولها عاطفة الوطنية والرجاء في سعادة الوطن، كما أن عليها واجب إعداد رجال المستقبل للوطن. فبهذه العاطفة، وبذلك الحق الذي يخوله هذا الواجب، أقول كلمتي السياسية بحق لا ينازع.

إلى الملتقى في العدد القادم إنشاء الله.

* سليم حسن طياره، حسن محيي الدين القاضي، سليم علي سلام، صلاح الدين عثمان بيهم.

نيسان 1923

مشاهداتي في سوريا

البريد البارد، الزينة الحامية، السخاء الغزير

كنت مصطافة في لبنان أو بالأحرى مستشفية. وهذا القصد يقضي عليَّ أن أكون بعيدة عن كل اهتمام. ولكن علاقتي بمصر بقيت وثيقة تستلزم المكاتبات والمفاوضات دائماً. وبكل أسف أقول إن وسيلة المراسلات كانت بطيئة جداً ربما استغرقت المراسلة أحياناً المدة التي تستغرقها بين مصر ونيويورك. ما من خطاب ورد في أقل من 12 يوماً إلى 20 يوماً. وفي حين من الأحيان انقطعت رسائل زوجي عني برهة طويلة، فكلفت جاراً كان يتردد كثيراً بين دوما وطرابلس أن يرسل تلغرافاً مني لزوجي. وبعد حين وردت لي عدة رسائل فهمت منها أن الرسائل كانت ترسل لي من مصر منظمة في مواعيدها وإنما بوسطة سوريا لم تكن منظمة. ثم ما لبثت أن فهمت أن تلغرافي استغرق بين طرابلس ومصر سبعة أيام. فقد ورد إلى مصر وعليه تاريخ صدوره 30 نوفمبر وتاريخ وصوله 7 أكتوبر. فاستأت شديد الإستياء لأن في تلك الرسائل التي تأخر بعضها ولم يصل بعضها الآخر ما يهم المجلة وهي عزيزة عندي. ولما أعربت عن استغرابي لهذا الأمر لدى بعض أهالي بيروت قال: لا تستغربي، فإن خطاباً في نفس بيروت بين خان فخري بك والسرايا استغرق 3 أيام.

وأغرب من ذلك أن ثلاثةً من الرسائل التي أرسلتها من دوما إلى إدارة المجلة وصلت بعد عودتي إلى مصر بأسبوعين وكان بعضها قد استغرق نحو 36 يوماً.

أليس في ذلك ما يثير السخط مهما كان الإنسان حليماً. ولكن على من السخط؟

أرسلت غلافات تلك الرسائل ضمن خطاب إلى مدير بريد لبنان واستلفت نظره إلى أختام البريد اللبناني والبريد المصري للدلالة على تواريخ وصول الخطابات إلى الأماكن التي ختمت فيها. لم أقل لمدير البريد شيئاً سوى «لعله يهمكم أن تتحققوا سبب هذا التأخير».

وكنت أظن أن مدير البريد يرد لي رداً أفهم منه أنه مهتم في الأمر كعادة مديري المصالح العمومية الذين يريدون أن يبرهنوا أنهم خدمة أمناء للجمهور الذي يتقاضون معاشهم منه.

ولكن بكل أسف فيما كنت أتوقع هذا الرد قرأت في الصحف أن الموظفين الأولين في مصلحتي البريد والتلغراف قد قبض عليهما لأنهما بدّدا نحو 70 ألف ليرة من خزينة المصلحة في القمار والمضاربات.

بالطبع في هذه الحالة أصبحت الشكوى من تأخير البريد والتلغراف وتضعضعهما لا شيء في جنب تضعضع أموال مصلحتي البريد والتلغراف. ومن يستسهل أن يبدد أموال الحكومة لا يستصعب أن يبدد رسائل الشعب.

الزينة الحامية

وفي إبان استيائي من تأخر الرسائل وانقطاعها عني وتأخر تلغرافي، جاءتني ذات صباح صاحبة البيت وقالت لي: إن البلدية أمرت كل شخص أن يزين منزله فاستعدي يا مدام لتزيين منزلك.

ـ لماذا؟

ـ لأن حاكم لبنان قادم.

ـ مرحباً به. ولكن لماذا يجب أن أزين منزلي لمقدمه؟

ـ لأن كل أهل البلد سيزينون منازلهم إكراماً له.

ـ إني أحترم الحاكم والسلطة الحاكمة وكرم أهل البلد. ولكني لا أرى الزينة لازمة لإثبات هذا الاحترام. بل ربما دلت على معنى آخر. ولذلك لا أود أن أزين منزلي.

قضى أهل البلد بضعة أيام منشغلين في الزينة بين قطع أغصان من «الحرش» لصنع الأقواس ونحوها وبين تمزيق الأقمشة الملونة لصنع الرايات ونحوها حتى كادوا يعرّون الحرش الذي هو متنزه البلد من أغصانه، وكادت الدكاكين تفرغ من أنواع الموصلين الملونة.

وكان بيت الوجيه الدكتور سليم بك بشير طبيب تلك الناحية مشغولاً بإعداد الوليمة للمدعوين مع جناب الحاكم. وبالإجمال كانت البلد قائمة قاعدة كأنه يوم النشور. وقد قدرت أكلاف تلك الاستعدادات بنحو 3 مئة جنيه.

وفي أثناء ذلك كان مفتش من قبل البلدية يطوف ليرى من أحسن الزينة ومن قصر فيها إلى أن بلغ إلى منزلنا، فاستغرب أنه عار من الزينة فقال: إن جميع أهل البلد يزينون منازلهم يا مدام، فإذا لم تزيني منزلك فقد يبلغ الخبر إلى الحاكم فيستاء منك.

ـ لا أعتقد أن الحاكم يستاء. وإذا كان ممن يستاؤون فأنا أتحمل مسؤولية استيائه.

فارتبك الرجل كأنه يخشى من مسؤولية حقيقية وكاد يفهمني أن هذه الزينة موعز بها. وقال: أخاف أن أتهم بالتقصير في إبلاغك.

فقلت: إني مستعدة للإجابة الحلى كل سؤال من هذا القبيل.

وعاد الرجل مفحماً لا يحير جواباً. وفي اليوم الآخر كانت البلدة كلها مزينة إلا منزلنا فكان عاطلاً من الحلى. وحان ميعاد قدوم جناب الحاكم. وفات الميعاد والحاكم لم يأتِ. فتألف وفد وذهب إلى أميون وتلفن إلى جناب الحاكم يعاتبه لعدم مجيئه في حين أن البلدة استعدت الاستعداد الفائق لاستقباله وللوليمة لأجله. فما كان من الحاكم إلا أن أرسل بضعاً من السيدات من ذويه فوافين بعد الصبر الجميل والانتظار الطويل وأكلن الأكلات وشربن الشربات وعدن مشبعات بالزهرات.

وبعد أيام جرى حديث الزينة والزائرات في مجلس ضمّ بعض كبراء البلد واستغرب بعضهم إصراري على عدم التزيين فقلت: إني أسمع لغطاً كثيراً بالتذمر من حكم الفرنساويين وسمعت كثيراً من قصص الاستبداد والعسف اللذين يأتيهما بعض أفراد الموظفين الإفرنسيين، وكنت أستغرب أن أبناء فرنسا أم الحرية والتمدن الجديد يأتون عسفاً أو استبداداً. أما الآن فلم أعد أستغرب شيئاً من ذلك. إن الفرنسويين رأوا أنفسهم بين غزلان وطيور فلماذا تلومونهم إذا صاروا صيادين يقتنصون الغزلان والطيور؟

إذا كان الحاكم قادماً لزيارة بلد فلماذا الزينة له وهو كل يوم يزور بلداً؟ فهل تجعل

البلاد شغلها الشاغل إقامة الزينات للحكام؟ ولماذا؟ إن الحاكم عامل بأجر لا مسبغ نعمة حتى يوضع موضع الآلهة.

لا أظن حاكم لبنان أعظم مقاماً وأعلى قدراً وأجزل نفعاً وأشد نفوذاً من رئيس جمهورية فرنسا. فاسألوا هل يقيم الإفرنسيس الزينات لرئيس جمهوريتهم كيفما تحرك وانتقل؟

إنه لحسن أن نكرم الحكام وأن نعرب عن ودادنا للإفرنسيس الذين يتولون الحكم في بلادنا. ولكن لا يحسن بنا قط أن نفرط في الحفاوة بهم إفراطاً لم يصادف حكامهم مثله في بلادهم ولا هم حلموا به لئلا نضللهم عن حقيقة منزلتنا. ولا ريب أن هذه الحفاوات الفائقة التي يصادفها الإفرنسيس في سوريا وعلى الخصوص في لبنان قد ضللتهم عن حقيقتنا. فقد جعلت في نفوسهم صورة لعقليتنا غير صورتها الحقيقية. إنما نحن نكرم الغريب كل الإكرام لأن إكرام الضيف عندنا سجية توارثناها من سلالاتنا العربية. وأما الإفرنسيس فلا يفهمون ذلك لأنهم لا يعرفون هذه السجية بل تجعلهم يعتقدون إننا عباد إله الانتداب الفرنساوي، ومهما أتانا هذا الانتداب من خير وشر حسبناه نعمة لا نستحقها. ولذلك نعرب عن امتناننا لهذه النعمة بهذه الحفاوات. كذا يفسر الإفرنسيس معنى احتفائنا بهم.

أجل لقد ضللنا هؤلاء القوم الحاكمين فينا، حتى إذا بلغ آذانهم طنين خفيف من الشكوى لا يصدقون أنها شكوى عامة بل يعتقدون أنها شكوى أفراد نفعيين فيضربون بها عرض الحائط.

الإملاق داء سوريا

ثم قيل لي أن الغرض من هذه الزينة للحاكم التوسل إليه أن يقرر إنشاء محكمة في البلدة. فقلت: بئست الوسيلة. إن المحكمة التي لا ينشئها الحاكم إلا بزينة لهي أشد خطراً على العدل والحق ألف مرة من غضب الحاكم لعدم إقامة الزينة له. ولماذا نوهم الحاكم أننا نعتقد أن إنشاء المحكمة إنما هو نعمة من بين يديه، في حين أن إنشاء المحكمة من اختصاص هيئة قضائية قانونية أو من اختصاص ديوان وظيفته السهر على القضاء في البلاد أو من اختصاص مجلس نيابي يمثل سلطة

البلاد، فلماذا نجعله نحن منحة من يد الحاكم؟ إن كان من مصلحة القضاء العادل أن يكون في البلد محكمة فلتكن من غير استرضاء الحاكم. وإلا فلماذا نتملق الحاكم لكي يعمل عملاً ليس في محله؟

إن تملق الحكام يدل على أن الشعب لا يعرف أن في الدنيا عدلاً بل يعتقد أن لا وسيلة للتمتع بالحقوق إلا بالإملاق والمداهنة. فهذا الأسلوب في استجداء الحقوق والعدالات من رجال الانتداب الفرنساوي أفسد يقينهم بنا وصاروا يعاملوننا كأنهم يحسنون إلينا بحقوقنا. فلماذا بعد ذلك نلومهم إذا لم يشاؤوا أن يحسنوا؟

هذا حادث من عدة حوادث متواترة تحدث كل يوم في سوريا يضلل بها الأهالي الحكام الإفرنسيس ويخدعونهم في ما يطبعونه في أنفسهم من الاعتقاد في نفسية الأمة السورية وطبيعتها الاجتماعية وأخلاقها.

ولذلك ارتبك المخلصون من رجال الانتداب في كيفية ممارسة الحكم ومعاملة الشعب لأنهم لم يجدوا من حولهم إلا القليلين من الوطنيين الغيورين على وطنهم النزيهين، بل وجدوا أن معظم الملتفين حولهم نفعيون أنانيون.

ولو وجدوا جميع من يحف بهم رجالاً يقفون موقف الرجال ويترفعون عن الإملاق والمداهنة والزلفى لاضطروا إلى احترامهم وحاذروا كل الحذر من أن يتهاونوا في ضبط الإدارة وتنفيذ العدالة.

فإذا كان ثمت من يلام في ما تعانيه البلاد من سوء الإدارة الآن، فإنما هم أهل البلاد لا الإفرنسيس.

السخاء الغزير

مع أنه مضى على الحرب نحو أربع سنين، ما زال الناس يتحدثون بأمر مجاعة الحرب وما قاسوا فيها. وطبع المرء أن يذكر أشد الأمور تأثيراً به أكثر من غيره. فسمعنا من القصص والحوادث ما زاد كآبتنا كآبة وحزننا حزناً وكاد يجعلنا تعسي الشعور لو لم يتخلل تلك القصص أحاديث سارة عن أهل الأريحية الذين على قلتهم فرجوا كرب كثيرين. ذكر منهم لنا الشيخ الفاضل عبد القادر بك الذوق

من وجهاء طرابلس المشهورين والخواجه نعمه تادرس (طرابلسي أيضاً) من وجهاء النزالة السورية في نيويورك.

ولما قرص البرد جوانحنا غادرنا دوما وانحدرنا إلى الساحل وأقمنا برهة في عين بطرام.

هنا عرفتنا المصادفة الحسنة بذلك الوطني الغيور الجليل القدر عبد القادر بك الذوق صاحب معمل الحرير هناك. وما لبثنا أن عرفنا أنه من أعز الأصدقاء القدماء لأبينا وأخينا المرحومين وكان تأثره شديداً للقائنا. وثم كان كرم أخلاقه تعزية لنا في عزلتنا.

وقد رأينا فيه رجلاً فاضلاً نبيلاً عصرياً. وعلمنا أن كريمته الآنسة «عليه» تخرجت حديثاً في مدرسة البنات الأميركية في طرابلس التي تخرجنا فيها نحن. ونالت قصب السبق على أترابها وكانت أول فتاة مسلمة نالت شهادة الامتياز في هذه المدرسة في الخامسة عشرة من عمرها في هذا العام.

وما لبثنا أن سمعنا ثناءً متواتراً على هذا الرجل لأعماله الخيرية في مدة الحرب في تلك الجهات وفي طرابلس. فقد بذل كثيراً من المال في إنقاذ النفوس الجائعة وفتح أبواب الاسترزاق لكثيرين من أهل تلك الناحية. ورووا لنا كثيراً عن مآثره حتى صرنا نعتقد أنه لو كان جميع الأغنياء والموسرين في سوريا قد اهتموا باستنباط المشاغل والمصانع لتشغيل الناس وإيجاد المسترزقات لهم لنجت البلاد من المجاعة، بالرغم من القول أن الأتراك تعمدوا إماتة الأهالي جوعاً.

أما الخواجة نعمه تادرس فقد سمعنا الثناء في كل تلك الناحية متواتراً على أعماله المجيدة ومبراته العديدة وبذله جهده في إسعاف كثير من العائلات المسكينة عن يد جمعية الصليب الأحمر الأميركية في مدة الحرب. وقد نادى مواطنيه في أميركا للنجدة فلبوا نداءه وتبرعوا عن يده بالمبالغ الطائلة التي كان يرسلها تباعاً على أثر عقد الهدنة. وكان بعضها من ماله الخاص يرسلها سراً لعائلات يضن بكرامتها أن تهان. وبعضها أرسلها عن يدنا لعائلات في طرابلس.

فلذلك لما غادر الرجل أميركا إلى سوريا لزيارة بلاده بعد هجرها ثلاثين عاماً وبعد حرب أخنت عليها ووصل إلى بيروت، قام وفد من كرام طرابلس بالأوتوموبيلات

واستقبله في منتصف الطريق. ولما التقوا به حمله الفتيان على الأكف سروراً بقدومه. فكانت حفاوة أهل بلدته به لا تقل عن حفاوة مواطنيه في نيويورك به حين وداعه. ولا يخفى ما في هذه الحفاوات من الدلالة على مكانة الرجل بين قومه ومعارفه.

وما كان القوم بمبالغين ولا متطرفين في إكرام هذا الوجيه الكريم لأن الأخبار عن مبراته متواترة في جهات طرابلس كلها بل في كل جهة طاف فيها هذا الفاضل.

وقد قضى الخواجة نعمه تادرس وعقيلته الفاضلة السيدة ليديا التي لا تقل عنه عطفاً وكرماً وكريمته اللطيفة الآنسة كاتبة السنة الماضية يطوفون في سوريا ترويحاً للنفوس. ولكنهم في أثناء هذه السياحة لم ينسوا الواجب الإنساني الذي على الكريم الجواد، فكانوا يبذلون الإعانات والإحسانات بكل سخاء على الجمعيات الخيرية والمشروعات الوطنية النافعة.

والشيء بالشيء يذكر

في تلك الأثناء وافى إلى مصر أديب عبقري احتفل بها السوريون والمصريون وأكرموه إكرام الأديب الكبير. فما ذاع خبر الحفاوات به حتى وافت جرائد المهجر بلهجة غريبة فقالت ما مفاده: إن الاحتفال بذلك الأديب صادف أهله ووقع في محله لأنه احتفال بالأدب الحقيقي. وأما احتفال الناس بالخواجة نعمه تادرس نزيل نيويورك والخواجة سليم عطية نزيل أستراليا حين كانا في سوريا فإنما هو احتفال بالمال لا بالأشخاص. ولو لم يكن هذان الشخصان غنيين يبذلان المال بسخاء ذات اليمين وذات الشمال لما احتفل بهما أحد... إلى غير ذلك من هذا الكلام.

أما الخواجة سليم عطية فمع أنه ذو مال لا يعد ذا ثروة كبيرة ولكنه في الوقت نفسه رجل واسع العلم والاختبار، وعلمه لا يقل قط عن علم من رام أن يغمط فضله إذا لم يكن ليزيد. وما احتفل السوريون به لأجل ما بذله من الإحسان بل لأجل أنه كان يغنم الفرص لإلقاء الخطب المفيدة الحماسية لبث روح الوطنية في قومه وإيقاظ أنفسهم للوحدة القومية. فلاقت دعوته صدوراً رحيبة، فاحتفلوا به.

وأما الخواجة نعمه تادرس فإذا لم يكن من أهل العلم والأدب فهو من خدمة الأدب، وربما كان له فضل على الأدب أكثر من أهله لأن كثيراً من الأعمال الأدبية قامت بمساعدته. ولولا سخاؤه على تنشيط الأدب لما كان كثيرون من القرّاء يتمتعون بمطالعة كثير من الكتابات المفيدة.

هذا إذا نظرنا إلى موضوع الاحتفال بالأدب والعلم. ولكن إذا انتبهنا إلى أنه ليس بالأدب وحده تحيا الهيئة الاجتماعية، بل هناك عناصر أخرى لإحياء الأمم، اقتنعنا في الحال بأن كل عمل يفيد الاجتماع ذو قيمة وكل من يجيد منتهى الإجادة في عمله المفيد يستحق الحفاوة. إذا فهمنا هذه الحقيقة العادلة وجدنا أن رجلاً كنعمه تادرس الذي يعد فيلسوفاً في أعماله التجارية وقد جمع بواسطة خبرته الواسعة وحنكته البالغة في معاملة الناس ثروة طائلة، ثم جعل يبدد هذه الثروة في أعمال البر وخدمة الأدب ـ وجدنا أنه عنصر فعال في المجتمع الإنساني بل هو عبقري في فنه وحياته العملية، وأنه لذلك يستحق الحفاوة التي احتفاها به جمهور مواطنيه وأنكرها عليه بعض آخرون.

لسنا نقصد هنا أن نحصل للخواجة نعمه تادرس والخواجة سليم عطية حقاً هضمه آخرون أو أن نرد لهما فضلاً غمطوه، وإنما هي الحقيقة يجب أن تقال حتى يعلم أهل الفضل أياً كانوا أن مآثرهم لا تنسى ومحامدهم لا تغفل بل تسجلها السطور كما تسجلها الصدور، حتى يكون العاملون المتقدمون قدوة للمتأخرين، وإلا فكيف تقوم قائمة الأمم إذا كان أهل العمل لا ينالون على الأقل اعترافاً بحسن عملهم؟

المدرسة السورية الأهلية

سرني أن علمت أن حكومة الانتداب الفرنساوي تدفع إعانات وافرة لمعظم المدارس اليومية في لبنان. وهو أمر يدل على أن الإفرنسيس لا يريدون أن يطفئوا شعلة التعليم والتربية في البلاد كما يفعلون هم وغيرهم في مستعمراتهم. ولا أدري كيف يحسب هذا المال على لبنان، هل يدمج في ميزانيتها أو أنه يحسب من

الديون التي ترتبها فرنسا على لبنان. على أني بقيت أسائل لماذا لا يكون التعليم الأولي نظامياً على حساب الحكومة المحلية وتحت سيطرتها. ولعله سيكون كذلك قريباً.

أما التعليم العالي فلا يزال في عهدة الإرساليات الأجنبية الأميركية واليسوعية وقليله في عهدة غيرهما، وأقله بل النادر منه في عهدة بعض أهل البلاد كمدرسة الجامعة الوطنية في عاليه التي أنشأها الشاب النشيط إلياس أفندي شبل خوري للصبيان والمدرسة السورية الأهلية للبنات في بيروت أنشأتها الآنسة ماري كسّاب وهي من بيت معروف في العلم والتربية والفضل. وكلتا المدرستين كانتا تشتغلان في مدة الحرب بالرغم من ويلاتها وكان لهما فضل عظيم في تخفيف مضض الجوع للطعام وللعلم معاً.

في بيروت سمعت ثناءً مستطاباً على هذه المدرسة السورية الأهلية وعلى ما بذلته الآنسة كسّاب ومساعداتها في ترقيتها حتى صارت تضارع سواها من المدارس العالية ولقيت إقبالاً عظيماً حتى صارت تجمع الآن نحو 250 تلميذة. وقد نالت شهادتها عدة من الفتيات. ومذهب المدرسة وطني بحت. ولهذا جمعت تحت لوائها بناتاً من جميع الطوائف يتعلمن على نمط واحد ويتهذبن حسب المبادىء الوطنية.

على أن هذه المدرسة لا تزال غريبة الدار أي أن البناية التي هي فيها ليست لها بل مأجورة. ورئيسة المدرسة ماري كسّاب ومساعداتها ولجنة أمناء المدرسة يهتمون جميعاً لجمع المال لشراء تلك الدار.

ومهما عظمت قيمة الدار فلو كان الموسرون في البلاد قد تعودوا السخاء كما تعوده أسخياء الغرب ولا سيما الأميركان، لكان في وسع أي واحد منهم أن يدفع ثمن تلك الدار من غير أن ينصدع فؤاد ثروته. لأن عشرات من هؤلاء الموسرين يربحون في فصل اليسر أضعاف ثمن الدار ويخسرون أضعافه في زمن العسر، ومئات يربحون أو يخسرون مثله في فصل يسر أو عسر.

ولكن بكل أسف نقول إننا حتى اليوم لم نفهم عظم فائدة الأفراد المتمايزين من وراء أعمالهم العمومية، بل لا نزال نظن أن الأعمال العمومية كهذا العمل

مثلاً إنما هي مجرد ميراث وإحسانات لا تعود على عامليها إلا بشيء من الفخر لا يساوي ما يبذلون لقاءه من الأموال.

لا يفهم أولئك الأفراد المتمايزون بغناهم ووجاهتهم أن حياتهم الجسدية ومكانتهم الاجتماعية وكرامتهم الشخصية حتى سهولة معيشتهم ووفرة أرباحهم والأمن على أرواحهم وأموالهم ـ كل ذلك متوقف ومترتب على قدر ما للأمة من الاستقلال والحرية، وعلى قدر ما عند عامة الشعب من الأخلاق والمبادىء الراقية والمعرفة والآداب والنظافة والعناية بالنفس إلخ. وهذه لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة التعليم والتربية الأهليين. فإذا كان الموسرون يجودون بالمال لأجلهما كان معظم النفع عائداً إليهم وهو يفوق ما يبذلونه من المال.

ولعلهم لا يزالون يستسهلون معرَّة الاتكال في تعليم الناشئة الأهلية على الأجانب من أميركان وغيرهم. فحسب أولئك الكرام أنهم أوقدوا المشعال نحو قرن وقد حان لنا أن نحمله نحن ونمده بالوقيد، بل حان لنا أن نخجل من الاعتماد على أولئك الأجانب في مسألة تعليم الناشئة وأن نتولى نحن تعليم ناشئتنا الجديدة حتى تشب مرتفعة الرأس غير مثقلته بمنّة الأجنبي أو بالشعور بهذه المنّة إذا كان الأجنبي قد أضاف إلى فضله فضيلة عدم التمنين.

ولكن يظهر أن الموسرين في البلاد لا يفهمون الإخاء والمساواة أو الاشتراكية إلا في مسألة العطاء لأجل العمل العمومي الخيري. فيريدون أن يشترك فيه الفقير كالغني بل ليتهم يفعلون كذلك.

فقد أرسلت إلينا لجنة هذه المدرسة عدداً من وصولات الاكتتاب لهذا العمل المجيد لكي نستجدي بها من الكرماء حولنا ما تجود به أنفسهم. فأرسلنا بعضها إلى بعض المليونين. ونخجل أن نقول إن معظمها أرجعت لنا بالاعتذار بأن الحالة الحاضرة لا تساعد على الاكتتاب. فما كان أشد ألمنا من جراء ذلك ونحن نعلم أن الحالة الحاضرة التي وقفت في سبيل هذا العمل الخيري لم تقف في سبيل البوكر ولا في سبيل اللهو والبذخ الشديد. فقد علمنا أن إحدى السيدات التي أرجعت الوصولات خسرت في البوكر في ليلة واحدة 500 جنيه. وعلمنا أن سيدة اشترت

فراء بقيمة 500 جنيه. وسيدة أخرى لم يعجبها مصاغها فباعته واشترت مصاغاً بقيمة 10 آلاف جنيه. وسيدة أخرى لم تعد تستطيع انتظار أتوموبيل زوجها حتى يأخذها إلى طاولة البوكر فاشترت أتوموبيلاً خاصاً. وبكل فخر نقول إن الوصولات التي أعيد لنا ثمنها معظمها ممن هم على «قدر الحال».

خطر لنا أن نرسل بعض الوصولات لصديقتنا الفاضلة مدام أمين أفندي مرشاق ونحن واثقون أنها لا تردها. وبعد أن كتبنا لها كلمتين بهذا الشأن، اتفق أن وقع نظرنا على قائمة المكتتبين في برنامج المدرسة فدهشنا إذ رأينا اسم زوجها الفاضل أمين أفندي مرشاق وإلى جنبه 100 جنيه مصرية كل عام أي تبرع سنوي بلا انقطاع وهو أكبر اكتتاب في القائمة.

ويليه تبرع الدكتور بيارد ضدج رئيس الجامعة الأميركية وقيمته 200 جنيه مصري أجرة المدرسة في سنة. ولأسرة ضدج من الأعمال الخيرية ما يعرفها كل سوري مع ما فيها من الغرابة غير المألوفة في بلادنا.

تالله ألا يوجد في البلاد عشرة كهذين الكريمين فيتبرعون بثمن الدار مرة واحدة وكفى الأمة معرَّة في التوكل على عامتها وعلى الأجانب في الأعمال العمومية والخيرية؟

نسأل الله أن يمنح الناس رحمةً كما منحهم نعمةً.

جمعية السيدة الخيرية الأرثوذكسية في البترون (لبنان)

أنشأت هذه الجمعية فضليات السيدات في البترون في آخر سنة 1921 وغرضها إحياء المدرسة الأرثوذكسية والانفاق عليها ومساعدة المحتاجين. وهذه الجمعية على حداثة عهدها كان نجاحها باهراً في السنة الماضية التي هي سنتها الأولى. كان إيرادها من مصادر مختلفة لا محل هنا لبيانها نحو 38061 قرشاً سورياً وكانت نفقاتها 16070 قرشاً. وكان من جملة وسائل الجمعية في جمع المال أن تجتمع الأعضاء العاملات للأشغال اليدوية لحساب الجمعية كل خميس بعد الظهر. وأما أعضاء الشرف فترسل لهن الأشغال يشتغلنها في بيوتهن. ثم كانت الجمعية

تسد عجز نفقات المدرسة مما تأخذه من الرسوم من بعض الموسرين وتأخذه من التلامذة المتوسطي الحال رسوماً قليلة. والفقراء تعفيهم من الرسوم وما ينقص تسده الجمعية نفسها.

وهناك وسائل لاستدرار المال من المحسنين، ففي الأعياد وفي حفلات الأفراح يجود الخيرون وكذلك العائدون من سفر يتكرمون. وللمهاجرين يد بيضاء في هذه الجمعية أيضاً ينفحونها بمساعدتهم.

ولا يخفى ما يستلزم ذلك من همة واجتهاد الأعضاء العاملات في هذا العمل واستجداء المال.

فنؤمل أن يكون مستقبل هذه الجمعية القريب باهراً ونؤمل أن توسع دائرة التعليم الأهلي في البترون. ولنا عظيم الرجاء أن يعضدها جميع أهل الأريحية والإيسار.

أيار 1923

في مجالس السيدات
النهضة النسائية في سورية
تعضيد الصناعات الوطنية ـ وطنية السوريات

في هذه الأيام التي تنقطع فيها السيدات عن الزيارات ويلتهين في معالجة الحر المذيب أجسامهن النحيفة الرقيقة، قيض الله لي زيارة بعض السيدات فخففن وطأة الحر عني بلطف عشرتهنَّ. وقد عظم سروري إذ كان بينهن سيدة عرفتها منذ عهد المدرسة ولم أعد أراها منذ ذلك الحين.

سألت هذه الصديقة القديمة أين كانت كل هذه المدة. فأجابت: كنت سائحة منذ تركت المدرسة إلى الآن ولا أزال سائحة في الدنيا لأني أكاتب بعض الجرائد الأميركية.

فسألتها: «لماذا اخترت هذه المهنة التي تستلزم السياحة؟».

فقالت: «هذا سؤال شرقي بكل معنى الكلمة. فكأنك تستنكرين سياحتي وحدي كسيدة». فقلت: كلا لست أعترض على أحد في عمله وإنما أعلم أن مهنة مكاتبة الجرائد في أثناء السياحات شاقة لا سهلة كما يظن بعض الناس.

فقالت: لا ريب أنها مهنة شاقة وإنما لذة السياحات تهونها، حتى السياحة نفسها ليست سهلة لمن يسترزق من ورائها. وقد سئل مار بطرس: ما هي مشقات أهل السماء وملاذهم؟ فقال: كلا الأمرين، أي مشقاتهم وملذاتهم هما في سياحاتهم وزياراتهم لأهل الأرض. وبهذه السياحات يتعبونني إذ يضطرونني لفتح الأبواب وإقفالها مراراً كثيرة وأنا أضطر إلى مضايقتهم بأخذ جوازات المرور من لدن الجالس على العرش. وهكذا سياحات أهل الأرض أصبحت أيضاً متعبة شاقة بما يقاسونه من أقلام الباسبورتات.

النخاسة بالجملة

فقهقهت الحاضرات لهذه النكتة اللطيفة وقالت مدام ن: ولا بد دون الشهد من أبر النحل. فلا لذة إلا بعد عناء ولا فائدة ونفع إلا بعد عمل وتعب. فإذا كان في السياحة فائدة فلا بأس منها ولا سيما إذا كانت الفائدة غير مقتصرة على السائح بل تنال بني قومه. فقد رأينا من يسوح لكي يبدد فلوسه في اللهو والبطالة، في حين أن بني قومه في حاجة إلى مشروع مفيد لمدرسة أو مستشفى أو ملجأ إلخ. فإذا أذكرته بأن قومه أحق من لهوه وبطالته بهذه الفلوس التي يبددها قال لك: وأنا مالي. هل أنا مسؤول عن قومي. وهو يجهل أنه لولا قومه لم يكن له مجال لجمع ماله وأنه إذا فني قومه فني هو في مقدمتهم وليس لماله قوة لإنقاذه.

وقالت مدام م: وأنكى من هذا أن بعض الناس يسوحون ليس لكي يبددوا ثروتهم فقط التي هي غلة عمل قومهم بل لكي يبيعوا بلادهم لغير قومهم. فقد رأينا كثيرين يساومون على بلادهم في هذا الزمان الذي أصبحت فيه الأمم الصغيرة في سوق المساومة.

فقلت: نعم نعم إني آسفة أن في بعض أمم الشرق من يساومون على بلادهم ويعيدون عهد النخاسة بأشر منه. وقد قابلني أحد كبار الوجهاء في سوريا فسألني: هل غرض سياحتك تجاري أو سياسي؟ فاستغربت سؤاله، فقال: لا تستغربي. فإننا قد أصبحنا في زمن لا نرى فه سياحاً في البلاد إلا لبيعها أو شرائها. فمنهم من يستختمون العرائض طبقاً لرغائب الحكام. ومنهم من يحثون على المظاهرات والزينات للحكام. ومنهم من يسوح في طول البلاد وعرضها متظاهراً بالوطنية والإخلاص في خدمة البلاد ولكنه يكون في الوقت نفسه مساوماً سراً على بيع البلاد أو داساً الدسائس ضد أهل البلاد.

ثم تأوه وقال: لقد كان الأرقاء يباعون أفراداً أما الآن فأصبحوا يباعون جماعات (بالجملة). على أني أحمد الله أن في مقابل هؤلاء النخاسين يقوم أفراد محررون كلفنستون ولنكولن يجاهدون في تحرير أممهم من النخاسين الأجانب الذين يحاولون التجارة بالرقيق بالجملة.

بلح زغلول

فقلت: ولكن إلى الآن لا يوجد عندكم في سوريا مثلما عندنا في مصر.

فضحك وفي ضحكته معظم الجواب وقال: عندنا كل شيء. الموز والشمام والتفاح والبلح إلخ.

فقلت: ولكن ليس عندكم بلح زغلول.

فهز رأسه وقال: صدقت. إلى الآن لم يوجد في سوريا زغلول يقودها. ولكن لا يخفى عليك أن زغلول مصر ربيب 40 سنة احتلال. فقد زرعنا بلح الزغلول الآن وعلينا أن ننتظر أربعين سنة.

فقلت: لله دركم من صابرين. أما كان عهد عبد الحميد كافياً لإنماء هذا البلح؟ إذاً ماذا جنيتم من النهضة العلمية التي كانت سوريا تسابق فيها مصر؟ ألا ترى أن سوريا الآن أفضل منبتاً للبلح الزغلولي مما كانت عليه مصر في بدء الاحتلال؟

فتململ وقال: مسكينة سوريا تراءت لك مركزاً لنهضة علمية. ولكن واأسفاه كانت كبناء برج بابل الذي انتهى بتبلبل الألسنة وتباين التربيات. فإذا لم تكن عوامل النهضة داخلية موحدة فما هي نهضة بناء.

فعند ذلك قالت مدام ن: مع ذلك لا نقطع الأمل من المصلحين المحررين. وعسى أن تكون صديقتنا السائحة من جملة هؤلاء المحررين.

فابتسمت صديقتي السائحة وقالت: لا أفخر بالقيام بالواجب أيتها العزيزة. ولا أريد أن أقول شيئاً قبل أن يصير المقول مفعولاً.

فقالت مدام ن: لعلك تؤلفين كتاباً...

أجابت: لا يا عزيزتي فقد امتلأت مكاتبنا من النظم والنثر ومن الأغاني والمراثي التي هي كمراثي أرميا. وكفانا ما عندنا من النواح على حالة وطننا ومن فضح مساوئنا.

المشروعات الوطنية

ـ لعلك تسعين بإنشاء مدرسة كبيرة أهلية في سوريا فتجمعين مالاً لها؟

فابتسمت وقالت: أظن أن من ينجح في مشروع كهذا يصنع معجزة. أما أنا فلا قوة عندي على صنع المعجزات وأخاف أن تنقضي حياتي في السياحة لأجل جمع المال لهذا الغرض من غير أن أبلغ إلى نتيجة. فقد جرب غيري... والمعنى بقلب الشاعر. ولا يخفى عليك يا عزيزتي أن الاكتتابات والإحسانات الصغيرة لا تفتح مدارس ولا مستشفيات. وما قام مشروع وطني في بلاد إلا بجود غزير من أسخياء معدودين.

ـ إذاً ماذا تفعلين لأجل وطنك؟

فابتسمت صديقتي السائحة وقالت: إني أحاول أن أخدم بلادي من طريقين: الأول أني أنتهز كل فرصة مناسبة لكي أبسط للغرب فضائل شرقنا حتى يعلم الغربيون أن الأمم الشرقية لا يمكن استعبادها. والثاني أني مهتمة كل الاهتمام بإنشاء معمل كبير لنسج الحرير في سوريا تكون فوائده عظيمة لمربي دود القز وللأيدي العاطلة التي لم يبق لها إلا الفرار من وجه الجمود القاتل إلى المهاجر ولكنها تجد أبواب المهاجرة مقفلة وطرقها معرقلة.

فأبرقت عيون سائر الزائرات وقالت مدام ن: لله درك من وطنية صادقة. هكذا فليخدم الوطنيون أوطانهم.

الروح الوطنية

فقلت: لا ريب أن هذه أعظم خدمة تقدم للوطن السوري الآن أيتها الصديقات العزيزات لأن البلاد أصبحت في حالة يرثى لها من الجمود العملي. والظاهر أن الأموال التي ترد من المهاجر الأميركية وغيرها عوّدت الأهالي الكسل والبطالة فوقفت حركة الأعمال بطبيعة الحال، وصار الذين يعضهم ناب الجوع ممن ليس لهم أهل في أميركا يسعفونهم بالمال يضطرون أن يهاجروا. البلاد مقبلة على الدمار والبوار بسبب هذا الجمود. على أن مشروعاً عظيماً كهذا ينقذها من

شر أخطارها الحاضرة. وإنما يجب أن توجد عند الأهالي روح وطنية حقيقية لعضد هذا المشروع من جهة استهلاك مصنوعاته. فإذا لم يفضل الأهالي مصنوعاته على المصنوعات الأجنبية فشل وهبط. بل يجب أن يعم هذا التفضيل جميع المصنوعات الوطنية مهما كان نوعها وصنفها تعضيداً للصناعات الأهلية وتحريكاً لأدوات العمل.

ولا أدري لماذا لا يفعل الأهالي الآن ما كانوا يفعلونه في مدة الحرب حين نضبت موارد المصنوعات الأجنبية، فجعلت النساء يغزلن صوف الفرش وقطن اللحف ويشتغلنه بالسنارة جوارب وشيلاناً وأوشحة بل بذلات للفتيان والفتيات. وقد رأيت بذلة فتى كاملة من شغل السنارة بالسترة والبنطلون فأعجبت بها أيما إعجاب. ولو كانت في الغرب لدفعوا ثمنها مضاعفاً لأناقتها ومتانتها. ولكننا نحن الشرقيين تعودنا التقليد فنقتبس مصنوعات الغرب وهي خسيسة بخسة وننفر من مصنوعنا بالرغم من متانته وأناقته. وقد شاهدت من الأنسجة الحريرية والقطنية السورية من شغل «الذوق» وغيرها مما يفوق أكثر الأنسجة الغربية. فلا أدري لماذا لا تقبل السيدات عليه بل يتهافتن على الأنسجة الغربية التي لا تعيش ربيعاً واحداً.

إني أتألم لهذا الأعراض عن المصنوعات الوطنية ولا سيما الآن في حين أن الموجب للإقبال عليها أعظم جداً من الموجب له في مدة الحرب وأعني الغيرة الوطنية.

الموضة أيضاً

فسألتني مدام ل: على ذكر لبس السيدات، بالله كيف رأيت «موضة» السوريات؟

فقالت صاحبتي السائحة باسمة: عجباً. نحن السيدات لا يمكن أن نغفل الحديث عن «الموضة» في مجالسنا كما أن الرهبان لا يغفلون الصلاة في صوامعهم.

فقالت مدام ل ضاحكة: الشيء بالشيء يذكر يا عزيزتي. إن حديث الموضة موضة الحديث وهو له كالملح للطعام.

فقلت حسماً للجدال: إن السيدات السوريات «على آخر موضة» فلا تفوتهن «موضة» الفصل مهما كانت.

فقالت مدام ن: وكيف «موضة» السيدات المسلمات هناك هل تفنن بها كتفنن أخواتنا هنا؟

فقلت: عجباً. إن هذا السؤال سألتنيه بعض السيدات هناك فأريتهن هذه الصورة لكي يعلمن كيف تطور الإزار الحريمي (الحبرة) الذي هو من أدوات الحجاب للسيدة المسلمة وصار يمشي مع «الموضة». وإذا بقي يماشيها على هذا النحو فلا يبقى أخيراً إلا أثره إذ يصبح فستاناً فيه مسحة خفيفة تذكر «بالحبرة»، ولا سيما لأن بعض السيدات صرن يستعملن له الأقمشة الملونة. فأعجب شكل «الحبرة المصرية» الجديدة معظم السيدات وحسبنه جميلاً أنيقاً. ولا ريب أنه لجميل إذا لم يتجاوز حد اللياقة والحشمة. وبالطبع كل سيدة تقف عند حدها من حشمتها. وأعتقد أنه إذا استمرت الحبرة تماشي الموضة على هذا النحو فلا يبعد أن تقتبسها السيدات غير المسلمات أيضاً فتتوحد موضة سيدات الشرق عموماً وتلغى البرنيطة الإفرنجية.

أما السيدات المسلمات السوريات فما زال إزارهن كما نعهده منذ عشرين سنة. ولا يزال النقاب الأسود الكثيف على وجوههن وتندر من تستعمل اليشمق التركي الشفاف. على أن ملابسهن التي ضمن الإزار على غاية من الذوق اللطيف والأناقة والحشمة.

النهضة النسائية

فقالت صديقتي السائحة: هذا ما رأيته من حيث الموضة، وماذا رأيت من حيث النهضة؟

فقلت: أما من حيث النهضة النسائية فلا مشاحة في أن في البلاد نهضة وطنية لم يكن يحلم بها الرجال وكانت تعد بدعة عند النساء. ومع إني لم أختلط كثيراً بالأهالي هناك لأنه كان قصدي من الاصطياف الاستشفاء وهو يستلزم الراحة والسكينة ـ مع ذلك فقد شعرت بروح وطنية ظاهرة. وأشرت في فصول «مشاهداتي» التي نشرت في الأجزاء السابقة من مجلتنا إلى بعض معالم هذه النهضة الوطنية. وقد ثبتت لي حقيقة هذه النهضة فيما شاهدته من رقي بعض

السيدات اللواتي أسعدتني المصادفات أن اجتمعت بهن. فمنهن الآنسة عنبره سلام كريمة المفضال الوجيه السيد سليم سلام، فهي على غاية من العلم والرقي العصري والأدب الجم والفكر السامي إلى ما هناك من العدة اللازمة للنهضة الوطنية. وهي كاتبة قديرة. ومثلها السيدة الفاضلة مدام شامي كريمة السري إسبر بك شقير الوجيه اللبناني المعروف، فقد جالستها بعض مرار في برهة استعدادي في بيروت للعودة إلى مصر فإذا هي من الطبقة الراقية من السيدات اللواتي يطالعن الكتب والجرائد والمجلات ليطلعن على كل جديد ويتحدثن بكل مفيد وفوق ذلك فهي متوقدة الغيرة الوطنية.

كذلك السيدة الفاضلة النابغة الدكتور أنسطاس بركات باز عقيلة الأديب جورج أفندي نقولا باز التي قاربت بآدابها وأخلاقها وسجاياها وخدمها الوطنية بمهنتها وبسلوكها وبمبراتها المثل الأعلى الذي كان ينشده محرك النهضة النسائية باز.

والسيدة الفاضلة الآنسة أمينة خوري المقدسي مديرة قسم الأحداث في الجامعة الأميركية الكبرى في بيروت ورئيسة جمعية السيدات ومنشئة مجلة الأحداث. فهذه السيدة خادمة الوطن الحقيقية لأنها قضت سنيها الماضية في تعليم الناشئة وتهذيبها بعلومها وآدابها وسلوكها حتى اكتسبت ثقة أعظم جامعة في الشرق فاختارتها لأعظم عمل في التهذيب وهو إعداد الأحداث للدراسة.

في بلادنا كثير من أمثال هؤلاء السيدات الراقيات، وما ذكرت هؤلاء إلا نموذجاً للنهضة النسائية المبشرة بإدراك الاستقلال الوطني.

عند ذلك انطلق المدفع المؤذن بالإفطار في آخر يوم من أيام رمضان المبارك، فنهضت إحدى الزائرات المسلمات وقالت: كل عام وأنتن بخير... وانفض المجلس.

حزيران 1923

مرثيات فرح أنطون*

ربيع الحياة

يعود الربيع بزهوره الجميلة فتعود معه تذكارات حلوة لذيذة للإنسان، فيجدد ذكرى مدةٍ من الزمان لا يسمح الدهر بعودتها. فوجودك يا أخي معي في ذلك الزمان الماضي لا يسمح الدهر بعودته، فأقنع بتذكاراته اللذيذة. ولذلك سيكون عندي كل يوم ربيع. وما هذا الكتاب إلا زهور ربيع حياتك جمعتها لتكون لي ولمحبيك تذكاراً لذيذاً، وكنزاً ثميناً من بعدك.

كنت يا أخي تزدري الكنوز وكل ما هو مادي وتتعالى عن السفاسف والصغائر. وقد عرفك جمهور قرائك بذلك كما وصفك به الواصفون في هذا الكتاب. فلتسمح لي روحك الطاهرة أن أقدم لها هذه الباقة من الزهور الجميلة التي ساعدني على جمعها أصدقاؤك الكرام لتكون تذكاراً خالداً لصحيفة حياتك البيضاء.

روز حداد

* أشرفت روز على إصدار كتاب خاص عن شقيقها الراحل فرح. وقد وُزع الكتاب مع مجلة «السيدات والرجال»، المجلد الرابع، أيلول سنة 1923. وهذه مقالات وتعليقات وردود بقلم روز.

المأتم
خطبنا الجلل
فراق الشقيق العزيز فرح أنطون

مرّ ربيع 1922 وزهوره لأعيننا شواحب كوالح، وأريجه لأنفسنا سموم لوافح، وهمس نسماته في آذاننا نذير بالفوادح، وأقبل الصيف علينا إقبال العدو المكافح. كان «فرحنا» حتى هذا العام يجالد الأيام، ويناهض الأسقام ويسخر بالآلام، وهو بين المحابر والأقلام، جندي الرأي العام، والمجاهد في سبيل الاستقلال التام، حتى إذا تداعى البنيان، وتزلزل الجنان، وارتخت عضلات الفؤاد، وتلاشت القوى في الجهاد، خرَّ ذلك الجسد عند تحرج العياء، تحت وقر تلك النفس الشماء، فحتم عليه نطس الأطباء، أن يمتنع عن كل سعي أو عمل أو عناء.

ولكن سبق السيف العذل، فقد جاء هذا التحتيم بعد فوات الأمل، حين أصبح الداء يستعجل الأجل، فما هي إلا خمسون يوماً والفقيد ملازم مخدعه طوع أمر الأطباء، وعصياناً لتلك الهمة القعساء، حتى نفذ المقدور الذي لا ينفذ سواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قضى تلك الأيام المعدودة وفي صدره صراع بين نفس لم تزل في شرخ شباب الهمة وفي واسع الأمال، وفؤاد وهنت عضلاته، وارتخت خيوط أعصابه، وخارت قوة صماماته تحت سوط تلك النفس التي ما زالت تستكد نبضه منذ وعت سنن الوجود ونواميس الحياة.

النفس تقول للفؤاد: الآمال جسيمة، والأعمال عظيمة، والرحلة ممدودة، والأيام معدودة، فهلمّ بنا إلى الغرض المقصود، والمطلب المنشود.

والفؤاد يقول: إني لحم ودم، أبذل في النبض قوة واحدة، واستمد من الراحة أخرى. فهاتي قوة وخذي حركة، أو دعي لي في كل فترة راحة.

أما النفس فلم تملك تلك، ولا سمحت بهذه. فخار الفؤاد تحت سوط تلك النفس الناشطة التي لا تريد راحة.

* * *

وقد ساهرناه مساء الأحد في الثالث من شهر يوليو (تموز) حتى آن موعد المنام، ففارقناه وكل إلى مضجعه مطمئن. والظاهر أنه صحا قبيل الفجر. ولعلّ نفسه كانت جائشة فقام كعادته في هذه الحال يريد حاجة من مدبرة المنزل التي لم يكن ليريد خدمة إلا من يدها. ولم يشأ أن يضغط على زر الجرس الكهربائي الذي إلى جنب سريره (كما يفعل عادة في النهار) حتى لا يستيقظ أحد ولا ينزعج بسببه ـ ولطالما جار على نفسه حتى لا يزعج أحداً ـ وربما قصد إليها يريد أن تعدَّ له كأساً من اللبن أو من مغلي الزهور كما اعتاد أن يطلب منها. ولكن واحرقتاه.

ما أدرك غرفتها حتى نفد آخر قوة لذلك الفؤاد فنبض آخر نبضة. وما صحت مدبرة المنزل على خفة نومها إلا وهي تسمع الحشرجة الأخيرة، ففي لحظة أيقظتنا. وفي لحظة أخرى كنا نجري الأسعافات الطبية حسب تعليمات الأطباء السابقة. وفي لحظة ثالثة خاطبنا بالتليفون صديقه الدكتور الغيور أمين أفندي دمر فحضر في دقائق معدودة وكان خير مثال للمروءة ونموذجاً للأطباء الذين يستصعبون التلبية في غلس الليل. ولكن واحسرتاه، كان ذلك الجسد منذ وقع بلا روح، وما أدركناه وفي صدره فؤاد ينبض.

وآلوعتاه. رحل من غير أن يكلف أحداً مشقة؟

في تلك الدقائق المعدودة كانت كل نسمة حياة في البيت قد استيقظت، حتى الصغار الذين لا هموم لهم ولا غموم تخففت وطأة الكرى عن أجفانهم استيقظوا أيضاً، ولا ندري كيف استيقظوا مع أن البيت بقي في هدوئه الليلي المعتاد. اللهم ما عدا ضياء المصابيح وتهامس المبغوتين للحادث الجلل. وكأن هاتفاً هتف في ضمائرهم قائلاً: قوموا ودعوا الخال الذي تعلق بكم وكان يستلذ دعابتكم ويستطيب تجنيكم عليه وإدلالكم حين كان يعود إلى البيت وأنتم تتطلبون منه الهدايا والأطايب. نعم إن ذلك الخال الولوع بكم راحل رحلته الأخيرة فهيا ودعوه.

وكان كبيرهم أسبقهم إليه فشهد النفس الأخير وهو لا يدري كيف تخترم المنية الأحباء. فبقي برهة يعتقد أن خاله لا يزال في غيبوبته إلى أن رأى المدامع تنهمر فحقت الحقيقة عنده، وانقطع الرجاء واسترسل في البكاء. فجارته أختاه وهما لا تدريان ماذا جرى للخال سوى أنه نائم لا يستيقظ.

كفى هؤلاء الصغار ما شهدوا من محزنات الحياة في تلك الساعة الرهيبة. فابعدوا منذ الصباح عن روائع المأتم إلى جو غير قاتم.

وما زال هؤلاء الصغار حتى اليوم يذكرون ذلك الخال الذي كان يعطف عليهم عطف الأب الحنون وقد ذاق لذة الأبوة فيهم. فهم ينثرون على قبره زهور الود والولاء كما نثروا على جسمانه دموع الحزن والأسى.

لوعة الفؤاد

وداع الأخ الراحل

واحرَّ قلباه: قضى الشقيق الوحيد الذي قام مقام الأب لي في عطفه وعنايته وحنانه. فما شعر بحاجة في نفسي إلا قضاها. وما أحس بكربة في صدري إلا نفاها.

ومضى الرفيق الودود الذي أراني وعر طريق الحياة سهلاً، وذهب المرشد الحكيم الذي غرس في نفسي فضلاً ونبلاً. وبرح الصديق الوفي الذي لباني في الأزمات، ووقاني من شر العثرات. هذا هو الحبيب الذي كانت تطيب نفسي بلقائه وتبتهج عيناي بسنائه. فواحرّ قلباه.

أجل. مضى عزيز النفس الذي ازدرى الثراء إذا كان يستنزل نفسه من ذروة شممها. واحتقر الجاه إذا موهته ألوان المداهنة وزيفته لوامع التمليق. وجافى الملذات إذا كانت تلوثها لطخات الرذائل والشهوات. فواخسارتاه.

ذهب قويم المبدأ الذي ما جرب يقينه شيطان الأهواء إلا خزاه. وما اعترض في سبيل عقيدته نفع إلا ضحى به. شبَّ وهو حر المذهب، نقي الضمير. ومات على الخلق الذي شب عليه. ثلاثون عاماً قضاها وهو ينادي بحرية الأمم وحرية الأفراد. ومات وهذه الحرية أنشودته. فواحرباه.

ذهب العامل الجلود الذي لم يعرف معنى للملل في العمل. قضى الأيام وهو يصل بها الليالي كأنه يريد أن يحيا حياتين ونسي أنه لا يموت موتتين. فوافاجعتاه.

رحل العالم الكاتب والأقلام تستقطر من دماغه سحراً وبياناً، والصحف تنسخ عن لبه حقيقةً وبرهاناً، والكتب تستوعب من ذهنه فلسفةً وعلماً، والمكاتب تعي من بنات أفكاره حكمةً وفهماً.

برح وديع الروح، كريم الأخلاق، سمح النفس، دمث الطبع. ذهب القانع من الملذات بأقلها، والطامع من المآثر بأجلها، والآمل من الحياة بأمجدها وأنفعها، والراجي من الدنيا سلام العالم وسعادة الأمم وطهارة الاجتماع من الفساد.

هذا هو العزيز الذي فقدناه. وهذا هو الحبيب الذي خسرناه. وأنى لنا الصبر والأسى إذا كانت الخسارة لا تعوض والحبيب لا ينسى.

فإلى الأبدية الهنيئة أيها الأخ الراحل. إني واثقة أنك تنال هناك جزاءك الذي ما توخيته في هذه الدنيا.

الوداع أيها الحبيب الذاهب. أودع معك هناء العيش وطيب الحياة، أودع أماني كنت تشاركني فيها وآمالاً كنت فيّ تحييها. أودعك وقوتي تودعني وسعادتي تفارقني. أتهجرني واهية العزيمة واهنة الجلد. هذه قسوة ليست من أخلاقك وما عودتنيها.

ترى هل سئمت هذه الحياة وما فيها من المتناقضات وما احتوته من المظالم والمساوىء فازدريتها ووليتها ظهرك غير مبالٍ بسرابها؟

فسلام على وجهك الجميل. وسلام على قلبك الضئيل. لقد مرضنا يا أخي معاً وقضينا أمداً من الزمان نتشاكى صروف الحدثان. فلماذا تركتني وحدي أقاسي مضض فاجعة فيك. هذه هي المرة الوحيدة التي أراك فيها محباً لذاتك. فليتك كنت كذلك في حياتك.

نم واسترح أيها الحبيب. إلى الملتقى يا شقيق الروح. انتظرني في عالم البقاء إلى أن أتم الواجب الذي عليَّ كما أتممت الواجب الذي عليك. مهلاً ريثما أستطيع أن أترك من يمكنه أن يستمر بالعمل الذي ندبنا الله إليه.

أختك الصبور

روز أنطون حداد

رد على مجلة «الهلال»

نشرت مجلة «الهلال» نبذة عن فرح أنطون بمناسبة وفاته، تضمنت بعض الآراء التي ردت عليها روز كالتالي:

لبنان في 15 نوفمبر سنة 1922

حضرة الفاضل إميل أفندي زيدان الأكرم

سلاماً واحتراماً ـ قرأت النبذة التي في «الهلال» عن أخي وأنا موجودة في أعالي لبنان أستشفي من أثر تلك الصدمة التي أصابتني، وأنا منقطعة عن كل شيء في هذا العالم. وما كان أشد استغرابي حين سألني أحدهم: ماذا يوجد بين الهلال والمرحوم فرح؟ فأجبت: لا علم لي بأنه يوجد شيء، ولماذا هذا السؤال؟ فدفع إليّ «الهلال» وهو يقول إن «الهلال» هو الوحيد الذي لم ينصف فرحاً. فقرأت ما جاء بالهلال وقلت لعلَّ كاتب هذه الكلمة ليس إميل أفندي. فأتيت بكتابي هذا راجية أن أعلم اسم الكاتب أولاً، ولأسألك هل من الإنصاف ما جاء في تلك النبذة عن كاتب خدم وشرّف صنعته بنزاهته وفضل أن يسكت صوته من أن يرتفع ضد مبدئهِ؟ وها أنا الآن في سوريا أسمع وأرى تأثير كتاباته بين القوم. وإني أكتب هذا مدفوعة من جمهور من الأدباء الأماجد. وأنا لم أكن لأكتب كلمة بهذا

المعنى لولا التفاهم الذي بيننا وثقتي الشديدة أنكم تنقلون التاريخ بأمانة وإخلاص. ثم أن فرح لم يقفل «الجامعة» لقلة المال، لأنه لو أراد المال لكان أتاه من بابه كما فعل غيره من أهل الصنعة. ولكنه قد أقفل «الجامعة» لوقت معين لسبب سام شريف لا يسمح لي الآن بذكره ـ ولكني سأذكره في حينه إنصافاً لتلك الروح التي يحق أن نسميها عالية وشريفة لأنها رفضت كل شيء حرصاً على شرف المبدأ.

وتفضلوا بقبول جزيل الاحترام.

روز أنطون حداد

وبناء على طلب «الهلال»، كتبت روز رداً ناقشت فيه بعض النقاط التي وردت في النبذة الأولى عن فرح:

حضرة المحرر

... قلتم في صفحة 66 من الجزء الأول: «وحدث وهو يصدر الجامعة في الإسكندرية أنه مسّ الإسلام والمسيحية بشيء من النقد والمقارنة رأى فيه الأستاذ الشيخ محمد عبده ما يدعو إلى تصحيحه والتعليق عليه، فشبت من ذلك مناقشة حادة توالت فيها الردود من الجانبين. وانبرى كل منهما للدفاع عن مبدئه، فكان الأستاذ يدافع عن الإسلام ويقول إنه أكثر تسامحاً من المسيحية والفقيد ينكر ذلك ويفضل المسيحية. وكل منهما يورد الشواهد والأدلة». والحقيقة أن المناقشة الحادة التي كانت بين الإمام وفقيدنا في معنى فلسفة ابن رشد وقد دارت على مسألتين جوهريتين الأولى فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود، والثانية فلسفة ابن رشد وآراؤه في خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الإنسان به والخلود.

ثم ورد في كلام «الهلال» أيضاً: «وعاد إلى مصر وحاول استئناف إصدار «الجامعة» ولكنه أخفق. فاندمج في سلك الصحافة اليومية

واشتغل في أكثر الجرائد الوطنية». ولم يذكر «الهلال» سبباً في الإخفاق كتأييد لدعوى الإخفاق. ولم يذكر لماذا اشتغل في الجرائد الوطنية. أما تعليل هذا الإخفاق بمجرد وقوف «الجامعة» حينئذٍ فلا يعد تعليلاً سديداً في مجلة اشتهرت بدقة تحرياتها التاريخية. فالجامعة لم تتوقف لأن صاحبها أخفق بل لأسباب شخصية تختص بمبادىء الفقيد الحرة، وليس لنا أن نشرحها ولا يهم أحداً شرحها. فالأمور مرهونة بأوقاتها. ولأجل هذه المبادىء نفسها اشتغل في الجرائد الوطنية. وعرض عليه غير مرة أن يشتغل في الصحافة على مبادىء تخالف مبادئه وخطة تخالف خطته وأغري على ذلك بمكافأة كبيرة فرفض الشغل والمكافأة. ولو شاء صاحب «الجامعة» أن يتساهل ولو بعض التساهل بمبادئه لأمكنه أن يصدر جامعتين لا جامعة واحدة.

وورد في «الهلال» أيضاً: «ومما يؤخذ عليه أنه في أواخر سني حياته هجر الأدب الراقي بعض الهجرة لقلة فائدته المادية واشتغل في تأليف روايات تمثيلية للعامة قوامها الأغاني. فأثر هذا العمل في تطور التياترات عندنا لانصراف الناس عن مشاهدة الجدي من الدرامات إلى العامي الغنائي. وقد كان هو نفسه يأسف للأحوال التي اضطرته إلى ركوب هذا المركب». وهنا نستغرب نحن وغيرنا يستغرب أيضاً أن تحسبوا تأليف الروايات التمثيلية الغنائية هجراناً للأدب الراقي في حين أن أهل الأدب في الشرق والغرب أيضاً يعتقدون في تأليف الروايات الغنائية وغير الغنائية أدباً راقياً، ولا سيما إذا كانت كروايات الفقيد مملوءة مبادىء وأخلاقاً راقية. ثم أن الفقيد قدم للتمثيل الجدي من درامات ونحوها أكثر مما قدم للتمثيل الغنائي، وإذا لم يكن قد قدم سوى صلاح الدين أو مملكة أورشليم فكفى. وأعد قبل فراقه الدنيا للتمثيل الغنائي رواية «أبو الهول يتحرك»، فإذا ظهرت هذه الرواية في عالم التمثيل أضافت

برهاناً جديداً على أن فقيدنا رفع التمثيل الغنائي.

ثم ورد في «الهلال»: «وإذا نظرنا نظرة إجمالية وتقدير إلى عمله في النهضة العربية الأدبية لقلنا إنه يبتدىء بالجامعة ويكاد ينتهي بها إلا ما كان من بعض الدرامات الجدية التي عربها». وكأنكم تريدون أن تقولوا إنه لم يعمل إلا «الجامعة» ولكنكم بعد هذا القول تذكرون عدداً (غير كامل) من مؤلفاته، فكأنكم تناقضون القول السابق أنه عمل غير «الجامعة».

هذه ملاحظاتي أذكرها لكم تنقيحاً لما تقدم من كلام «الهلال» عن الفقيد، هذا الكلام الذي وإن كان لا ينفي إخلاصكم يعد إجحافاً بحق روح طاهرة خدمت بأمانة، وأود أن تكون منصفة ولو بعد الممات.

روز أنطون حداد

بين الماضي والحاضر

(نقلاً عن «البلاغ» في 31 حزيران)

حضرة الكاتب القدير والوطني المجاهد

تلقيت في بريد هذا الصباح «البلاغ» الأغر أول مرة بعد توقفه واعتقالكم بسببه. وطالعته كما كنت أطالع «الأهالي» من قبل. فأعاد إلى ذهني تذكارات الحوادث الماضية. وشتان ما بين الماضي والحاضر. ذلك الماضي المفعم بالحوادث المؤلمة من اعتقال ونفي وحبس وإيقاف صحف وإعدام صحف، وهذا الحاضر الذي تطلق فيه الحرية للمعتقلين والمنفيين. ذلك الماضي الذي كان جوه مكفهراً

قابضاً للنفوس، وهذا الحاضر الذي جعل يبزغ في أفقه فجر الحرية للأمة. نعم إن هذا الحاضر المبشر بسرور المستقبل أعاد إلى ذهني أتراح الماضي التي كان في جملتها عندي فقد ذلك الأخ الذي كان سعيداً بأن يكون له شرف التجند في صفكم للمناضلة لأجل القضية الوطنية. وقد مضى وهو مسرور بأن تسنى له أن يبذل آخر نبضة من نبضات قلبه في ذلك الجهاد المقدس. ولم أنس أنه ما عاد يوماً إلى المبيت من ميدان العمل إلا وهو يلهج بحوادث ذلك الجهاد، ولم يكن يلذ له حديث غير ذلك الحديث. ولا أنسى حين عادت «الأهالي» إلى الظهور بعد إيقاف الأشهر الستة ـ عادت لتظهر ثلاثة أيام ثم تعدم ـ وكان في إبان ضعفه ونحن نرجوه أن يرتاح رفقاً بصحته. فكان يقول: «لا أرتاح وفيّ عرق ينبض ولا أطمع في الحياة يوماً واحداً إلا لأرى هذا الوطن العزيز حراً». وحين حتم عليه طبيبه ألا ينزل من البيت أجاب: «لا بد من ذهابي إلى العمل ولو رجعت محمولاً». وهذا ما كان. ذهب ذلك اليوم إلى إدارة «الأهالي» وأتوا به محمولاً. وكان ذلك اليوم آخر أيام عمله. فذلك الأسى الشديد الوقع على صدري يتزحزح الآن بما لي من التعزية في أن الجهاد المقدس الذي كان أخي جندياً فيه جعل ينتهي بالنصر المبين، أي بتحرير الوطن من ربقة العبودية. وباستعادة أبطال الوطن حريتهم وعودتهم إلى صفوفهم لكي ينجزوا العمل الذي وقفوا حياتهم له ولكي يتمتعوا مع الأمة بثمرة النصر.

نعم بهذا النصر وبه وحده أجد لنفسي تعزية فقد ذلك الأخ الحبيب. فباسمه أهنىء الأمة الكريمة بنصرها وبحرية رئيسها وحرية أبطالها وعودة «بلاغها» الأمين.

روز أنطون حداد

حياة الفقيد العملية
التاريخ ينصف

كان والد الفقيد تاجراً من تجار الخشب المعروفين في سوريا. ولما هاجر الفقيد سوريا إلى الإسكندرية كانت تجارة أبيه قد تداعت وسقطت نهائياً لأسباب لا محل لتبيانها هنا. وكان ذلك الأب شيخاً فلم يعد يستطيع استئناف العمل وتجديد التجارة. ولم يدع فرح أباه أن يعمل فجرب التجارة مرة أو مرتين. ومع أنه ربح من ورائها، لم يرتح إليها ولم يرغب فيها إذ لم يجدها متفقة مع أمياله وملبية لآماله فترك التجارة وأرباحها.

ولما جاء إلى مصر وأصدر «الجامعة» كانت العيلة حينذاك مؤلفة من أبوين شيخين وأخ وثلاث أخوات كبراهن كانت متزوجة. وأخته كاتبة هذه السطور وأخوه الذي توفي بعدئذٍ كانا لا يزالان في المدرسة وهو ينفق عليهما وليس من يعمل في العيلة إلا هو. والعيلة متعودة رخاء العيش منذ تكونت، إذ كان الأب موسراً مبسوط الكف سخياً في النفقات العيلية. وكان أفراد العيلة شديدي التعلق به وهو شديد التعلق بهم أيضاً، فلم يكن ليرد لأحد طلباً، وكان يعتني بكل واحد منتهى العناية كأنه الأب الحنون. وقد شهد بذلك الأستاذ ضومط في تأبينه.

كذا كان موقف فرح العيلي حين قدم إلى القطر المصري في نحو العشرين من عمره. وكذا كان حين شرع في إنشاء «الجامعة» ورأس ماله قلمه فقط. والذين اشتغلوا بصناعة القلم مستقلين يفهمون جيداً حالة ذلك الموقف.

وكان فرح يمني النفس أن أخاه سيكون معواناً له في عمله متى انتهى من مدرسته. ولكن ما انتهى الأخ من المدرسة نائلاً شهادته المدرسية بكل استحقاق حتى انتابته حمى التيفوئيد فصارعها وصارعته، وما لبثت أن صرعته الصرعة القاضية وتركت والديه الشيخين وإخوته في تفجع أليم. وقد زاد وقع الفاجعة إصابة التيفوئيد إحدى أخواته وبقاؤها مدة تعاني من جراء عواقبه. في وسط هذه المصائب المختلفة بدأ فرح عمله. فمن جهة أنبت خيط أمله بمعاونة أخيه له، ومن جهة أخرى

أصبح وحده مضطراً أن ينهض تحت عبء عيلة كبيرة ليس فيها من يستطيع أن يعاونه بشيء. وفوق ذلك كانت له نفس أبية حساسة عزيزة.

وأذكر أنه حين توفي أخونا الأصغر كنت في آخر سني المدرسية، فكتبت للفقيد كتاباً قلت فيه: إنني شاعرة بخسارة العيلة وأرى أنك خسرت أخاً كان ينتظر أن يكون مساعداً لك. فأود أن أكون أنا مساعدة لك بدل الأخ الذي فقدناه وأشعر أنني أستطيع ذلك.

فكتب إليّ حينئذٍ يقول: أشكر لك هذه الإحساسات. نعم أن مصيبتنا عظيمة بفقد أحدنا. ولكن مهما عظمت المصائب فلا ينبغي أن يتزعزع كياننا بل نتحمل المصيبة بصبر وهدوء فنحسبها زوبعة مرت وقد أخذت في سبيلها من أخذت وأبقت من أبقت. فمن أخذته يبقى ذكره عندنا عطراً إلى الأبد ومن أبقته ينبغي أن نحافظ عليه بكل قوانا، فلا ندع المصيبة تقلقل كياننا من محله بل يجب أن نعمل ما نحسبه واجباً علينا ونترك لله ما يريد.

لم يثنني هذا الجواب عن عزمي بل قدمت إلى الإسكندرية مرتبطة بعقد اتفاق مع المرسلين الأميركان على إدارة مدرسة للبنات في الإبراهيمية (رمل الإسكندرية). ولم يعلم أخي شيئاً عن هذا الاتفاق حتى وصلت إلى الإسكندرية فاستغرب مفاجأتي هذه، ولكنه لم يشأ أن يحملني على نقض ذلك الإتفاق في ذلك العام. ولما انقضت مدة ورأى أني لا أزال مصرة على أن أعمل فضل أن يكون عملي إلى جانبه فأنشأ لي «مجلة السيدات والبنات» لتكون لي عملاً مستقلاً أعمل فيه كما كنت أرغب. فنشأت «مجلة السيدات والبنات» ثمرة حب وإخلاص وتذكاراً شريفاً مقدساً.

ولما انتقلت جريدة «الأهرام» من الإسكندرية إلى مصر انتدبه ذلك الصحفي المغفور له بشارة باشا تقلا لتحرير «صدى الأهرام» الذي بقي في الإسكندرية خلفاً للأهرام بعد انتقالها. وكان ذلك قبل أن أجيء إلى الإسكندرية. فتولى تحرير الصدى. وما لبثت تلك الصحيفة التي كانت تصدر أصغر حجماً من «الأهرام» أن كان لها دوي غير مألوف في جميع أنحاء القطر وازداد الإقبال عليها.

ثم علم الفقيد أن تقلا باشا يميل إلى إلغاء الصدى. وطلب تقلا باشا إلى فقيدنا أن ينتقل إلى مصر للاشتغال في «الأهرام» نفسها. ولكن فقيدنا تعذر عليه الانتقال لارتباط مصالحه في الإسكندرية ولأن انتقاله يقضي بانتقال بيته وجميع أشغاله وهو أمر ليس بالسهل كما لا يخفى. فلذلك اعتذر للباشا عن الانتقال ورغب إليه أن يبيعه صدى الأهرام واتفقا مبدئياً على البيع والشراء. ثم كاتب الفقيد أحد أصدقائه بشأن الاشتراك معه لشراء الصدى. ولكن كل هذه الآمال والتدابير حبطت لأن المغفور له تقلا باشا عدل عن بيع صدى الأهرام لاعتقاده أن إلغاءه أفيد لمصلحته من ثمنه. وكذلك عدل ذلك الصاحب عن الشركة مع الفقيد في العمل الصحافي. كل ذلك والجامعة كانت تظهر في مواعيدها.

وبعد إلغاء «الأهرام» اعتكف الفقيد على إصدار الروايات مع «الجامعة». فأصدر في عامين تقريباً معظم رواياته التي أخذت شهرة بعيدة. وقدم في ذلك الحين لجوق المرحوم الشيخ سلامة حجازي رواية البرج الهائل فكان لها دوي عظيم في الإسكندرية أولاً وفي مصر ثانياً. وكان الإقبال عليها شديداً فبلغ دخلها في الليلة التي تعينت له مئة وخمسين جنيهاً.

وأول ما يلوح للقارىء أن يسأل: كيف كان الفقيد يكتب تلك الروايات مع تحرير «الجامعة» ويدير أعمال «الجامعة» بنفسه. ومن أين له الوقت الكافي. نعم أن تلك الأعمال الكثيرة التي لا بد من اتقانها تستنفد قوةً ووقتاً معاً. أما القوة فكان فقيدنا يسرف فيها إسراف من ينفق من جيب غيره. وأما الوقت فكان يستعير فيه من الليل إلى النهار. وكثيراً ما كان يصل هذا بذاك. وكان جيرانه إذا عادوا في آخر الليل من السهرات أو الحفلات الليلية يرون نور المصباح لا يزال مشعشعاً فيعلمون أن جارهم فرحا لا يزال ساهراً يحرر ويحبر فينادونه ويلومونه على هذا الإجهاد.

على أن لكل شيء حداً أو نهاية، فلم يمضِ ذلك الإجهاد بلا أثر. ولكن المسؤولية لم تزل قائمة على قدميها تطالب تلك القوة بحقها منها. فكانت المطالب العيلية الكثيرة المتنوعة ونفقات المجلة نفسها تستغرق مالاً كثيراً كله من شق ذلك القلم. ولم يكن الفقيد ممن يسخرون قلمهم للربح المادي ولا هو ممن يحسنون التحايل في الاسترزاق ولو بالأساليب التجارية، ولا نفسه تقبل المنّة.

صفحة من أخلاقه

وقد عرفه بعض ممن كانوا يحتكون به محسناً صامتاً خفياً يجود بآخر نقد معه. ولما برح إلى طرابلس منذ 3 أعوام كان يحسن سراً على بعض الفقراء وبعضهم ليسوا بمعروفين أنهم فقراء. ولولا من اعترف بهذا لما عرف أحد ماذا فعل.

ولما كان ملازماً المنزل في مرضه الأخير طرق الباب طارق ذات يوم بعد نصف الليل ودفع إلينا كتاباً معنوناً باسمه. ففضضته قبل أن أدفعه إليه لأني خفت أن يكون في الكتاب ما يغمه. وكنت أجنبه المؤثرات لضعف قلبه. وكان فحوى الكتاب هكذا:

أيها الأستاذ المغيث مضت أيام لم أرك ولذلك سيموت أولادي جوعاً إذا قطعت عادتك عني إلخ.

فأخبرت الرجل أنه مريض وصرفته. وفي الصباح أخبرت الفقيد بما كان فاستاء لحالة ذلك الرجل ورثى له وقال سأجتهد أن أراه حالما أخرج من المنزل ـ ولكن واأسفاه لم يخرج إلى العالم الحاضر.

وأذكر جيداً أنه سمع مرة وهو في غرفته رجلاً يشاجر إحدى الجارات، وفهم من الجدال الحاد بينهما أن السبب مالي. فاستدعاني وقال اذهبي إلى هذه السيدة واسأليها في الأمر. فذهبت وعلمت أن السيدة ابتاعت من الرجل جهازاً لابنتها على أن تدفع الثمن مقسطاً بيد أنها لم تستطع أن تقوم بالإيفاء في المواعيد لضيق حالها. ولما أخبرت الفقيد ذلك تصدى للرجل وتكفل له بالدفع. فخجل الرجل وقبل الكفالة.

وكان لأبيه كمبيالة على أحد أنسبائه بقيمة 500 جنيه. ولما كان المدين لا يستطيع أن يدفع غير دموع الرجاء أخذ الفقيد الكمبيالة ومزقها لأنه أشفق أن يرى دموعاً.

وكان عنده أوراق كهذه ورثها من أبيه فما حصل منها شيئاً لأنه كان رقيق القلب لا يحسن عصر المديون. فماتت تلك الأوراق بمضي الزمان.

هذه صفحة صغيرة من عواطف وأخلاق فرح أنطون وطيب قلبه الذي ورثه من أبيه.

لم يكن فرح فقيراً

فالجامعة لم تقف لأنها لم تربح أو لقلة إيرادها. الجامعة كانت تربح كثيراً لأن الإقبال عليها كان كثيراً. وإنما كان على صاحب الجامعة نفقات عيلية كبيرة ونفقات مدارس لإخوته وغيرها. وفرح أنطون لم يعش فقيراً ولا مات فقيراً بل كان يعيش عيشة الأغنياء الموسرين لأنه كان يربح كثيراً فكان ينفق كثيراً. نعم إنه لم يترك ثروة مالية ولكنه ترك ثروة تعد أعظم من كل ثروة عالمية.

وهناك أسباب أخرى شخصية لوقوف الجامعة في مصر لا يسعنا ذكرها فهي من الصفحات المطوية التي لا تنشر إلا إن أوجب أمر نشرها. وقد أشار إليها الفقيد إشارة خفية في المنشور الذي نشره قبل سفره إلى أميركا، فكتب ما يأتي تحت عنوان «سبب نوم الجامعة»:

«ولكن قبل ذكرنا سبب هذا الانتقال لا بد أن يطالبنا مشتركوها بسبب نومها هذا النوم الطويل في السنة الماضية. فنحن نرجو منهم أن يعفونا من ذكر هذا السبب لأن ذكره يؤلمنا ويؤلم غيرنا. يؤلمنا لأنه يذكرنا تعطيل الأشغال وخسارة الوقت والمال بالانتظار واستهداف الجامعة لاستياء قرائها ومريديها وسوء ظنهم بها. ويؤلم غيرنا لأن الكلام في ذلك يجر إلى الكلام في مسائل خصوصية في جملتها مسائل عالية لا علاقة لها بالمسائل العمومية خصوصاً إذا كان فيها ما يسوء أناساً نكره إساءتهم وإن أساءوا إلينا. والجامعة ليس من عادتها أن تطرح المسائل الخصوصية مطرح المسائل العمومية لتجعلها منها. كما أنه ليس من شأنها التذمر والشكوى مهما أصابها، فإنه متى وقع الإنسان في حبائل كهذه الحبائل ولم يحسن التملص والتفلت منها دون أن يترك ريشة فيها فليس له أن يلوم أحداً غير نفسه لأن سلامة النيّة والثقة ليست عذراً كافياً له إذ هي مما يجب أن يصحب (كما يقولون) أهل الأديرة والصوامع لا أهل الأشغال والمنافع. ولذلك لا نحاول تبرئة نفسنا من ذنب القصور في حق الجامعة وحق قرائها في السنة الماضية، ونتحمل هذا الذنب وحدنا دون أن نحمل أصحابه شيئاً منه أو نعطي أنفسنا حق الشكوى من أحد. أما خسارة الوقت والمال وتعطيل الأشغال فعلى الله التعويض في كل حال... (ماعليش) كما يقول إخواننا المصريون».

تأثير والدة الفقيد في حياته

إن والدة الفقيد حادة الشعور قوية الخيال ذات مدارك عالية ونفس أبية. كذا يعرفها جميع من عاشرها من أترابها. وقد تقلب عليها من مصاعب هذه الحياة ما يدك الرواسي من شقاء بعد نعماء في يسر وبحبوحة عيش ثم وفاة أصغر ابنيها وهو في أول شبيبته إلى وفاة زوجها ثم ابنها الآخر وهو سندها الوحيد. وقد احتملت كل هذه الكوارث بصبر وجلد، ولم تزل نفسها كبيرة تلقاء مصائبها ولا تضعضع عقلها مع أنها دانت الآن الثمانين. وما زالت تستطيع أن تزور كل حين بعد حين قبر ذلك الراحل.

ولا ريب أن نفس الفقيد ورثت منها الجلد وقوة الأخلاق العالية، كما ورثت أيضاً من أبيه الاستقامة وحب التضحية لمجرد الغيرية.

تأثير الفقيد في حياتي

وكان الأخ العزيز القدوة الصالحة لي والمرشد الحكيم والمعلم الصادق. فقد درست عليه أكثر مما درست في مدرستي، وتعلمت منه مبادىء وآداباً أكثر مما تعلمت في مدرسة الاختبار. وقد كسبت منه أخلاقاً وفضائل أكثر مما كسبت من سائر أهلي، لأني بعد خروجي من المدرسة لم يكن غيره عشيري وسميري.

فكل أدب أزدان به الآن كان منه، وكل خلق أتحلى به كان مقتبساً من أخلاقه. وكل علم أعلمه كان من بحر علمه. وإذا أحسنت عملاً فالفضل فيه له.

وقد كان لي في عواطفه مرآة الحب الصادق الطاهر. ومن روحه تشع في قلبي أشعة هذا الحب. فما أنا مغالية الآن فيما أقول اندفاعاً مع الحزن بل هو حقائق راهنة تشهد عليها كتابته عني يوم برح إلى أميركا إذ كتب في «مجلة السيدات والبنات» في معرض الاعتذار عن تأخر صدور المجلة حينئذٍ لسبب وقوف «الجامعة» وتبيان أسبابه الأخرى إذ قال:

«وإذا كان أحد يخسر في هذا الانتقال فهو أنا. ولست أريد بذلك أنني أفقد الوطن والأهل والخلان فقد تكلمت عن خسارتي هذه بأسف وكآبة في المنشور

الملحق بهذا الجزء. وإنما خسارتي التي أريد أن أشير إليها هنا في صدر مجلة السيدات هي فراق شقيقتي صاحبة المجلة.

«إن بعض ذوي الصحف والألسنة المازحة الذين لا يعرفون صاحبة المجلة ضايقوها في المدة الماضية بإشارتهم تلميحاً أو تصريحاً إلى أنني أنا الذي أتولى تحرير المجلة برمتها وأن صاحبتها ليس لها شيء فيها غير الإسم كما كان ذلك لبعض من تقدمنها من الكاتبات العربيات. وقد كانت هذه التهمة تؤلمها في بدء الأمر ثم تعودت عليها. فنعم أنا أساعدها في ترتيب المواد وتنقيحها وكتابة الفصول الموقعة بهذه العلامة (***) أي ثلاثة أنجم كما تعلم قارئات هذه المجلة. ولكن الذين يذكرون مساعدتي هذه لها لا يعلمون أنني مديون لها بمساعدة إن لم تكن أكثر منها فمثلها. فليعلموا الآن أنني لم أطبع سطراً حتى الآن في الجامعة وكتبها إلا بعد أن أطلعت هي عليه ونظرت فيه. وكم من مرة في المناظرات الصعبة والمواقف النحيفة غيرت عزمي من شيء إلى شيء؟ وأقرب مثال لذلك منشور الجامعة الذي في هذا الجزء. فإنني كتبت أولاً نصفه بطريقة غير هذه فلما أطلعت على بعضه لم يعجبها ما جاء فيه فقالت: «لا ريب عندي في أنك ستغير». فضحكت لبراعة هذا الطلب. وفي كل يوم كانت تقول لي لحضي على تغييره (لا ريب عندي أنك ستغيره). ففي ذات يوم كان دماغي صافياً ونفسي ساكنة فقرأت المنشور فشعرت بأنها مصيبة في ملاحظتها. ولكن عزة نفسي ككاتب بقيت متمسكة به. ولكي أوفق بين اقتناعي الأخير وتلك العزة الكاذبة اغتنمت مرة ساعة استيائي من أمر وكان المنشور في يدي فمزقته بغضب. وبذلك اضطررت إلى كتابته مرة أخرى بخطة وأفكار لا أندم عليها في المستقبل. والآن أشعر أنني أحسنت في ما فعلت وإن الفضل في ذلك لها. وما برح هذا تأثير الجنس اللطيف علينا نحن معاشر الجنس الخشن.

«هذه هي الخسارة التي خسرتها الآن وإن كانت وقتية. ولقد كانت تقول مازحة في كل فرصة: ليس (المراقب) في بيروت فقط بل هنا (مراقب) أيضاً. فالجامعة الآن انتقلت إلى نيويورك دون مراقبها. فعسى أن لا تكون خسارتها هذه ما يشعر به قراؤها».

الأرز يحدث بمجد لله
ويخبر بعمل يديه

مناجاتي للأرز قبل فراقه

إيه شيخنا أرز لبنان!

كم جيل طويت بين طبقات جذوعك؟ فهل تقول لي أي الأجيال كان أكثرها عليك برداً وسلاماً؟

لعلك تقول عهد سليمان الحكيم. فقد امتاز هذا الملك بثلاثة أمور: الحكمة والغنى والحكم السلمي. ولكن هل نسيت أن حيرام ملك صور قطع منك أخشاباً كثيرة وأهداها لسليمان الملك؟ أفلا تحسب هذا اعتداء عليك وتدنيساً لحرمتك وأنت سجل الشرق ومكتبة دهوره. فكم صفحة سلخ سليمان من كتابك؟

فلعلك تقول إن سليمان بنى من أخشابي هيكلاً لله. فالله أعطى والله أخذ.

ولكن ماذا كان من أمر ذلك الهيكل المقدس؟ قاسى ثلاثين قرناً والأمم تتنازعه وتغزو بعضها بعضاً بحجة الاعتصام بأقداس الله. وآخر الغزاة أمة كانت موكلة ببيت المقدس فأهملت حقوق الوكالة وجعلت تضرب في طول البلاد وعرضها تطلب إلهاً آخر. ثم عادت اليوم بحجة استعادة إرث قديم تغزو أهل بلاد الهيكل لكي تنصب تمثالاً ذهبياً لإلهها الجديدة في ذلك الهيكل.

* * *

أفما كان جلالك الفخم خير هيكل لله! وقدرك العظيم أسمى عرش لملك الملوك! وأي بيت أمجد منك أيها الأرز العظيم وأليق لسكنى الله! وأي قدس أقدس من جوك الصافي وأنقى من ثلجك الناصع البياض فيكون قدس أقداس الله!

وأي خشب أكثر خلوداً من جذوعك الضخمة وأفضل مادة لصنع تابوت العهد! وأي مقدس أرهب من مقدس ظلالك لصيانة لوحي الشريعة! وأي صوت أوقر في النفس من حفيف غصونك في وسط هدوء الطبيعة ممثلاً صوت الله العليّ!

أجل أنك الهيكل الإلهي الممنَّع الذي مهما تعاقبت حوله الدول وتنازعت الأمم يبقى هيكل الجميع.

لو بلغ إليك موسى كليم الله لعله كان أقرب إلى الله فيك منه في الطور، لأنه يشعر فيك بكل جلالة القدير ومجده وعظمته غير المتناهية. ولكن المدبر المستقل برأيه ولا شريك له في سلطانه شاء أن يكون ذلك الحظ لطور سينا لا لك، كما أنه جعل حظ بناء هيكله من مادة مملكتك لا من حطام طور سينا.

فأنت إذاً ممثل لعظمة العظيم.

* * *

ألا قل يا ملك الأزمنة!

لقد طويت دولاً تعاقبت في ظلالك، فهل لك أن تخبرني أيها كانت أطوع لشريعة الله الذي أقامك شاهداً على أعمال الأمم وسياسة الدول؟

إني أسمع من خلال حفيفك هامساً يقول: لا تسلي أي الأمم كانت أطوع لشرائع الخالق، بل سلي أيها كانت أقل عصياناً لها وأطوع لوساوس الشيطان. من آثارهم تعرفينهم. فماذا ترين من آثار؟ بل ماذا ترين من مآثر أو مفاخر؟

إن جسمي ليقشعر رهبة لتأنيبك أيها الحفيف. أتلفت إلى ما حول عرشك يا ملك الأزمنة، فأرى جثثاً لا تزال تحتضر لأن الجوع سلَّ الأرواح منها سلاً بطيئاً، وأرى قامات معلقة في خشبات الصلب لا تزال تختلج بقوة كهرباء الوطنية التي حسبت لها جريمة، ودماءً لا تزال تجري في أخاديد البلاد وهي تأبى أن تغيض في الأودية والسهول ما لم تكتب بها في سفرك الجديد تاريخ الدولة الأخيرة التي أبت أن تبني ملكها إلا على أساس الظلم متجاهلة أن العدل أساس الملك. وأبت أن

تحيا إلا حياة البطر والترف متجاهلة أن حياة كهذه ليست إلا كحياة الحلميات التي تعيش على غيرها فتتلف ذلك الغير وتهلك معه.

أرى ببصري يا ملك الأزمنة إلى أبعد من دار عرشك المتعالي المتشامخ، وأجيله في فضاء دولتك الواسعة فأرى دولاً تتنازع ملكك وأرى أمماً تقتتل في تقاسم مملكتك، ولكنها كلها بادت وأنت الباقي لأن جلالة الله ساكنة فيك يا كرسي ملك الملوك ورب الأرباب.

* * *

إيه يا أرز لبنان الشيخ المحنك.

أي زائريك كان أكثر حكمة وأبعد فكراً فيك! وأي الشعراء منهم كان أسمى تخيلاً في بهائك وجمالك؟ وأي المصورين كان أقدر على رسم قدرك وجلالك؟ وأي الممثلين كان أنجح في تمثيل رهبتك وهيبتك؟ وأي الخطباء كان أفصح في وصف مجدك وعظمتك وخيلائك؟

ألا قل أيها الشيخ الفيلسوف مَنْ مِنْ الحاجين إليك أدركك وفهمك أكثر من غيره؟

صه! سمعاً!

إني أسمع بين حفيف أوراقك هامساً يهمس: إن أسمى زائري حكمة، وأسحرهم شعراً، وأبدعهم تصوراً، وأفصحهم خطابة، وأكثرهم إدراكاً لحقيقتي هو الزائر الصامت.

وي وي! إذاً فهمت لماذا لا أستطيع أن أصف قدرك وأجلو لقرائي غامضك. إن من شاء أن يفهمك ويشعر بجلالك لخليق به أن يحج إليك يا هيكل الله الذي بناه الله بيده.

فوداعاً أيها البيت المقدس إلى ملتقى آخر إذا فسح الله الأجل.

شباط 1924

مشاهدات وحوادث في سوريا الجديدة

4. الوطنية واللاوطنية

النبت الجديد في سوريا - المستقبل في أيديكم أيها الطلبة

يقولون «حب الوطن من الإيمان»، فهل لكم هذا الإيمان؟

والله قال: «أكثروا واملأوا الأرض. لقد سلطتكم عليها فاخضعوها». وقد كثرتم وملأتم الأرض فهل أنتم متسلطون عليها؟ وإذا كنتم لا تتسلطون على الأرض التي ملأتموها فكيف يكون لكم وطن محبوب؟ وإذا لم يكن لكم وطن محبوب فكيف يكون لكم إيمان؟ إن عدم الإيمان معصية وإثم.

الحب يستلزم التضحية. ويسوع الناصري قال إذ كان يدعو دعوته: «من يحبني يترك كل شيء ويتبعني». كذلك الوطن يقول «من يحبني يترك كل شيء لأجلي».

هذه سُنة الحب الوطني منذ القديم، فما من أمة حصلت على وطن إلا وقد ضحت بكثير في سبيل الوطن. فهل ضحيتم لأجل وطنكم؟ وبماذا ضحيتم؟

سمعت بعض الناس يقول: «هاتوا لي وطناً فأحبه». يا للسخافة! إذا لم يكن لنا وطن وجب علينا أن نعمل وطناً، وكيف نعمله؟ يجب أن نضحي في سبيل الحصول عليه والاحتفاظ به. يجب أن ندفع ثمنه غالياً.

14 يوليو في سوريا

لما وصلنا إلى بيروت كان فيها مهرجان وأي مهرجان: الأسواق مزدانة، والأعلام تخفق فوق المنازل، وأقواس يقابل بعضها بعضاً، والموسيقى تصدح. وقد وقفنا

في شرفة فندق سنترال المشرف على ساحة البرج، فإذا تلك الساحة تزدحم فيها جنود الاحتلال الفرنساوية والرايات الخافقة رايات إفرنسية والموسيقى إفرنسية والألحان إفرنسية. فخيل لي أني في إحدى ساحات باريس.

فسألت ما الخبر؟ فقيل: 14 يوليو عيد الجمهورية الفرنساوية، عيد تذكار تحرر فرنسا من رق البوربون. وقد احتفل الإفرنسيس وأهالي البلاد معهم بهذا العيد المجيد وكانوا جميعاً يهتفون «لتحيى فرنسا». فهاجت في صدري عاطفة بل عواطف مختلفة، وهتفت: يا للوطنية. إنهم يحتفلون بتذكار استقلالهم وحريتهم في بلاد يحتلونها كما يحتفلون ببلادهم. إنهم يفعلون ما تمليه عليهم الوطنية، فهنيئاً لهم. إنهم أحبوا الوطن، وحب الوطن أكسبهم حريتهم ومتعهم باستعمار أوطان الآخرين.

هذه إحدى العواطف التي ثارت في صدري حينئذٍ، وتمنيت أن يكون لنا مثل هذا الحب. ثم ما لبثت أن هاجت فيّ عاطفة الغيرة فقلت: لله منا مقلدين! ولكن القرود تقلد أحسن منا. نقتبس عن الإفرنسيس قبل كل شيء لغتهم ثم أزياءهم ثم بهرجتهم ومجونهم إلخ... فلماذا لم نقتبس عنهم حب الوطن؟ ولماذا لا نؤمن مثل إيمانهم؟

ترى سيدة سورية فلا تكاد تعرف أنها سورية لأنها تلبس لبساً أجمل من لبس الفرنساوية وأكثر أناقة وأبهة، وتتكلم اللغة الإفرنسية بلهجة باريسية تقصر عنها الباريسيات. وترقص الرقصة التي لم تتعلمها الباريسيات بعد. «وتتحنجل» في مشيتها «وتتدلعن» في حركاتها «وتتناحف» في ملافظها الفرنساوية. ولكنها في ساعة الاقتصاد لا تستطيع تقليد الإفرنسية، وفي ساعة الوطنية لا تعرف لها معنى ولا لنفسها وطناً ولا ينبض قلبها لوطنية.

وبكل فخر نقول إن فتياننا يستطيعون أن يباروا الفرنساوي بل يتفوقون عليه في علمه ولغته وبلا شك يفوقونه في آدابه وذوقه. ولكن في ساعات الوطنية تنعقد ألسنة معظمهم لأنهم لا يكادون يفهمون معنى الوطنية ولا يحسون بشعور وطني.

اليوم يوم فرنسا والعيد عيد فرنسا والجيش الحافل جيش فرنسا، فما شأن الشعب السوري أن يطفر بهجة وهتافه لفرنسا يشق طبقات السماء؟

للمجاملة حد وقد تجاوزوه خطواتٍ بل أشواطاً. فتذكرت حينئذٍ أن العناصر العربية تبالغ في حسن الضيافة إلى حد أن القاتل إذا دخل في حي أهل القتيل سلم من نقمتهم. ويسوع الناصري الذي ظهر وعاش في الشرق علم أقوامه أن «من أخذ رداءك فاخلع له ثوبك أيضاً». ولكن هذا التناهي بكرم الأخلاق جرّ على الشرق الوبال والنكال. فطمع ضيفنا واستفحل الطامع بكرمنا حتى أصبح الضيف صاحب البيت ونحن غرباء في بيوتنا.

بهذه الأخلاق ضيعنا أوطاننا وحبها معاً.

النبت الجديد

النسيم والناشئة رفيقا السائح

إن من يبرح مصر إلى سوريا يبرح من جو حارٍ إلى جو بارد حقيقة ومجازاً. يبرح من حر الوطنية إلى برد اللاوطنية.

على أن من يسوح في سوريا يرافقه رفيقان منعشان: النسيم العليل الشافي والشبيبة الناهضة. يرى شيخوخة القديم تتفكك وتتحلل في وعور الكسل والخمول، ويشاهد صبوة الجديد تترعرع في منابت الحماسة الوطنية.

ففي سوريا الآن «لا وطنية» مولية، ووطنية نابتة ناهضة. فيها قديم ينهدم ويتحطم، وبتهدمه وتحطمه صدمات موجعة وغبار يخنق المنافس. وفيها جديد يشاد ويبنى وبنيانه يستحث الهمم.

في سوريا الآن ناشئة جديدة تستعد لاسترداد ما ضيعته الأجيال الذاهبة والمتأهبة. إذاً أنت في سوريا بين سمائين سماء الماضي وسماء المستقبل.

إن جديد سوريا في طلبتها. فطلبتها مستقبلها. وبالرغم من تعدد أصناف المدارس في سوريا ونزعاتها، يتفق الطلبة على نزعة واحدة وهي «الوطنية الصادقة» وإليك الشواهد.

عهد الفتية المقدّس

في الصيف الفائت احتفل المنتهون من مدرسة الأميركان في طرابلس الشام حفلة وطنية بحتة قطعوا فيها عهداً على أنفسهم أنهم لا يلبسون إلا الأنسجة الوطنية. وقد تعهد حضرة الوطني الغيور الشيخ صبحي الملك أن يستحضر لهم الأقمشة الوطنية من الشام على حسابه.

وقد ألقى في تلك الحفلة الأديب عفيف أفندي طنوس خطبة عن الاقتصاد الذي هو شعار صف المنتهين الثمانية عشر وأعلن ذلك العهد وأشهد الحضور عليه. وبعد إلقاء خطب أخرى ختمت الحفلة بنشيد وطني نظمه خصيصاً لهذا الغرض الأستاذ إبراهيم أفندي عطية. وقد عارضت المدرسة إنشاد هذا النشيد مخافة أن يحسب تعرضاً للسياسة. ولكن الطلبة اعتصبوا واحتجوا وأضربوا حتى أذن لهم بإنشاده.

فهذا مثل من الأمثلة على وطنية الناشئة الجديدة. والمهم فيه هو تعهد صف المنتهين بالتزام ليس الأنسجة الوطنية. وهذه الأنسجة لا تقل عن المنسوجات الأوروبية أناقةً ومتانةً وليست أغلى منها ثمناً. وربما كان فيها اقتصاد أكثر من تلك. وإذا راجت هذه الأقمشة استطاع ناسجوها أن يزيدوها اتقاناً وتسنى لهم أن يجعلوها أقل كلفة وأرخص ثمناً. ولكن يستحيل أن تروج إذا لم يقتد سائر الشعب السوري بهؤلاء الفتية الذين ضحوا بشهوة النفس للفرنجة، وقاوموا غريزة التقليد والتشبه واعتصموا بحبل الاستقلال النفساني. أليس مخجلاً أن يبقى الشيب مفتتنين ببهرجة الفرنج الفارغة الساحرة وينجو الشبان من فتنة الأزياء والتفرنج السالب حياة البلاد الاقتصادية؟

إن سوريا تدفع في العام على أقل قدير نحو مليون جنيه ثمن أنسجة صوفية ونحو مليون آخر ثمن أنسجة قطنية، ناهيك عن الأنسجة الحريرية ونحوها من المنسوجات المزخرفة. والمواد الأولية التي لهذه الأنسجة لا تزيد على نصف مليون ثمناً. فلو كان نصف هذه المنسوجات يصنع في البلاد لجنت منه على الأقل نحو ثلاثة أرباع المليون، وهي تشغل عشرين ألف عامل على الأقل. فتأمل. هذا

ناهيك عن الصناعات الأخرى. وسأعود في حين آخر إلى موضوع الصناعات في سوريا مكتفية الآن بهذه الإشارة.

فما أقدس عهد أولئك الفتية. وما أعق من لا يقتدي بهم حباً بوطنه.

الطلبة في الطليعة

دُعينا في دوما الجميلة لحضور تمثيل رواية «تسبا»، وأعجبنا أيما إعجاب إذ رأينا المكان غاصاً بالمشاهدين. وعلمنا في الحال أن طلبة المدارس العالية درسوا هذه الرواية وتمرنوا على تمثيلها في عطلة الصيف المدرسية بغية أن يرصدوا دخلها لإنشاء مولد كهربائي بقوة المياه المنحدرة، لأجل تنوير البلد. ولا يزالون يفكرون بمثل هذه الوسيلة لجمع نفقات هذا المشروع.

ثم علمنا أن هؤلاء الطلبة أنشأوا مدرسة صيفية لتعليم فتية البلدة الذين لم يتسن لهم الذهاب إلى المدارس العالية بعض المبادىء العلمية وتاريخ سوريا والمبادىء الوطنية، وتبرع أولئك الطلبة للتعليم مجاناً.

وفي ذات يوم رأينا جمهوراً من فتيات البلدة وغلمانها يشتغلون في إصلاح الطرق وتمهيدها فاستغربنا ذلك. وما لبثنا أن علمنا أن أولئك الطلبة قد استصرخوا أولئك الغلمان وساروا أمامهم للعمل في الطريق. وأغرب من ذلك أن هؤلاء الطلبة ما استنكفوا أي عمل بل كانوا يكنسون المدرسة بأيديهم كما كانوا ينقبون الطريق بمعاولهم لكي يفهموا الغلمان أن العمل مهما كان شاقاً أو وضيعاً ليس معرَّة.

أفلا ينتعش فؤاد الوطني حين يرى هؤلاء الطلبة الذين انصرفوا من المدرسة في عطلة الصيف لأجل الراحة وترويح النفس ما ضيعوا يوماً من عطلتهم هذه سدى، بل كانوا يعملون فيه عملاً وطنياً مفيداً ويعلمون إخوانهم بني بلدتهم أن العمل شرف وأن حب الوطن من الإيمان.

نعم. لقد رأينا في الناشئة الجديدة روحاً وطنية لم نعهدها من قبل، وروحاً أدبية راقية تناقض روح التناظر والتناحر التي كانت فيما مضى حتى اليوم تقتل الشرق.

فلا تشعر أن في الطلبة روح التعصب ولا روح التناظر ولا روح الحسد والغيرة،

بل بالأولى تشعر بروح الاتحاد والتآخي والتعاون. ومن أمثلة ذلك أن الطالب النابغ شارل أفندي مالك نجل الدكتور حبيب أفندي مالك من بطرام امتاز في مدرسة طرابلس وفي جامعة بيروت. فكان رفاقه يثنون عليه ويعجبون بنبوغه من غير أن تشتم منهم رائحة الحسد أو منه روح الفخر والكبرياء. فنحن نهنىء البلاد بالنابغ المتواضع وبالرفاق المخلصين.

هذه أمثلة قليلة على روح الشبيبة السورية الجديدة صادفتها عرضاً في سياحتي الصغيرة في شمالي لبنان. ولا ريب أن من يتسنى له أن يطوف في جميع أنحاء سوريا ولبنان لا بد أن يشاهد أمثلة عديدة لهذه النهضة الوطنية المفرحة المرجوة من الناشئة الجديدة ولا سيما من الطلبة. وما ذكرت الشواهد الآنف ذكرها تمجيداً لشخصية هؤلاء الأشخاص الذين وإن كانوا يستحقون التمجيد يستغنون عنه اغتباطاً بحب الوطنية ـ ما ذكرت هذه الشواهد إلا تزكيةً للرجاء القوي بأن مستقبل سوريا الذي بين أيدي ناشئتها سيكون وضاء الصبح القريب بإذن الله.

على أني أرجو القرّاء الكرام ألا يتوهموا إني قصرت هذا الرجاء على الطلبة والأحداث الناشئين فقط وقطعت الأمل من وطنية الشبان والكهول، بتاتاً لا. بل في الشبان والكهول عديد من المتوقدين وطنية وغيرة وبالطبع لهم عزيمة لم تبلغ إليها عزيمة الأحداث بعد. فهم وإن لم يكونوا كثيرين يفعلون كثيراً ويؤثرون كثيراً.

وطنية فعلة

إتفق أننا صادفنا على نهر كفرحلدا جماعة من العمال يشتغلون. فماذا عسى أن يفعلوا في النهر؟ وما فائدة عملهم؟ وتسنى لنا أن اجتمعنا ببعضهم في وقت الراحة من العمل، فسألت: ماذا تفعلون في النهر؟

ـ النهر يجنّ في فصل الشتاء فنحاول أن نعتقله في الصيف لنحفظ خير الأرض.

ـ كيف ذلك؟

ـ في الشتاء يفيض ويطغى على الأراضي المزروعة حوله فيدمرها. فنحن نحدد مجراه بأن نبني في ضفتيه حواجز تمنع طغيانه.

ـ على حساب من تشتغلون هذا الشغل؟

ـ على حساب الأهالي. وذلك الرجل المسيطر علينا هو الدكتور رشيد بك معتوق. وقد تبرع بإدارة هذا العمل بلا أجر. فيجمع أجرتنا من أهل البلد، وهو ينظم العمل ونحن نعمل مؤتمرين بأمره.

فاستغربت هذه النخوة الوطنية للدكتور معتوق بك. وكنت أشد استغراباً حين كنت أحادث هؤلاء الفعلة في المسائل الوطنية، فإذا بهم يفهمونها كما يفهمها كل غيور على وطنه. وبقليل من التحري فهمت أن الدكتور معتوق بك لا يسيطر على عمل العمال فقط بل يسيطر على عواطفهم أيضاً. وقد اقتبسوا منه كل مبادئه الوطنية واكتسبوا حماسته وغيرته. فما وسعني إلا أن أكون في جملة المثنين عليه. وفي مجلس واحد فهمت أنه من المتعصبين للحركة الوطنية.

ثم ما لبثت أن اكتشفت أن للدكتور معتوق بك مآثر وطنية مختلفة، فهو مصدر كل حركة وطنية في تلك الناحية فيضحي بوقته وراحته لأجل كل عمل وطني مفيد، ناهيك عن خدمه الجليلة في صناعة الطب. وفوق ذلك يعد كقاضي صلح في تلك الجهات، فما حدث شجار في بلد إلا تداخل بين الخصمين وأزال ذات البين. وكان في وسعه أن يهجر البلاد لا كما هجرها كثيرون سعياً وراء الرزق لأنه في غنى عن هذا السعي، بل طموحاً إلى المجد والفخر في البلاد التي تعرف قدر الرجال. ولكنه رأى أن الفخر وكل الفخر في الخدمة الوطنية فلزم وطنه.

هذه بضعة من الشواهد على ترعرع روح الوطنية في ناشئة سوريا الجديدة أتينا بها استبشاراً بالحياة الوطنية الجديدة المجيدة القوية في المستقبل القريب إن شاء الله.

نهوضاً وسيراً

فنهوضاً أيها الفتية الناشطون. نهوضاً إلى العمل للحياة الحرة. العبودية ليست حياة، والخنوع شر من الموت.

نهوضاً أيها الناشئة الجديدة. نهوضاً في طلب العز والمجد. إن الذلة شر من العذاب، والهوان أصعب من الجحيم.

نهوضاً أيها الطلبة النجباء. نهوضاً إلى بناء السعادة لكم وللأجيال المتعاقبة بعدكم. نهوضاً إلى العمل للاستقلال، إن الإتكال مفضٍ إلى العبودية والاعتماد على الغير مؤدّ إلى الوقوع تحت وطأة استبداد الغير.

إن الأرز الخالد يراقب أعمالكم حتى يسجلها في سفره الأبي، عزاً أو مهانة، فخراً أو معرة، مجداً أو خزياً. فحاذروا المهانة والمعرة والخزي.

إن آثار بعلبك وتدمر وجبيل وصيدا، بل آثار سوريا الكبرى كلها، تقدم لكم نماذج لمفاخر أسلافكم الفينيقيين ومن تعاقبهم من الأقوام التي عاشت حيث تعيشون. فلا تدعوا مجد الأخلاف أضأل سنى وأبهت بهاء من مجد الأسلاف.

صوت الشعب صوت الله

فأنتم أيها الطلبة كلمة الله للمستقبل، فلا تخفضوا صوت الله. أنتم رأس مال البلاد فلا تبذروه.

سيروا إلى الأمام والله يسير معكم.

أنتم دم الأمة الذي يجري في عروقها، وسوريا تحيا بكم وعلى رؤوسكم تشاد أركان نهضتنا الجديدة في أقاصي البلاد وأدناها حتى يصيح الجميع تحت راية الاتحاد:

«ليحيى الوطن».

آذار 1924

مشاهدات وحوادث وطنية في سوريا الجديدة

6. الحرص على سمعة البلاد أساس الاستقلال

قرأنا منذ أيام في جريدة «البلاغ» الغراء تحت عنوان «مصر وكيف صوروها» ما يأتي:

«تباع في المكاتب في مصر مناظر لمصر والمصريين وما وصلوا إليه من المدنية والحضارة. وبعضها ليس على شيء من الحقيقة بتاتاً وقد يحملها السائح معه عند عودته إلى بلاده فيطلع عليها أهله ومواطنوه فيصدقون ما يرونه بالعين أكثر مما يسمعونه بالأذن.

«وسأشرح باختصار بعض تلك المناظر فمنها ما يمثل السيدة المصرية فلاحة بسيطة جالسة على الأرض تحضن ولدها وترضعه من ثديها، ومنها ما يمثل عربة نقل يجرها حمار وتحمل نساءً وخلف العربة رجل حافي القدمين يحمل ماء ويسقي بعضهن ومكتوب في أسفل ذلك «وسائل النقل في مصر». وآخر هو منظر لقهوة حشاشين فيها عدد من الرعاع يحمل كل واحد في يده (جوزة) ومكتوب في أسفل ذلك «قهوة وطنية».

«وغيره منظر لمطعم هو عبارة عن قفص من الجريد وعليه طاولة وأمامه رجل يبيع للرجال والنساء الجالسين على الأرض ومكتوب في أسفل ذلك «مطعم وطني». وغيره منظر للأزهر الشريف من الداخل وفيه يرى الإنسان بعض الناس جالسين على الأرض وأقدامهم ممتدة أمامهم، ومكتوب في أسفل ذلك «الجامعة وطلبتها». وغير ذلك من هذا القبيل الشيء الكثير مما يراد به تصوير مصر بشكل زريء.

«فمن العار أن تترك مثال هذه المناظر تباع في مكاتبنا، ومن التقصير أن لا يقوم نفر من رجالنا المصورين ويصوروا حقيقة الحال ويعرضوا ذلك في المكاتب فيكونوا قد خدموا مصر خدمة ثمينة».

غبريال جرجس

برلين 4 فبراير سنة 1924 بجامعة برلين

نحن في نظر من لا يعرفنا

وقد أذكرتنا هذه الرسالة بحادثتين:

الأولى لما كان المرحوم أخي يصدر جريدة «الجامعة» في نيويورك دخل علينا ذات يوم وفدٌ من السوريين وفي يد أحدهم جريدة أميركية وقال: أنظر يا صاحب «الجامعة» ماذا تكتب فينا جرائد أميركا، وماذا ينسبه المرسلون الأميركان إلينا من المخازي التي نحن براء منها.

فتناولت الجريدة ودهشت إذ قرأت أن مرسلاً أميركياً نعرفه جيداً في سوريا عاد إلى بلاده لكي يجمع مالاً لتوسيع مدرسة معروفة. فألقى في أحد المجتمعات خطبة وصف بها السوريين في سوريا وصوّرهم لسامعيه قوماً في حالة من الجهل والغباوة والانحطاط يرثى لها، كقوله أنهم ينامون في خيام من القش وقليل منهم من يأكلون اللحوم وقليل من يستطبون، وأن الطبيب أعطى مريضة تذكرة وقال خذي هذا الدواء 3 مرات في اليوم، فقطعت التذكرة ثلاث قطع وأخذت كل مرة قطعة ـ إلى غير ذلك مما يدل على الانحطاط والجهل المطلقين.

وكان أولئك الوافدون يتأثرون شديد التأثر ويطلبون بإلحاح أن نكتب ضد ذلك المرسل ونرد الإهانة له، لأن انتشار خطبته على هذا النحو في الجرائد الأميركية يضر بسمعة السوريين في أميركا ضرراً بليغاً. أما نحن فعلمنا أن الكتابة في الجرائد العربية بهذا الشأن تأثيرها كتأثير من يدخل إلى مخدعه ويقفل بابه ويسخط على خصمه البعيد الذي لا يسمع ولا يرى. فلا بد من الكتابة في جرائد الأميركان أنفسهم. ولما كنا نعرف ذلك المرسل، كتبنا له نعاتبه في الأمر بشدة ونبين له سوء وقع ما نشرته الجرائد من خطبته. فزارنا واعتذر بأن الجرائد الأميركية تبالغ وتغالي، وتنصل مما كتبت. فأحرجناه أن ينشر احتجاجاً على كل ما كتبته الصحف وأن ينكر ما نسب إليه من القول المستنكر عن السوريين، ففعل.

هل نحن بشر؟

الحادثة الثانية: بعد ذلك الحين دعتني إبنة خالتي في مدينة أتوا في أوهايو لزيارتها. وهناك تعرفت بمعارفها ومنهم قسيس هذه المدينة وزوجته. ودعتني زوجة القسيس للشاي عندها. وفي خلال الحديث علمت أني تخرجت في مدرسة البنات الأميركية في طرابلس الشام فاستغربت كل الاستغراب. وأنا استغربت استغرابها أيضاً لأني لم أعهد في ذلك أمراً مستهجناً. وسألتها في سبب ذلك فترددت في الكلام. ثم قالت: من غرائب المصادفات إن عندنا اليوم اجتماعاً عمومياً موضوع الكلام فيه سوريا ومدرسة طرابلس على الخصوص، ولا ريب أن القسيس يسر جداً أن يقدمك لحاضري الاجتماع كنموذج لخريجات هذه المدرسة. فقلت: وأنا أحب أن أجتمع بالقوم وأرى ماذا يقولون في بلادي.

فلما انعقد الاجتماع تكلم القسيس عن أعمال المدرسة وفضلها التهذيبي إلى غير ذلك مما يقتضيه المقام. ثم أشار إليّ وعرَّف الحضور بأني خرِّيجة هذه المدرسة وأباح لهم أن يسألوني ما يشاؤون عن سوريا، الأمر الذي ما كنت أحسب حسابه. بل ما كنت أحسب حساب أسئلتهم الباردة التي كادت تخرجني عن دائرة خلقي. وهي من هذا النمط:

ـ ماذا يلبس السوريون؟

ـ ماذا يأكلون؟

ـ هل يسكنون خيام القش؟

ـ هل يأكلون اللحوم نيئة إلخ إلخ؟

وما لبثت أن أدركت أن القائم في أذهان هؤلاء القوم مما كتبه بعض سواحهم ومرسليهم لأغراض مختلفة أن السوريين قوم همج من أمثال سكان أفريقيا. فتداركت أسئلتهم وقلت: إني أستغرب أسئلتكم هذه، بل أستغرب بالأكثر أن تعتقدوا أني كنت همجية كما تتصورون قومي، وأن مدرستكم صنعت أعجوبة بأن جعلتني سيدة لائقة للاجتماع معكم. فأود الآن أن تعلموا أن أية طبقة في سوريا تأكل كما تأكلون وتسكن في المنازل المبنية وتلبس الملابس النظيفة، والطبقة العالية

تسكن قصوراً مفروشة فرشاً فاخراً تقتنون مثله هنا وتدفعون ثمنه غالياً. وأفراد هذه الطبقة متعلمة عصرية بكل معنى الكلمة. والفرق بيننا وبينكم أن لكم حكومة منكم وفيكم ولكم. وأما حكومتنا فحكومة ملكية مطلقة مستبدة قائمة عقبة في سبيل تقدمنا ونجاحنا. ولكنها لن تدوم طويلاً إن شاء الله بل يقلبها الأحرار ويمهدون سبل الرقي لأهل البلاد. وسيقوم عندنا وشنطون آخر ويحرر سوريا إلخ.

فانقلبت نظريات الحاضرين بعد هذا الكلام، وجعلوا يتهامسون ولم يعودوا يجسرون أن يسألوني سؤالاً قط بل صاروا يتحفظون في أحاديثهم معي. وأظن أن مقالي الصغير هذا أفسد على القسيس الغرض الذي لأجله عقد الاجتماع لأنه كان يريد أن يجمع إكتتاباً للمرسلين في سوريا بحجة أن الأهالي في ليل دامس من الجهل والهمجية وأن حالتهم الاجتماعية ترثى لها.

فنحن مع اعترافنا بجميل الرسالة الأميركية العظيم، نكره أن تستجدي هذه الرسالة الأموال بهذا الأسلوب الشائن الذي ضر جداً سمعة البلاد. وأصبح في ذهن الأميركان وغيرهم من أهل الغرب صورة قبيحة عن السوريين بل عن الشرقيين جميعاً بسبب ما يذيعه المرسلون والسياح من الأخبار السيئة وما ينشرونه من رسوم وكتابات على هذا النحو.

عدونا من يسوء سمعتنا

نحن الآن في دور البنيان والتعمير والتجديد في مصر وسوريا وسائر البلاد العربية التي نود اتحادها وتضامنها. ويهمنا جداً أن تكون سمعة البلاد كلها حسنة من كل وجه، والعمل لتحسين هذه السمعة يعدّ من أهم الأعمال الوطنية الشريفة. وكل من يعمل عملاً مسوّئاً لسمعة البلاد يعد عدواً للأمة شديد الأذى لها.

لذلك استنكرنا في العام الماضي كل الاستنكار أن يمثل الطلبة السوريون في حفلة يوبيل جامعة بيروت وتنصيب الرئيس الجديد قهوة بلدية وعرساً بلدياً ولا سيما لأننا نعتبر الجامعة منارة سوريا العقلية ومجد سوريا الجديدة، فنود أن يمثل فيها كل مجيد وفخري. فاستنكرنا ذلك لأنه ليس في هذين الأمرين فخر لنا وهما يتلاشيان شيئاً فشيئاً من عاداتنا وأزيائنا. ولذلك يضرنا أن يقوم في أذهان

الأغراب أنه ليس عندنا من المحاسن والمفاخر ما نمثله أفضل من عرس بلدي قديم الطراز وأجمل من قهوة بلدية. بل قد يتوهم الغريب أن هذه هي أعراسنا التي نفرح فيها ونباهي، وهذه هي قهواتنا التي نجتمع فيها. ولا بدع بعد ذلك أن يعود إلى بلاده ويكتب في صحفها أوصاف أعراسنا وقهواتنا على هذا النحو. ولا غرو أن ينقل رسومها هكذا تأييداً لقوله، والناس مولعون بمشاهدة كل غريب مستهجن.

فلو مثل الطلبة السوريون أثراً تاريخياً قديماً لتخلصوا من وصم البلاد بعادات قديمة أصبحت مستهجنة ولم يبق منها إلا أثارها. ترى هل الأعراس الآن في سوريا ولبنان كما مثلها الطلبة في حفلة الجامعة؟ أظن لو طفت القرى الصغرى ولا أقول المدن، هيهات أن تجد عرساً كذلك. بل كثيراً ما تجد في القرى والضياع من معالم المدنية من منازل ورياش وأزياء ملابس إلخ ومن أعراس وحفلات إلخ ما يضارع ما نراه في أرقى مدن أوروبا.

ولما كنا في دوما (لبنان) دعينا لحفلة زفاف حضرة الأديبة المهذبة أليس كريمة الوجيه النطاسي الدكتور سليم بك بشير رئيس البلدية إلى الشاب النشيط الأديب الخواجه وديع غنمه أحد كبار التجار في البرازيل.

وكنا نتوقع أن يكون العرس كما كانوا يمثلون الأعراس في سوريا ولبنان. على أننا أعجبنا أيما إعجاب إذ رأينا أن كل شيء في ذلك العرس كان على آخر طراز عصري من حيث الملابس والعادات والولائم والحفلات الرسمية والدعوات إلخ. كما تراه في أعظم البلاد تمدناً وعلى غاية من الهدوء والأناقة وحسن الذوق والترتيب.

فإذا كانت هذه هي حفلات الأعراس عندنا الآن، فهل نمثل على مرأى الأجنبي أعراس أسلافنا القديمة التي لم يبق إلا أثرها سواء كانت حسنة أو خشنة؟ حسبنا أنها مستهجنة في عصرنا هذا.

أهمية السمعة في تعمير البلاد

إننا نهتم كل الاهتمام بأن نجعل لبنان بل كل سوريا مصيفاً ومزاراً للمصطافين وللسياح من كل بلاد. ويسرنا أن أهل الرأي والعمل في سوريا قد تنبهوا لهذا المشروع وشرعوا يعقدون الاجتماعات للنظر فيه.

يا ترى هل حسبوا حساباً للسمعة وأهميتها في هذا الأمر؟ مهما بذلنا من الجهد ومن المال ومن المساعي والاستعدادات لهذا المشروع، فإذا لم يكن في طليعة أعمالنا تحسين سمعة البلاد من كل قبيل فكل أعمالنا مخفقة.

إن تحسين السمعة يقوم بتحسين كل شيء في البلاد بحيث يعود الغريب راضياً مسروراً مثنياً. وهذا يستلزم أن يجد الغريب كل شيء جيداً وجميلاً ونظيفاً وهنيئاً، وأن يجد المعاملة لطيفة عادلة ومملوءة من العواطف الرقيقة والشريفة والأخلاق الكريمة. فأقل شيء من الطمع والخشونة أو الاحتيال أو الخساسة أو القذارة يضيع الكثير من سمعة البلاد ويصعب مهمة استرداد السمعة الحسنة.

في سياحتنا الثانية في لبنان، اتفق أن سائق أوتوموبيلنا كان قد اطلع على شكوانا من زميله الذي كاد يدهورنا برعونته في السياحة الأولى، فعاتبنا في الشكوى قائلاً: ألأجل شوفير واحد أرعن تذمون جميع الشوفيرية؟ فقلنا له: لم نذم شوفيراً قط وإنما روينا حكاية الشوفير الذي كاد يدهورنا بسبب طيشه. وإنما هي سنة السمعة: بجريرة فرد يتأذى الجميع. فلكي تستردوا السمعة الحسنة يجب أن لا يكون فيكم سائق أرعن أو طائش كذلك لأن وظيفتكم تستلزم الانتباه والحذر والعناية التامة. فهذا السائق كان محقاً بعتابه ونحن كنا محقين بشكوانا «والسمعة» محقة بأن تتألم.

في ذات ليلة طرق فندقنا طارق في منتصف الليل خلافاً لعادة الطارقين. ولصغر الفندق استيقظنا على حركة استقبال الضيف الجديد. وفي الصباح سألنا ما خبر هذا الطارق الليلي، فعلمنا أنه كان في فندق في بلدة أخرى ولم يستطع النوم من البق فاضطر أن يهجر البلدة في الليل. وكنا على أهبة الانتقال إلى تلك البلدة فعدلنا تحايداً لمثل ما أصاب ذلك الضيف الجديد. وقد يكون ذلك الضيف مبالغاً أو قد يكون أهل الفندق قد نظفوا فندقهم بعد هجران ذلك الضيف له. ولكن لما كان المصطاف أو السائح لا يتكلف التحري ويتخذ دائماً الجانب الأمين لا يقبل على ذلك الفندق المشبوه إلا بعد أن تتواتر الشهادات بحسنه. فشهادة واحدة بقبحه كافية لأن تنفر الناس منه. ولكن استرداد الثقة به يستلزم تواتر الشهادات الحسنة فيه.

ومن حسن الحظ أن في سوريا وفلسطين كثيراً من الفنادق التي تفاخر بها البلاد لأنها تكسب البلاد سمعة حسنة جداً عند السياح والمصطافين. نذكر منها بكل فخر وثناء لوكندة نصار في حيفا. فإنها تعد فيما عدا الضخامة في صف الطبقة الأولى من الفنادق التي تليق لأعلى طبقة من الناس. والسواح الذين يأتون من أقاصي العالم لزيارة فلسطين يعترفون بأناقة كل شيء فيها ونفاسة أثاثها ورياشها ونظافتها وأبهتها واشتمالها على جميع أسباب الراحة على آخر طراز، ناهيك عن حسن الخدمة فيها من كهرباء وحمامات وتلفون إلخ. نقول ذلك عن اختبار شخصي إذ وجدنا في هذا الفندق كل وسائل الراحة والرفاهة وحسن الخدمة.

ولا نعتقد أن أعيان أوروبا وأميركا وأغنياءها يجدون وجهاً للشكوى من هذا الفندق. لذلك نعد فندقاً كهذا فخراً لفلسطين وسوريا كلها وعاملاً من عوامل تحسين السمعة للبلاد وجاذباً قوياً من جواذب الأجانب إليها.

ومثل فندق نصار فندق سنترال لحضرة نجيب أفندي شقير في بيروت. وهذا مع كبره واتساعه وترامي أجنحته إذا طفت فيه وفحصت كل غرفة بل كل زاوية فيه وجدته على غاية من النظافة والترتيب والأبهة كأنه فندق جديد أنشىء في هذا الشهر. وكذلك فندق رويال في طرابلس يعد من رتبة هذين الفندقين. ولذلك ترسخ في ذهن الأجنبي الذي ينزل في أحد هذه الفنادق صورة حسنة عن البلاد عموماً. ويعتقد النزيل أن جميع فنادق البلاد من هذا الطراز. ولكنه إذا جال في البلاد فنخاف أن تعتريه الخيبة ويكاد ينسى محاسن هذه الفنادق. وإنما إذا كان السائح أو المصطاف يرى مثل هذه الأناقة والنظافة والراحة وحسن المعاملة حيثما جال في سوريا ولبنان، فلا يسعه حين يعود إلى قومه إلا الثناء الذي يكون مغنطيساً لهم يجذبهم للسياحة في بلادنا. وهكذا دواليك الراجع يخبر القادمين. وإذا ذاعت السمعة الحسنة عن البلاد على هذا النحو تدفقت أسباب الخير عليها.

فما أعظم تأثير السمعة.

وما قلناه من استعداد الفنادق، نقول مثله عن المطاعم وعن وسائل النقل، وعن السيطرة على المتنزهات وعلى أسواق البيع والشراء وعلى كل ما لا بد فيه من

الاحتكاك بالضيف ـ كل ذلك لا بد فيه من حسن السمعة المؤسسة على الجودة الحقيقية. وبلا سمعة حسنة لا يرجى للبلاد خير ولا نجاح.

مقابلة في جمركين

ومن بشائر تحسين السمعة في سوريا أننا صادفنا في جمرك بيروت في هذه الرحلة تسهيلاً لم نعتد مثله في تاريخ هذا المرفأ. ولا ندري هل كان ذلك حسن اختيار لموظفي الجمرك من قبل السلطة الإدارية في البلاد أو أن حظ هذا المنصب سعيد في هذا العام بوجود حضرة الفاضل حبيب بك أبو الروس فيه وحضرة الأديبة الآنسة شفيقة حبيب في قسم التفتيش فأنهما حسنا الفراسة يندر أن يخطئا في الحكم على الأشخاص، وهم وسائر عمال الجمرك يعاملون القادمين بغاية اللطف والرقة واللين. والظاهر أنه حيث توجد المرأة عاملة يتغلب حسن المعاملة.

ولما كانت بضدها تتبين الأشياء، أذكرتنا المعاملة اللطيفة في هذا الجمرك بقباحة معاملة طبيب الميناء في الإسكندرية الذي عليه أن يفحص الركاب قبل نزولهم في الباخرة.

الباخرة تمخر من الثغر الإسكندري الظهر تماماً، والعادة أن الركاب يتوافدون إليها منذ الصباح حتى يجتازوا الإجراءات الرسمية قبل السفر على مهل وبلا مداهمة. وهذا الطبيب لم يحضر إلى الميناء حتى الساعة 11 ونصف أي قبل رحيل الباخرة بنصف ساعة، والناس من أطفال ونساء وعجائز فضلاً عن رجال وشبان قضوا أكثر من ساعتين وقوفاً يترقبون تشريف ذلك الطبيب البارد وهو لا واجب عليه في ذلك النهار غير فحص الركاب. والظاهر أنه كان يعلم أن الراحلين في تلك الباخرة إلى موانىء سوريا شرقيون وهو أجنبي فلا يستحقون عنده عناية ولا سيما إذ يفهم أنهم يتذمرون صاغرين، وإلا لو كانت الباخرة راحلة إلى أوروبا بركاب إفرنج لما جسر أن يبطىء دقيقة لأنه يعلم أنهم لا يسكتون على إخلاله بالواجب قط.

فمعاملة هذا الطبيب كانت نتيجة سوء السمعة. أي نعم أن سوء السمعة صوّر له ولأمثاله إننا لسنا من طينة تستحق أن يكلف نفسه القيام بالواجب. أليس في ذلك إيلام لعواطفنا؟

المعاملة العمومية

ولا ينبغي أن يقتصر حسن السمعة على المواضع الرسمية كالجمرك ونحوه، بل يجب أن يتناول كل نوع من المعاملة.

خطر لكثيرين أن إعلان مصايف لبنان وسوريا وأثارهما في أوروبا وأميركا بواسطة الجرائد وغيرها يجعل إقبال السياح عظيماً. وقد تباحث بعض ذوي الشأن في ذلك، وربما هموا في تنفيذ هذه الفكرة.

ولا ريب أن نشر الإعلانات يزيد إقبال السياح. وبقدر ما ينفق على الإعلانات لهذا الغرض يشتد الإقبال. ولذلك نقول نحن: حاذروا أن تنفذوا هذه الفكرة الآن. نعم حاذروا لئلا يكون رد الفعل هائلاً فيقتل المشروع قتلاً. نقول حاذروا الآن لأن البلاد ليست حتى اليوم على استعداد تام لقبول ضيوف أميركا وأوروبا. إن مثل فندق سنترال في بيروت وفندق نصار في حيفا قليل جداً في البلاد. فإذا انشرح السائح صدراً في هذا أو ذاك فنخاف أن ينقبض نفساً في غيره.

يجب أولاً أن نستعد لراحة السياح وسرورهم الاستعداد التام قبل الإعلان في جرائد أوروبا وأميركا. يجب أن نجتهد في تحسين السمعة من كل قبيل حتى متى وافى السائح أو المصطاف وطاف في البلاد عاد وهو يقول: صحيح. رأينا كما سمعنا وكما قرأنا في الإعلانات.

ولذلك نتمنى أن تؤلف لجنة دائمة في سوريا من أصحاب النفوذ والشأن وظيفتها الاهتمام في تدريب الأهالي وذوي الأموال على الاستعدادات اللازمة لتهيئة البلاد للاصطياف والسياحة ولحصر الإعلانات والإذاعات المحلية في الفنادق والمطاعم والبلاد المستوفية جميع رغائب السياح والمصطافين، والضرب على أيدي الذين بسوء تصرفهم يسوّئون سمعة البلاد حتى لا ينخدع الغريب ويعود ساخطاً. ثم لهذه اللجنة أن تسعى جهدها في عقد شركات للأعمال الكبيرة اللازمة للبلاد ولمساعدة هذه الشركات وتسهيل الأمر لها. وسنعود إلى هذا الموضوع في حين آخر.

أيار 1924

مشاهدات وحوادث في سوريا

أسوريا: حتى متى هذا السكون؟

7. اللاوطنية الغالبة - لا اعتدال في الوطنية

لما كنا في مدة الحرب نسمع أخبار الظلم في سوريا، كنا نقول: مساكين السوريون ما أصبرهم على البلايا! يتحملون هذا الضيم بسكون وهدوء. وقد سمعنا من أخبار ضيمهم ما لا يكاد يصدق، فكان في فظاعته مضرب المثل. ولم يقم من الشعب شخص واحد يقطع خيط ذلك السكون ويرفع صوته بكلمة تذمر أو شكوى. وكنا نعلل هذا السكون المطلق بقولنا: إنه شعب بسيط ساذج ليس له قوة ولا معرفة يمكنه بها أن ينقذ نفسه.

ثم انتهت الحرب وانجلت عن نتائج الويلات التي حلت بالبلاد. فالبيوت تدمرت والأعراض انتهكت والنساء ترملت والرجال قتلوا أو نفوا والشعب برمته صامت خانع، فكأن البلاد كانت خلواً من السكان.

إنقضى ذلك الظلم وانتهى ذلك الجور، وخفقت الراية المعروفة براية الحرية فقلنا: حانت الساعة وجاء اليوم المنتظر يوم الفرج يوم ينكسر عمود السكون. فإذا بنا نرى جيوش المطامع تهجم وكل من كان ذا مطمح برز للميدان. وإذا النفوس لا تزال في ذلها والقلوب في صغارها والشعب في صمته لا يتكلم، ونحن نفسر هذا بقولنا: إن البلاد، والحمد لله، في أمن وسلام لم تشهد مثلهما في حياتها ـ أجل إن مدافن البشر كلها دور أمن وسلام، فإذا كان السكون المطلق يعد أمناً وسلاماً فبئس حياة لا يكون سلامها إلا موتاً.

أسوريا! إلى متى هذا السكون، بل هذا الموت؟

بحثنا عن عيوبنا تلطيف لفضيحتنا

اكتشف بكتريولوجي أن مياه بلده الصحي ملوث بميكروب مرضي خبيث. فإذا أذاع اكتشافه هذا جفل الأغراب الذين يقصدون إلى بلده للاستشفاء بمياهه المعدنية وانقطع مجرى الرزق عن أهل البلد الذين يتعيشون بما يكتسبونه من معاملة أولئك الضيوف. وإن بقي كاتماً هذا السر تعرض هؤلاء الضيوف لخطر المرض. على أن الذمة قضت عليه أن يفشي السر مهما ساءت العقبى على بلده.

ربما كان هذا موقفي الآن تجاه أمتي السورية. فإني أرى أن حديث مشاهداتي يسوقني بالرغم مني إلى موضوع ممقوت يمكن أن يحسب فضحاً لعيوب فينا أو بالأحرى تشخيصاً لأمراض قائمة في حياتنا الاجتماعية. فإن أغضينا النظر عنها وأغفلنا أمرها أودت بحياتنا، وإن بسطناها كنا نفضح أنفسنا بأنفسنا. ولكن الذمة والغيرة الوطنية تقضيان علينا باحتمال الفضيحة بغية الاستطباب من الأمراض.

وإذا كان الطبيب المعالج يشعر أنه يخدع عليله إذا كتم عنه خطر مرضه لئلا يستخف العليل بنصائحه، فجدير بنا نحن أن نبحث عن أمراضنا ونتحققها حتى نعلم أخطارها فنتوقاها. لذلك أشعر أن اقتصاري على بيان ما في البلاد من وطنية ونهضة وآمال بالشبيبة ورجاء بالناشئة وسكوتي عما فيها من عيوب ونقائص وكل ما هو من باب اللاوطنية، يعدان خداعاً أو تضليلاً بل قد يحسبان عليّ تمليقاً ورياءً.

فالحقيقة يجب أن تقال مهما كانت جارحة. ولا سيما لأننا نعتقد أن السواد الأعظم من أهل البلاد يحسنون الظن بما نكتبه من هذا القبيل.

مرض الزلفى

ويسوؤني جداً أن أقول إن مظاهر اللاوطنية وشواهدها كثيرة في البلاد، بل هي غالبة على مظاهر الوطنية. فأجملها في بعض مواضيع رئيسية. وربما عدت الزلفى والتملق والرياء من أهم هذه المظاهر اللاوطنية.

ومن أمثلة ذلك أن بلدية إحدى القرى أو المدن الصغيرة ـ ولا نسميها ضناً بكرامتها ـ تجمّع في صندوقها مبلغ من المال. فتباحث أعضاؤها في وجه لإنفاق

هذا المبلغ واقترح بعضهم أن ينفق على إنارة البلدة. وعارض البعض الآخر وطلب أن يبقى المبلغ في الصندوق ينفق على الزينة يوم يشرف الحاكم البلد بزيارة. وأخيراً تغلب حزب الزينة على حزب الإنارة.

فهل وطنية أردأ من هذه؟ يؤمن أفراد على مصالح البلد فيبددون مال البلد في سبيل تبييض وجوههم أمام الحاكم تزلفاً إليه واستعطافاً لرضائه عليهم شخصياً. ما هذه «لا وطنية» فقط بل هي خيانة.

وأتأسف أن أقول إن اندفاع الأهالي في التزلف والاستعطاف للحاكم بكل وسيلة ولو دنيئة لا مثيل له في بلد في العالم. وإسرافهم في الزينة والحفاوة لهذا الغرض أثقل جداً مما تحتمله حالتهم الاقتصادية. والغريب أنك فيما تراهم يشكون من سوء الحالة الاقتصادية العمومية وكساد التجارة ووقوف الحركة، تراهم ينفقون بإسراف في سبيل تكريم الحاكم وأصحاب النفوذ والحفاوة بهم.

هذا ناهيك عن التزلف «الثعلبي» الذي ينزح ماء الحياء من الجبين. فقد رويت لي حكايات من هذا القبيل لا تكاد تصدق لما فيها من بذل الشرف وقتل الإنفة وإذلال عزة النفس.

فبين تزلفنا وتملقنا تتضعضع حقوق الأمة والبلاد وتذهب قواها هدراً وتستحكم فيها أيدي الأجنبي. ومن ثم نصيح ونصخب أن الأجنبي اغتصب بلادنا.

معول البذخ الهادم

وربما عد الإسراف المستحكم الآن في البلاد أفظع «لا وطنية» من الزلفى. فلقد دهشني البذخ الذي شاهدته فيها حتى يتراءى لي أن البلاد في غنى ويسر يفوق غنى وادي النيل بل غنى أميركا، وأن الخير يتدفق عليها تدفق البحر على البر. وعهدي بسوريا خارجة من الحرب أفقر من الفقر ـ فعلى مَ هذا البذخ إذاً؟ ومن أين المال لهذا الإسراف والناس يهاجرون البلاد لضيق الحال فيها؟

ولست وحدي مدهوشة من جراء هذا البذخ بل الإفرنسيس الذين يقيمون الآن في البلاد مدهوشون كل الدهشة منه، لأنهم مهما بلغت سعتهم ووفر الخير

لهم في بلادهم أو خارجها لا يسرفون هذا الإسراف. ولذلك يظنون أن في البلاد أموالاً كثيرة. وربما كان هذا الظن من أسباب تثقيل الضرائب وإغداق الماهيات الوافرة للموظفين والموظفات أيضاً.

والراجح في ظني إن لهذا البذخ المجاوز الحدود سببين أساسيين: الحرص على الكرامة والنفوذ بواسطة هذه الفخفخة الفارغة. الثاني تفشي داء التشبه بين القوم.

أما الأول فيدل على نقص كبير في الشخصية الحقيقية إذ يحاول الباذخون أن يكملوه بهذه المظاهر المموهة. وأما الثاني فيدل على ضعف نعرة الاستقلال الشخصي في الأنفس. فكأن الشخص الواحد لا يعتقد بصحة رأيه ولا بحسن ذوقه ولا بحقيقة مركزه فيقلد غيره، وأخيراً تنتهي سلسلة التقليد والتشبه باقتباس أزياء الأجانب وعاداتهم من غير تمييز بين صالحها وطالحها. وأرجو من القارىء والقارئة أن يعذروني إذا قلت أن الغلو في هذه التشبه «ولدنة أطفال» لا تعقل رجال.

ليست القيمة فيما نلبس

أخاف أن أتمادى في الكلام عن البذخ الذي في سوريا الآن وأشغل القارىء به وحده لأن الأهالي أغرقوا فيه إغراقاً تجاوز حد المعقول، إغراقاً لا يتفق قط مع حالة البلاد الاقتصادية السيئة بل هو مفض بالبلاد إلى الدمار لا محالة لأنه يستنفد البقية الباقية من الثروة فيها فضلاً عن المال الوارد إليها من المهاجرين في أميركا وغيرها.

فالذي ينال من أهله المهاجرين مالاً ينفقه بلا أسف لأنه لا يتعب فيه، ولعله يظن أن مرسله حصله بقليل تعب. والذي ليس له مورد من أميركا يبيع عقاره أو يستدين راهناً عقاره. أضف إلى ذلك أن هذا المال يبذل كله على السلع والبضائع الأجنبية ويندر جداً أن يبذل منه شيء ثمناً لمصنوعات البلاد. ثم إن الكسل الضارب أطنابه في البلاد يتمم آلة الهدم. فهل رأيت ظروفاً أردأ من هذه الظروف؟ وعوامل أفعل في التدمير من هذه العوامل؟ وأي «لا وطنية» كهذه؟

ولا أدري كيف دخل هذا الغرور إلى البلاد، لأني لا أدري أمة من أمم الأرض مهما عظمت ثروتها تحسب هذا التمادي في البذخ ولا سيما في اللبس يرفع مقام

الأمة أو يزيد قيمة أفرادها. فالفرنساوي أو الإنكليزي أو أي أوروبي إذا اطلع على هذه الحالة وعرف الحقيقة فيها يضحك علينا هازئاً. فحبذا أن تعرف سيداتنا ويعرف شبابنا أيضاً أن الإسراف في اللبس والتبرج لا يزيد قيمة الأفراد ولا قيمة الأمة شيئاً، بل هو بذل ذاهب سدى وذاهب بحياة البلاد. فهم كدودة القز يميتها الحرير الذي تكسو نفسها به.

وهو معلوم أن الغرض من التأنق في اللبس والزينة والتبرج زيادة التجمل. ولكن بعد طول ملاحظتي لهذا الأمر لم أجد أن اللبس الأنيق الفاخر النفيس يزيد المرأة السورية جمالاً، فهي بفضل طبيعة الإقليم ممتلئة عافية وصحة ونضارة. وقد وردّت الطبيعة خديها وأكحلت مقلتيها وزججت حاجبيها وجعلت قوامها عادلاً وبدنها عبلاً...

فليس قصدي أن أدعو السيدات إلى الأزياء القديمة ولا إلى الأزياء البسيطة جداً ولا إلى الشذوذ عن الأزياء الشائعة في العالم. وإنما أود أن أذكر سيداتنا وشبابنا أن المرأة (وكذلك الشاب أيضاً) يمكنها أن تقتبس الأزياء الشائعة بلا غلو في الزخرفة والزركشة وبلا تهور في اقتناء الثمين منها ـ تستطيع أن تفعل ذلك من غير أن ينقص شيء من جمالها أو من قيمتها، بل بالعكس يزداد جمالها وأدبها وقيمتها في اعتقادي.

وماذا يمنع سيداتنا أن يبتدعن زياً خاصاً بالشرق يتوسط بين الأزياء الشرقية والأوروبية وتلبق له المنسوجات الأهلية، فتزدوج الفائدة الوطنية وهي الاقتصاد والاستغناء عن الغرب.

تداركوا صناعة البلاد قبل موتها

ولقد شاهدت في البلاد منسوجات حريرية وصوفية وقطنية أيضاً تصلح جداً للسيدات والرجال وتليق لأي الأزياء، ولها مزية المتانة فضلاً عن مزية الرخص. فالإعراض عنها والتهافت على المنسوجات الأجنبية ليس أنه «لا وطنية» مخجلة فقط بل هو غرور بالغ إلى حد الجنون.

وما يقال عن المنسوجات يقال أيضاً عن كثير من المصنوعات الأخرى من

أحذية وأثاث ورياش إلخ. والعكوف على هذه المصنوعات الوطنية لا يحتاج إلا لقليل من تهوس بعض الوطنيات المعدودات قائدات حتى إذا ظهرن في لبسهن وفي رياشهن بالمنسوجات والمصنوعات والأزياء الوطنية أصبح ما ظهرن به «موضة» وما غايره شاذاً مخالفاً للمألوف. أفلا يوجد في البلاد بضع منهن يقدمن هذا الإقدام مرة فقط؟ والعبرة الخطوة الأولى.

في البلاد صناعات نافعة جداً وتغني عن كثير من المصنوعات الأجنبية التي أصبحت كالعلق تمتص الآن دم حياة البلاد. ولكنها واأسفاه أصبحت كاسدة بل أغلقت مصانعها ولم يبق إلا آثارها. فكان كسادها سبباً في ضيق حال العمال ومهاجرتهم البلاد مئات وألوفاً.

على أن إحياء هذه الصناعات يستلزم أمرين ليس أسهل منهما على أهالي البلاد إذا حلت فيهم الإرادة محل الغرور: الأول الامتناع ما أمكن عن المصنوعات الأجنبية والإقبال على المصنوعات الوطنية حتى ولو كان في هذا شيء من التضحية ـ ولو تعرفون كم يضحي الإنكليز والإفرنسيس والألمان إلخ مثل هذه التضحية حباً بوطنهم.

الثاني أن يهتم المتمولون والتجار في البلاد بإحياء هذه الصناعات بتنظيمها وبتثمير المال فيها.

بهذين الأمرين تشفى البلاد من فقر الدم الذي استحكم فيها وكاد يسل روحها من جسدها. هذه أعظم وطنية تظهر بها البلاد. وبهذه الوطنية تشرى البلاد أول شراء.

عالجوا مرض الكسل

وقد أشرت فيما تقدم إلى الكسل الذي جاء على الإسراف والتهافت على المصنوعات الأجنبية مكللاً لهامة إله التدمير. أجل إن هذا الكسل أو التقاعد عن العمل لغريب أمره في سوريا التي عرف أهلها بالنشاط والهمة والنخوة. والأعجب أن يصبح هذا الكسل داءً عقاماً فاشياً في البلاد كأنه الوباء.

على أن سببه واضح وهو قلة الأعمال بسبب كساد الصناعات والمتاجر أيضاً.

والكسول يعدي جاره أو صديقه كسلاً ويلهيه بلهوه عن العمل حتى متى فرغت يد العامل من المال بتاتاً ولىّ وجهه باب المهاجرة الواسع ـ وهو باب خراب البلاد.

فعلاج هذا الداء ليس في أيدي الكسالى، إذ لا علاج في يد مريض، بل هو في يد المتمولين في البلاد من ذوي أملاك وتجار. وإذا كان هؤلاء المتمولون لا يهتمون بمعالجة هذا المرض ـ مرض الكسل أو العطلة ـ من قبيل الوطنية التي تستغيث بهم أولاً، فعليهم أن يهتموا من قبيل مصالحهم الخصوصية. لأنه إذا استمرت الأيدي العاملة تهاجر البلاد كلما نضبت من العيش، أصبحت أملاك الأغنياء المالكين بلا عمال يشتغلون فيها وكسدت حاصلاتها إذ قل من يستهلكها. وكذلك أصبحت متاجر التجار هباءً لأن جانباً من مروجي حركة الأخذ والعطاء نزحوا. فعمران البلاد يهم المتمولين والملاك أكثر مما يهم العامة. وتقاعد هؤلاء المتمولين يجر الخراب عليهم أولاً.

فترى مما تقدم بكل أسف أن داء الكسل مستحكم بكبرائها قبل صغرائها. والكل لاهون في ترفهم وقصفهم وبذخهم وقمارهم وطربهم ومرحهم كالمحموم الذي جعلته الحمى يهذرم ويهذي ويطفر مرحاً ظاناً أنه في فرح وهو على شفا الخطر من الردى.

سكون قادة الأمة

لقد تألفت شركتان أو مصلحتان للنقل السريع بالسيارات بين سوريا والعراق. أليس مخجلاً أن تكون إحدى المصلحتين إنكليزية والأخرى فرنساوية، وأولئك المتمولون السوريون لاهون بمفاخرة بعضهم بعضاً بالقصف والترف كما تفاخر الزيزان والنملات بالقصائد؟ فقد يمرُّ ربيع الخير فتجد الزيزان أنفسها خالية من زاد الخريف والشتاء، فإذا ذهبت إلى النمل تستجدي منها أو تستعير طعاماً قالت لها: كلي من القصائد التي كنت تغنينها في أيام الحصائد. كذا تقول الشركات الأجنبية يوم تستحوز على ثروة البلاد وحين يتزاحم أهل البلاد متوسلين إليها أن تمنحهم فضلة مسترزقاتها لكي يتعيشوا.

في العام الماضي ورد إلى إدارة المجلة كتاب من كبير من كبراء دمشق ومما جاء فيه قوله:

«... تأثرت جداً... لسبب واحد وهو فشلي في تأسيس شركة المنسوجات الوطنية حيث عدت في آخر يوم عقدت فيه الجلسة الأخيرة التي انحلت فيها الشركة قبل أن تتأسس... وعزمت على أن انقطع في إحدى القرى وابتعد عن ضوضاء هذا العالم...».

والمفهوم جيداً من هذا الخطاب أن كاتبه متقد غيرة وطنية. ولكن لهيب وطنيته لم يستطع أن يتغلب على ثلوج اللاوطنية المتناثرة عليه من حوله فأطفأته، حتى أنه فضل أن ينزوي في إحدى الضياع متألماً من استفحال اللاوطنية في البلاد.

لا اعتدال في الوطنية

على أن هذا الانزواء لا يعد نجاةً من مسؤولية الوطنية، بل بالأحرى يعد «لا وطنية». وهذا الوطني الكبير لا يقدر أن ينتحل عذراً البتة في اعتزاله العمل مهما كثر اللاوطنيون من حوله وتغلبوا عليه. واعتزاله الجهاد لا يعد تجنباً للانكسار، بل يعد انحيازاً إلى جانب اللاوطنيين وهو شر من الانكسار. ذلك لأنه لا وسط في الوطنية.

الوطنية المعتدلة والوطنية المتطرفة

وهنا يسوقني الحديث إلى موضوع ذي شأن كثيراً ما طرقته الألسنة أمامي وهو «هل في الوطنية اعتدال»؟

كثيراً ما سمعت القول أن فلاناً وطني معتدل وفلاناً وطني متطرف. وإلى الآن لم أفهم ما الفرق بينهما: لا أدري كيف يكون الوطنيون درجات، ولا أقدر أن أتصور نفسي أو غيري إلا أحد شخصين أما وطني أو «لا وطني» ولا وسط بينهما. فمن لم يكن متطرفاً في الوطنية كان «لا وطنياً» إذ لا اعتدال في الوطنية.

إن الوطنية كما تعلمناها من الأمم الحرة وكما درسناها في تواريخ الشعوب المستقلة تقضي أن يبذل الوطني حياته لأجلها. ولما كان لا مطمع بعد الحياة، والحياة هي منتهى المطامع، فمهما عمل لأجل الوطنية لا يعد تطرفاً. وإنما أي تقصير في

العمل لأجل الوطن يعد «لا وطنية». لهذا لا معنى للقول «بالوطنية المتطرفة» و«الوطنية المعتدلة»، إذ لا وسط بين الوطنية واللاوطنية.

وإنما أنبه إلى التهور في دعوى العمل لأجل الوطن ـ وأعني به التهور الذي يؤذي الوطن. فهذا لا يعد وطنية بل رعونة عمياء. ولا تصح دعوى الوطنية إلا حيث ارتكزت على التعقل مع الاستعداد للتضحية النافعة.

فلذلك نعود إلى موضوع «الفشل» الذي شكا منه الوجيه الدمشقي، ونقول إن الفشل ليس سبباً كافياً لقتل الوطنية. فما دامت هناك غيرة وإرادة فاستئناف الجهاد واجب والتخلف عنه ضعف و«لا وطنية». والفشل مرة أو بضع مرات ليس دليلاً على العقم. وكثير من الأعمال التي تمت مرّت على عدة ضروب من الفشل وعلى عديد من مختلف التجارب والامتحانات. والظاهر أن «الفشل» في شرقنا داء «كالكسل»، وقانا الله جائحة الدائين.

حزيران 1924

تأثير الأم في تربية الأولاد
محاضرة صاحبة المجلة لمؤتمر العائلة

عقدت جميع الطوائف الكاثوليكية غربية وشرقية في مصر في هذا الشهر بإيعاز قداسة البابا مؤتمراً كبيراً للبحث في شؤون العائلة وترقيتها. وقد انتدبت لجنة المؤتمر صاحبة هذه المجلة لإلقاء محاضرة بهذا الموضوع في إحدى الجلسات. وقبل انعقاد المؤتمر انسحب منه لأسباب وجيهة سيادة المطران أنطونيوس فرج النائب البطريركي العام للروم الكاثوليك فانسحب منه لنفس الأسباب من الخطباء الأستاذ خليل بك مطران والدكتور أمين أفندي دمر والأستاذ خليل أفندي زينية وصاحبة هذه المجلة. ولما كانت مباحث ذلك المؤتمر من جملة مباحث هذه المجلة ومن جملة مهماتها، رأينا أن ننشر محاضرة صاحبتها التي لم تلق في المؤتمر. وهي كما يلي بعد حذف ديباجتها وبعض تفصيلات فيها:

لقد ألقت الهيئة الاجتماعية على كاهل المرأة قسماً من العمل يعده السواد الأعظم من الناس واجباً خفيفاً لطيفاً. فقالوا ما هو إلا ولادة الأولاد وحضانتهم وإرضاعهم وتربيتهم صغاراً تربية جسدية إلى أن تستلمهم المدارس. هذه مهمة بسيطة تليق بالجنس اللطيف فلا تستلزم عناء ولا مشقة ولا جهاداً. ولذلك لم تعط العناية اللازمة لها. فكان هذا الحسبان علة ضعف التربية عندنا. لا يا سادتي. إن قسم المرأة من العمل في المجتمع الإنساني ليس بالواجب الخفيف اللطيف. ولا هو بالثانوي كما يتوهم الكثيرون. إن العمل الذي عينته الطبيعة والسنن الإلهية للمرأة ليس ولادة الأولاد وحضانتهم وإرضاعهم وتغذيتهم فقط، لأن الولادة وملحقاتها سُنَّة طبيعية تشمل جميع الأحياء. فالحيوانات تلد أولاداً وتربيها أيضاً. وإنما قسط المرأة من العمل أعظم من ذلك بكثير وأسمى غايةً وأكثر ضرورةً ولزوماً. قسطها من العمل أن تقدم للأمة أفراداً صالحين للاندماج في جسم المجتمع، وأن تمد هذا الجسم بحيوية قوية. إن نصيب المرأة من العمل أن تقدم للوطن شباناً وشابات أقوياء جسداً وعقلاً وأخلاقاً لينهضن بالبلاد.

فمهمة المرأة الوالدة الرئيسية ليست أن تلد أولاداً فقط بل أن تلد أمة. مهمتها الأساسية ليست أن تحضن بنين، بل أن تحضن وطناً. مهمتها ليست أن تربي أطفالاً، بل أن تربي هيئة اجتماعية مترعرعة في القوة العقلية والأدبية والجسدية معاً. مهمة المرأة أن تسبك الأمة في قالب الأخلاق والآداب العالية. تهيىء الناشئة لحياة اجتماعية راقية. أن تقدم للوطن رجالاً، أن تعد الرجال للاستقلال الحقيقي. إذاً استقلال البلاد بيد أمهاتها، ومهمة المرأة الرئيسية أن تربي الجنس البشري وتدفعه في سلم ارتقائه إلى فوق.

هذا عمل المرأة يا سادتي. فانظروا ما أعظمه عملاً وما أنبله غاية. هذا هو نصيبها. وهو نصيبها وحدها. لا يستطيع الرجل أن يقوم مقامها فيه. لأن نصيبه من العمل شيء آخر وهو الجهاد لإعالة العيلة. نعم أن الله خص الرجل بالقوة. ففي إمكانه أن يعمل كل شيء تقريباً. ولذلك ينسب له كل عمل، حتى إذا عملت المرأة عملاً خارجاً عن دائرة اختصاصها نسبوه للرجل لا لها. فإذا كتبت أو ألفت أو نظمت قالوا الرجل هو الذي كتب وألف ونظم. وإذا اخترعت قالوا الاختراع ليس لها بل للرجل. وإذا ساست قالوا إن يد الرجل من وراء الستار تسوس. وكم كان هذا سبباً ليأس النساء في شرقنا، مع أن النجاح في فنون الكتابة والإنشاء والنظم إلى غير ذلك ميسور للمرأة كما هو ميسور للرجل على السواء. وربما أجادت المرأة في بعض المواضيع أكثر من الرجل. وذلك لأنها حاصلة على المواهب العقلية التي للرجل فتستطيع أن تباريه بهذا المضمار وتسبقه أحياناً. هذا إذا شاء الرجل وفسح لها المجال.

أما الرجل فلا يستطيع أن يباري المرأة في فن التربية والتأثير على الأولاد لأنه لم يعط المواهب اللازمة للتربية. يستحيل عليه أن يسهر ويصبر ويحتمل ويبذل من قواه ونفسه ليكوّن أخلاق الأولاد. أن هذه مواهب خص الله بها المرأة وحدها منذ الأزل.

فتربية الأولاد هي العمل الذي تعيّن للمرأة في كل زمان ومكان. وحيث ما أتيح لهذا العمل امرأة مستعدة له الاستعداد التام كانت الأمة قوية بكل شيء ومتفوقة. وحيث لم يتح له امرأة تامة العدة والسلاح، كانت الأمة ضعيفة. قال رسكن: «إن سلاح الرجل يسقط إذا لم تحسن المرأة تقليده إياه».

هذه حالنا في الشرق أيها السادة. مهما بحثنا في سبب تقهقر الشرق وعللنا ضعفه، ومهما حللنا أسباب هذين التقهقر والضعف، ننتهي عند السبب الأساسي وهو تجرُّد الأم من عِدد التربية. ومهما بحثنا في تدارك ذلك التقهقر، وتفننا في وسائل معالجة ذلك الضعف، وحيثما فتشنا عن مصادر هذه الوسائل، وجدنا أنفسنا أخيراً أمام الأم وحدها. فالأم وحدها تستطيع إعداد أفراد صالحين للاندماج في جسم مجتمع يستطيع الحياة الاستقلالية الحرة الشريفة. الحياة البشرية كالسفينة في أوقيانوس متلاطم الأمواج. والرجل هو القوة الدافعة لهذه السفينة والأم ربان السفينة الذي يدير الدفة. فإذا لم يحسن الربان إدارة الدفة فقد تدفعها القوة الدافعة إلى الصخور فتتحطم. لعلكم يا سادتي تستكبرون هذا القول، أي تشبيه الأم بربان السفينة والرجل بالقوة الدافعة لها في مسيرها. ولكنه الحقيقة الراهنة المحتومة وهاكم شرحها:

إذا كان محتوماً بحكم السنن الطبيعية والربانية أن يبقى الطفل في عهد طفوليته تحت سيطرة أمه وتأثيرها في نفسيته، وإذا كان يستحيل أن يكون للأب أقل سيطرة أو تأثير عليه في ذلك العهد، وإذا كان دماغ الطفل في عهد الطفولية والحداثة كالشمع اللين تنطبع فيه المؤثرات انطباعاً يبقى مدى الحياة، وهيهات أن يمحى. فالخلق الأول الذي يتخلق به الطفل هو الذي يعيّن له وجهة مسيره في الحياة. ومتى اتجه في وجهته يستحيل بعدئذٍ رده إلى وجهة أخرى. فمهما تراءى لنا عمل الأم في بدء الأمر بسيطاً فهو يعيّن مستقبل الطفل إن صالحاً أو طالحاً. وهكذا يتعين مستقبل الأمة كلها بحسب تأثيرات أمهاتها في أخلاق أطفالها.

يتكل الكثيرون في تربية أولادهم على المدارس، ويعتقدون أن ما فات الطفل من تربية الأم له يناله في المدرسة. وهذا الاعتقاد من جملة أسباب اعتبار تربية الأم شيئاً ثانوياً وتقليل أهمية نصيب المرأة من العمل. وقد ظهر لنا يا سادتي أن العبرة في التربية بالعمل الأول الذي يعين وجهة الطفل. وعلى هذا العمل يتوقف اتجاه مستقبله. زد على ذلك أن بعض الأخلاق والآداب لا يمكن أن يتخلق بها الطفل إلا في حجر أمه كالمحبة والعطف والصدق والطاعة وحب النظام والترتيب والنظافة إلخ... كل هذه الصفات والأخلاق إذا لم تنطبع في الطفل وهو في عهدة أمه فقلما تنطبع فيه وهو في المدرسة.

* * *

سادتي: أن نصيب المرأة من العمل شاق خطير الشأن وعظيم النتائج. ولذلك قد يلوح لكم أنها لضعفها لا تستطيع القيام بهذه المهمة، وربما تسرب لنا اليأس من تحسين التربية في بلاد لهذا السبب. نعم إن نصيب المرأة من العمل عظيم جداً وشاق، ولكن الله منحها خمس مواهب رئيسية ليس للرجل مثلها وبها تستطيع أن تقوم بهذه المهمة العظمى وهي: أولاً جلدها وصبرها في زمن الحضانة. ثانياً التناهي في المحبة إلى حد التضحية حتى تضحية النفس لأجل الأولاد. ثالثاً مقدرتها على إعداد الغذاء والكساء. رابعاً حفظ النظام وحب التربية والحشمة. خامساً الجمال للإرضاء والمسرة. هذه مواهب اختصت بها المرأة بل كل أنثى حتى في الحيوانات.

وأما مقدرة المرأة على إعداد الغذاء فقد ابتدأت منذ وجدت أمنا حواء في الجنة إذ اختارت أفضل شجرة في الجنة الفيحاء الغناء وأشارت على آدم أن يأكل منها. نعم ليس الفضل لها وحدها لأنه لا شك أن آدم حملها ورفعها لكي تقتطف الثمرة فقطفت وأكلت وأطعمته. فآدم أمدها بالقوة وهي أعدت الطعام. وكذلك كانت أمنا حواء أول من خاطت ثوباً. خاطته من ورق التين لها ولآدم. وهكذا منذ ذلك الحين أخذت المرأة على عاتقها أن تعد الغذاء شهياً لذيذاً وأن تهيء الكساء أنيقاً جميلاً. وأما من حيث الحشمة والنظام والترتيب فحواء قد منعت آدم أن يقابل الله تعالى عرياناً فأعطته أول درس في الآداب العمومية (الأتيكت). وأما جمال المرأة للمسرة والإبهاج والإرضاء فقد جعله الله تعالى سبباً لخلق المرأة. لأنه بعد أن انتهى جلّ جلاله من خلق خليقته ووضع آدم في الفردوس رأى أن في جمال الجنة نقصاً بيناً. رأى أن جمال الخليقة كالرأس بلا تاج. فخلق حواء آيةً في الجمال وتوَّج بها جمال الخليقة. وهكذا منذ ذلك الحين كانت المرأة موضوع الجمال الجسماني والنفساني معاً ومصدر كل جميل، وهي وحدها تستطيع أن تمنح الطفل والغلام كل خلق جميل لطيف.

وأما المحبة فكانت أمنا حواء أول من أحب وعطف وحن. والحب والعطف والحنوُّ خواص كل أنثى. وبهذه الخواص وحدها أمكن أن يبقى النوع ويتسلسل من جيل إلى جيل. لأن الأم تبذل جهدها أن تمنح طفلها كل ما تستطيعه من

مزايا الإنسانية معظماً مكبراً، حتى أنها تريد أن تفني نفسها في هذا المنح، أي أنها تريد أن تربي إبنها ليكون أفضل منها بكثير.

* * *

ولكي نرى يد الأم عاملة في صنع الأمة نرجع إلى التاريخ. قال أحد العظماء إن الله أعار أمي ثوب الملائكة لكي تستطيع أن تكون كما أراها. ونحن تقول إن الله خص كل أم بهذا الثوب. نعم إن عظيم الرجال يقود الأمة ويجني لها المجد والفخار ويدافع عنها ويخترع لها. ولكن وراء كل عظيم عظيمة. ووراء كل بطل بطلة. ووراء كل شهير شهيرة. ووراء هؤلاء كانت يد الأم تعمل. فالأم تسيّر الأمة منذ طفولية أفرادها، وتوجه الجنس البشري كله في الطريق الذي تختاره. إن أماً واحدةً صالحةً لأفضل من مئات من المعلمين والمعلمات.

قال بايكون العالم المشهور إن الفضل في شهرته لأمه إذ كانت تثير فيه حب الاستطلاع واستكشاف أسرار الطبيعة. ونابليون الأول عزى عظمته وشهرته إلى ما غرسته أمه فيه من المبادىء منذ حداثته. فقد قال غير مرة إن مستقبل الرجل حسناً كان أو رديئاً يتوقف على تأثير أمه في نفسه. ووط المهندس الشهير ينسب شهرته إلى أمه التي قال عنها إنها لا مثال لها بين الأمهات. وقال كويفر الجيولوجي العظيم إن الفضل في نبوغه إلى أمه لأنها هي التي ربت فيه عقليته منذ حداثته حتى شب. وقد تعلمت اللاتينية خصيصاً لكي تساعده في الدروس العالية، وقد علمته وهو صغير مبادىء الرسم فكان لذلك تأثير عظيم على أمياله. وقال إن الصفات العالية الجميلة التي تتصف بها أمه جعلته يعتبر كل النساء.

وجورج واشنطون محرر أميركا تيتم في الحادية عشرة من عمره، فربته أمه مع أربع إخوة له تربية وطنيةً صالحةً متينةً وغرست فيه حب الله والوطن، فشبّ قائداً لأمته وحرر بلاده. ولما انتخبه شعبه أول رئيس للجمهورية استمهل القوم ريثما يشاور أمه في الأمر، وذهب إليها مغرورقاً بالدموع قائلاً: أماه إن الشعب الأميركي يلقي على عاتقي حملاً أنوء به فساعديني برأيك. فقالت له أمه: الله يساعدك يا بني. أطع أمر الشعب فصوت الشعب صوت الرب. أطع أمر الشعب وهو يخضع لك لأنه يحبك. أما علمتك أن تحب وطنك وتخدمه. فلماذا

تهرب من خدمته؟ فأطاع أمر الأم أولاً وأمر الشعب ثانياً. والشعب الأميركي إلى الآن يفاخر بأم واشنطون ويحسبها ناحتة حجر الزاوية في أساس الجمهورية. هذا تأثير تربية الأم الصالحة. والعكس بالعكس. فنيرون الطاغي السفاح كانت أمه سفاحة مثله وقد ماتت ويدها مغموسة بالدم.

ولا أريد أن أثقل على أسماعكم بسرد أمثلة أخرى بشأن تأثير الأم السيء. ففي ما تقدم كفاية على أن المرأة تسير الشعب. ترفعه أو تحطه. وهي التي تبني ملكوت الله أو جهنم إبليس على الأرض. فإليك أيتها الأم أوجه خطابي. فقد مضى على الشرق دهر وهو نائم وليس للطفل من يوقظه من نومه إلا أمه. فعليك أيتها الأم المسؤولية العظمى والأولى لأنك استأثرت بالمواهب الخمس التي هي عدة العمل. فحتى متى تتقاعدين؟

* * *

ولكن أين الأم؟ ومن استصرخ؟ أتأسف أن الأمهات عندنا قليلات. عندنا امرأة كاملة ولكن ليس عندنا أم. عندنا امرأة فاضلة محتشمة ولكن ليس عندنا أم مربية. سألت أم فيلسوفاً: متى ابتدىء بتربية إبني؟ فأجابها: منذ الشهر الثالث حيث يرد الابتسامة بالابتسامة ويقلد الإشارة بإشارة. ولو كان هذا الفيلسوف يعلم حال الشرق وسألته أم شرقية: متى أبدأ بتربية إبني؟ لأجابها: يجب أن تبتدئي بتربيته قبل ولادته بعشرين سنة... يعني أنه يجب تربية الأم أولاً. نحن الآن يا سادتي في حاجة ماسة إلى تربية أمهات قبل تربية الأولاد. نحن في حاجة إلى مصنع نصنع فيه أمهات لتربية الناشئة الجديدة. لتربية أمهات وآباء.

عفواً وعذراً أيها السادة. قد تشعرون بثقل هذا القول ولكن عذري فيه أنه الواقع. إن الأمهات الحقيقيات اللواتي يحسن تربية البنين والبنات قليلات عندنا. هذه هي الحقيقة وإن كانت جارحة. فإذا لم نتألم من جرح فلا نداوي الجرح. نعم ليس عندنا أمهات حقيقيات كثيرات. عندنا والدات فاضلات متعلمات. عندنا سيدات يحسنّ اللبس على آخر زيّ ويتكلمن اللغات الأجنبية جيداً، وأما لغتهن الوطنية التي لا غنى لأولادنا عنها فيجهلنها تماماً. عندنا سيدات يحسنّ العزف على البيانو. يحسنّ الرقص الإفرنجي والعربي. يحسنّ النطق الإفرنجي لا

العربي وبعضهن يحسنّ القمار جيداً. وأما الأمهات اللواتي يحسنّ تربية الأطفال والأحداث فقليلات. والتربية عندنا تعدُّ بالإجمال سطحية وربما كانت في كثير من الأحوال فاسدة وضارةً إذ تنشىء في الأحداث خصالاً وأخلاقاً رديئة لا تساعد الشاب في الكفاح لأجل الحياة. وإذا بحثنا عن أسباب فشل بعض الفتيان والفتيات أو سقوطهم أو خسرانهم أو انحطاطهم أو موتهم العاجل، فقد نجد السبب في سوء تربية أمهاتهم لهم. بل أكثر من ذلك إذا بحثنا عن أسباب تقهقر أمة وانحطاطها وضعفها تجد السبب في سوء تربية الأمهات للناشئة. فواجب الأم أن تطبع في نفس الطفل والولد منذ الصغر الأخلاق التالية:

أولاً: المحبة بأعمق معانيها، المحبة التي تقضي بالتضحية والتسامح والتساهل والحلم. وقد كان يسوع بأعماله وتعاليمه خير مثال للمحبة.

ثانياً: تعليم الأولاد الطاعة للنظام والقانون. قال روزفلت: «متى استهانت أمة بقانونها سقطت». وما دامت الأم مربية الأمة فهي مسؤولة عن احترام القانون.

ثالثاً: تعليم الصغار الصدق. وتعظيم شرف النفس فيهم. وبتعلمهم الصدق يتعلمون كل الفضائل. كانت أم على فراش الموت وكان لها إبن شرير فاستدعته وقالت: «أودُّ يا بنيّ أن تسر روحي بعد موتي بأن تحفظ وصية واحدة لي وهي الصدق، وافعل سواه ما شئت». فكان الإبن كلما حدثته نفسه بعمل شر يجد أن هذا العمل يقوده للكذب، فيمتنع عنه احتراماً لوصية أمه. وهكذا اصطلحت حياة الإبن لمحافظته على الصدق.

رابعاً: تعليم الأولاد الاعتماد على النفس. فالولد الذي يتعود أن يقضي حاجته بنفسه يشبّ حراً مستقلاً متكلاً على نفسه. إذاً الاعتماد على النفس أساس استقلالنا.

خامساً: تعليم الأولاد الاتحاد. ونحن أمة في أشد حاجة إلى الاتحاد. فبالاتحاد نستطيع أن نفعل كل شيء حتى ما يحسبونه في الشرق مستحيلاً. كان رجل في حالة النزع فأراد أن يودع بنيه العشرة بنصيحة. فقال: ائتوني بحزمة من القضبان. فأتوا بها. فقال من منكم يستطيع أن يكسر هذه الحزمة. فجرب كل منهم على حدة فلم يستطع أحد تكسيرها. فقال الأب: هاتوها. فقدموها إليه فحلها وجعل

يكسرها عوداً عوداً وقال: هكذا أنتم ما دمتم متحدين فلا يستطيع أحد أن يغلبكم.

سادساً: وأهم من كل ما تقدم تعليم الأولاد حب الله وحب الواجب وحب الوطن.

هذه هي الصفات الرئيسية التي يجب على الأم أن تغرسها في نفس ولدها منذ الطفولية إلى أن يشب. إذاً حاجتنا الآن قبل كل شيء إلى تربية أمهات يحسن تربية البنين والبنات، فكيف السبيل إلى ذلك؟

إذا أذنتم لي فأقترح الوسائل التالية:

أولاً: أن يتحول هذا المؤتمر الموقر بعد نهاية جلساته إلى جمعية دائمة عامة للشرق الأدنى كله، وأن تكون له فروع في مصر وسوريا وسائر الشرق القريب. وأن يكون غرض هذه الجمعية السعي بكل وسيلة ممكنة لتعليم الأمهات فنون التربية. وعقد اجتماعات عمومية في كل فرع للجمعية لإلقاء محاضرات عن تربية الأطفال وتهذيبهم. وتأليف وفود من قبل فروع الجمعية لزيارة الأمهات القليلات المعرفة بفن التربية وتكليف بعض الخبيرين بتأليف كتب عملية في التربية والتعليم.

ثانياً: أن يهتم هذا المؤتمر الموقر أو الجمعية التي تخلفه بكل وسيلة ممكنة لدى جميع مدارس البنات لكي تجعل فن التربية أساساً للتعليم ولتخريج الفتيات بارعات فيه.

قد يقال إن هذا العمل شاق يحتاج إلى وقت ومال. نعم إنه لكذلك ولكن ليس ذلك بكثير على أمة فيها أفراد كأعضاء هذا المؤتمر الكريم.

فإلى حبكم للحياة الشريفة النبيلة توجه هذه العاجزة نداءها هذا. وأثق إننا سائرون في هذا السبيل الشريف ما دام هذا المؤتمر الكريم الموقر يضع أساساً لنهضتنا الأدبية ولحياتنا الاجتماعية الجديدة. ولنا ملء الرجاء أن هذه الاجتماعات الأولى تكون فاتحة عصر جديد لهذه النهضة الأدبية ولهذه الحياة الاجتماعية الصالحة التي نبتغي منها أن تكون في صف الأمم الراقية. فحينئذٍ يجتمع أولادنا تحت لواء الاتحاد الوطني هاتفين بحق وبصوت عظيم:

ليحي الاستقلال ولتحي الأمهات.

أيار 1925

في مجالس السيدات
بين سوريا ومصر

عدت إلى مصر من لبنان في إبان احتدام الثورة في سوريا، فكانت كل من تراني تسألني قبل التحية: ماذا في سوريا؟ فسرني أن هذا القلق على سوريا شمل المصريين والمتمصرين. وبعضهنَّ لما قابلنني قلن: أهلاً بالدرزية. فلما بدا لهن استغرابي، فسّرت إحداهن هذا القول بقولها: كلنا دروز في هذه الأيام. فسألت: ما معنى هذا أيضاً؟ فقالت: المعنى بقلب الشاعر. فضحكت أخرى وقالت: كلنا شاعرات في هذه الأيام أيضاً. فقلت: لا ريب أن ألم عضو في الجسم يشعر به كل الجسم.

وقالت أخرى: دعينا من الألغاز. واخبرينا بصراحة عن أحوال سوريا؟ فقلت: عذراً. أعفيني من الكلام عن سوريا. فقد كلفني الكلام عنها كثيراً بالرغم من أنني كنت في مصيفي في قمة جبل يعلو عن سطح البحر ألفي متر، بعيدة عن ضوضاء العالم الموجع للدماغ. لا عين ترى ولا قلب يوجع.

فقالت السيدة ب: كيف قضيت صيفك في رأس جبل يعلو هذا العلو. وهل في قمة هذا الجبل العالي مصيف؟ قلت: نعم. لقد أنشىء في أرز لبنان مصيف جديد لا مثيل لموقعه في العالم كله كأنه جنة الخلد. بعيد عن الضوضاء ولكنه قريب لمن يقصده. ففي ساعة ونصف إليه يبلغ القاصد من طرابلس البلد الجميل. وفي يوم وليلة يصل إليه القاصد من مصر براً أو بحراً.

فقالت أخرى: عجباً. لم نسمع بهذا المصيف من قبل.

قلت: عش رجباً ترَ عجباً. في الدنيا محاسن كثيرة لم نسمع بها وأشخاص ذوو شأن لم نعلم بهم. هل كنت تعلمين بدروز حوران كما علمت عنهم اليوم. وهل تظنين أن الشهرة على قدر الاستحقاق؟ الدنيا تمثيل وإعلانات، وأحياناً الشعوذة تتغلب على الحقيقة. ومن يطنطن كثيراً ينجح كثيراً. والناس يتجمعون على صوت الطبل أكثر مما يتجمعون على صدح البلبل.

فقالت مدام ن: يا لله! هل لمصيف الأرز هذه القيمة العظمى؟ وهل حصلت على هذه الصحة في تلك العزلة؟

فقلت: نعم من الاعتزال في محل كالأرز ينال كل إنسان حتى العليل صحة وعافية أكثر مما ينالهما من الأودية. لأنك إذا كنت بين جمهور من الناس تضطرين أن تسلكي كما يسلكون وتحبي ما يحبون وتكرهي ما يكرهون. وأحياناً تقهرين على مغايرة مبادئك ومخالفة وجدانك إلى غير ذلك مما يثير أعصابك. فكيف تكسبين صحة في هذه الحالة. لا ريب أن الاعتزال والانفراد بالطبيعة الجميلة البهيجة التي هي الصديق الصادق الأمين يطلق لحريتك العنان ويفسح السبيل لفكرك أن يطوف بلا قيد فيجتني من الطبيعة كل محاسنها. على أني لا أقول أن الحياة في أرز لبنان عزلة مطلقة. لا. بل هناك ترين كل يوم أناساً لم تريهم بالأمس. فهناك كل يوم معرض من الأزياء والأخلاق والعادات قد لا ترينه في المدن. هناك مدرسة للأخلاق والعقول لا تجدين مثلها في مكان آخر. كل يوم يزور الأرز أفواج مختلفة من الناس. فأنت هناك بين الناس ولكن لست منهم إذ تظلين كأنك في عزلة.

فقالت السيدة ل: هاتي لنا ما عندك من نتيجة تلك الدروس التي درستها هناك.

فقلت: ها قد وصلنا إلى عقدة الحديث. قلت لك لا أستطيع الكلام البتة. ولا تسأليني لماذا. ها السيدة ح. عادت حديثاً من الاصطياف وقد عرفت كثيراً من أحوال البلاد وأخلاق ناسها ونسائها على الخصوص وفوق ذلك فهي جعبة أخبار.

فسألت مدام ح: أي شيء ترغبين معرفته؟

فأجابت إحداهن: نود أن نسمع شيئاً عن سيدات تلك البلاد.

فأجابت مدام ح: إسمحنَ أن أقول لكنّ إن السيدات الشرقيات هنّ هن في كل مكان: تزيُّن وتبرُّج وثرثرة، ولا يهمهن همٌّ. ولسان حالهن يقول: «بعد حماري لا ينبت حشيش».

فقالت أخرى: شيء غريب! كيف ذلك؟ سمعنا أن السيدات هناك قائمات بنهضة وطنية جديدة، وقد اشتغلن كثيراً في أيام الانتخابات لمجلس لبنان النيابي. وقيل أنهن يقاطعن البضائع الأجنبية، وقرأت بالأمس في رسالة لمراسلة الدايلي

مايل الإنكليزية أن بعض النساء خضن غمار الحرب الحاضرة. وقيل إن فرنساوياً قطعت يده في الحرب. فقال: لم يغظني قطع يدي إلا لأنه كان من سيف امرأة.

فقالت مدام ح: لحكاية الفرنساوي أصل. وتحرير الخبر أن درزية قتل أبوها في الحرب فامتطت جواداً واستلت سيفاً ونزلت إلى الميدان. فهاج الشبان والشابات واقتحموا معها الميدان، وحينئذٍ قطعت يد ذلك الجندي بيد المرأة. وغيرها قتلن كثيرين أيضاً.

فقالت سيدة أخرى رفيقة لها وقد علمت الخبر مثلها: لم يكن الفضل بذلك لها بل للشبان الذين تحمسوا من إبن 14 سنة وصاعداً ولحقوا بها.

فقالت مدام ح: لها معظم الفضل إذ هي التي شجعتهم. ولو لم تكن درزية لما جرؤت هذه الجرأة.

فقالت مدام ح متهكمة: الدرزية تشتغل في الحرب والسورية الأخرى تشتغل بالسياسة فكلتاهما عاملتان في النهضة الجديدة. وما دامت نساء البلاد قد نهضن فبشرى للبلاد.

فقالت مدام س ضاحكةً: نعم سمعت أن سيدة أضاعت كل ثروتها في الانتخابات الأخيرة للمجلس التمثيلي في سوريا.

فقالت مدام ح: أظنك تعنين فلانة التي تبلغ «دوطتها» أربعة آلاف ليرة وقد صرفتها في الانتخابات. وحكايتها أنها قالت لزوجها أريد أن تكون نائباً وها دوطتي تحت أمرك، فأنفقها في هذا السبيل بشرط أنك إذا لم تنتخب نائباً فلا تعد إلى البيت. وهكذا كان. فالرجل ضيع الأربعة آلاف.

فسألت مهزارة: ألا بالله أخبريني هل عاد زوجها إلى البيت أم لا؟

فأجابتها: أن المرأة التي لها هذه الأخلاق لا يخشى من إصرارها على قولها. فإذا كانت كل السيدات كهذه فالويل للبلاد.

ثم قالت مدام ل: وماذا جرى بحركة مقاطعة الأقمشة الأوروبية التي سمعنا عنها وقالوا إنها ستحيي صناعة النسيج الوطنية التي ستقلل من المهاجرة؟

فقالت مدام ح: هذا كلام بكلام، ما دام بونجور وبونسوار وأريفوار لغة السيدات فلا بد من الكريب والساتين والريبس إلخ. ولا شأن لديما حمص وحرير الذوق وحياكة الشام. أنهن يا ستي معذورات. كيف يكون لهن وطنية وليس لهن وطن وهن في بلادهن غريبات. اسمعي هذه الحكاية الصغيرة: كنت زائرة في بيت أحد الأصدقاء. ثم جاءت بنات البيت من المدارس. فدعتهن الأم للعزف على البيانو. فسألتني الأولى: ماذا تريدين أن تسمعي يا مدام؟ فقلت: السلام الوطني. فضربت المرسلياز الفرنساوي. فقلت في نفسي: هي تلميذة الراهبات لا غشّ فيها. ثم جلست الثانية إلى البيانو، وسألت: ماذا تريدين؟ فقلت: سلامك. فضربت السلام الإنكليزي. فقلت: هذه تلميذة مدرسة إنكليزية أو أميركية. عندئذٍ قلت: يجب أن نسمع سلام الوطن. فضربت السلام المصري. فقلت: لتحيَ مصر. وأخيراً ألا نسمع سلام سوريا؟ فقالت الأم ضاحكة: لسوريا سلامات كثيرة يا مدام ولم نتفق بعد على واحد منها. فأي سلام تعنين؟ فقلت: ولا أظنكم تتفقون ما دام أولادكم يتعلمون في مدارس أجنبية مختلفة. فإذا غضب الله على قوم بلبل ألسنتهم.

فقالت مدام ل: وقولي أيضاً ما دام هناك سوري ولبناني ودرزي ومسلم ونصراني إلخ من الأربع وعشرين طائفة.

فقالت مدام ح: نعم أن ليس في سوريا وطن. وبالتالي ليس فيها وطنية. إذاً مصيبة سوريا في تعدد تقاليدها وفي اتكالها في التربية على الأجانب.

فسألت سيدة: وكيف رأيت فلسطين؟ فأجابتها: أما فلسطين فهي بلاد الغنم الهادىء الوديع. ومن أراد عيشة بسيطة صامتة ساكتة خالية من أي حركة قومية فليسكن فلسطين... فلسطين النائمة.

فسألت: وكيف وجدت سيداتها؟

أجبتها: تجدين في باب مملكة المرأة في هذا الجزء خطاباً من الآنسة ساذج بهائي إحدى نابغات فلسطين ينبئك الخبر اليقين.

وفيما نحن بهذا الحديث، دخلت سيدة لابسة ثوب رجل أو نصف ثوب امرأة وفي يدها آلة تصوير وقالت: إنني مرسلة من قبل جريدة لتصوير جلستكن هذه.

فهل تسمحن بذلك.

فقلت: يا لله! من علم باجتماعنا هذا فأرسلك إلينا؟ إننا نتحدث عن الموضة والأزياء وليس لنا شأن في السياسة. ولكن يظهر أن جواسيس الجنرال سراي انتشروا في مصر أيضاً. كأن الرجل صار يرى الخيالات والأشباح غرماء وأعداء له. أما كفى ما ذقنا في سوريا حتى نشر جواسيسه وراءنا إلى هذه البلاد.

فقالت مدام ح: حقاً أن سوريا مذنبة فلذلك أرسل الله إليها سراي عقاباً لها.

فأجابت أخرى: إذا كان عقاب سوريا عن ذنب ماضٍ فقد كفاها يا رب. على أني أرجو أن ينتج هذا العقاب خيراً للبلاد. فيكون سراي قد أفادها من حيث أضرها. وربما هتف السوريون في آخر ساعة: فليحيَ سراي.

فقلت للمصورة: وحياتك نحن نجتمع هنا للتسلية فقط، وحديثنا لا يخرج عن الموضة والأزياء. وليس فيه شيء من السياسة...

كانون الأول 1925

ثورة السيدات ضدّ الفضائل التقليدية

من مزايا فصل الشتاء على فصل الصيف تزاور السيدات المتواتر واجتماعاتهن الأنيسة التي يكثر فيها القيل والقال. ولذلك يحسن أن نسمي هذا الموسم في مصر «موسم الثرثرة».

من حسن حظي أن حضرت مجلساً من مجالسهن في هذا الموسم المبارك، إذ دعتني ربة المنزل إلى حفلة عيد ميلادها. وكان سروري عظيماً بحضور هذه الحفلة لأن حفلات أعياد المواليد نادرة بين الشرقيين.

بدت ربة المنزل في عزّ شبابها وبهجتها. هيفاء القد، أسيلة الخد، فاترة اللحظ، مشرقة المحيّا، بين شفتيها المصبوغتين ينبوع ابتسامات لا ينضب. وقد ارتدت ثوباً أبيض جميلاً. وكلما دخلت سيدة عانقتها وهنأتها بعامها الجديد ودعت لها بالعمر المديد.

سألتها إحدى المدعوات: كم ميلاً قطعت من مرحلة العمر يا عزيزتي؟ فقالت: احزري. فتفرست فيها وقالت: إن ملامحك النضيرة تضلل قراء صفحات الوجوه. فلا أستطيع الحزر. فأجابت: إني منذ اليوم في الخامسة والخمسين.

فاستغربت قولها وقلت: تالله ما وراء هذه النضارة أكثر من ثلاثين ربيعاً. فقالت لي: إنك تمزحين. لو كانت صفحات ملامحي تنطوي على ثلاثين فقط هل كنت أحتفل بعيد مولدي؟ قلت: ولماذا؟ قالت: لأننا في بلادنا لا نعيّد إلا لميلاد الأولاد والعجائز فقط.

فضحكت السيدات جميعاً، وإذا بسيدة أخرى تدخل قائلة: يا لله إن سلمكم تفضح أعمار الناس. لم أعلم أني صرت عجوزاً إلا حين صعدت هذه السلم المتعالية. فيا لله أخبرنني هل أنا شمطاء أيضاً؟

فقهقهن جميعاً وقالت إحداهن: صه لئلا ينقل هذا الحديث إلى زوجك وهو يغالط نفسه في عمرك ليقنع نفسه في عمره أيضاً. فأجابت ضاحكة مازحة: زوجي؟ وماذا يهمّني من اعتقاد زوجي. إن كان يرتاب في عمري وما هو راضٍ فليطلق.

فقلت: ما شاء الله. نعمت الزوجات أنت! وقالت أخرى: يا لله. هذه المرة الثانية أسمعك تتكلمين عن زوجك بهذه الروح. فهل كل حياتكما هكذا؟ فقالت: لا وحق من حدّد الأعمار. قضيت معه إلى الآن عشرين سنة ونحن في خير وسلام. ولكنه منذ تعرف جارتنا خسرت قلبه. فقالت الأخرى: إذاً المسألة مسألة غيرة. فالغيرة هذه نار يا ناس... أجابت: كلا. لست أغار. إنما زوجي علمني الغيرة. لأنه في البيت يحبني وفي الخارج «يدور على هواه». فقلت: الله. الله! أبعد عشرين سنة تحيي الغيرة؟ فقالت مدام ن: «معليش» الغيرة علامة الحب. فأجابت ربة المنزل: وهل الغيرة تعني الحب دائماً؟

فصمتن جميعاً فترة كأنهن ينظرن جواباً من خبيرة. ثم قالت إحداهن: هذا جواب خاص بمدام س. فإنها فيلسوفة حب ولها فيه الرأي الأعلى. فأجابت مدام س باسمة: حيث لا غيرة فلا حب. والحب يطرد الغيرة. إن الحب الصادق يستلزم الثقة. فحيث تكون الثقة متبادلة فلماذا الغيرة؟ فأجابت أخرى: لا بد من الغيرة في بدء الحب ريثما تتوطد الثقة فتطرد الغيرة. ولكن صاحبتنا بعد عشرين سنة صارت الغيرة تدب إلى قلبها. فهل غيرتها دليل على حبها أو ضعف في الخلق. عذراً يا مدام. إننا نقرر مبدأ فلسفياً.

فقالت أخرى: أنا لا أعرف للحب شريكاً. فإما حب أو بغض. ولا أفهم شيئاً من الثقة، لأن ثقتنا نحن النساء بالرجال أصبحت كثقة الشرقيين بدول الاستعمار. فإن كان لنا ثقة بهذه الدول فلنا ثقة بالرجال.

فقالت مدام ك: يا سلام. أدخلنا بالسياسة كالجلسة الفائتة؟ حماية واستعمار وانتداب وشرقي وغربي. دعينا من هذا الحديث الذي هو أطول من حديث الحيات. أو هو كما يقولون موال إفرنجي لا آخر له.

فسألت أخرى: ما هو موال الإفرنجي؟ فأجابتها: كان إفرنجي يرافق شرقياً في طريق مشياً على الأقدام. فهاج جمال المناظر الشرقي وقال للإفرنجي دعني أغني

موالاً وأنا راكب على ظهرك. فسمح له. ولما انتهى من مواله ونزل عن ظهره قال الإفرنجي: وأنا أحب أن أغني موالاً أيضاً فاركبني على ظهرك. فركب الإفرنجي وأخذ يغني ترالا لا لا لا لا إلى ما لا آخر له والشرقي يصيح من تحته أما انتهى موالك؟ فيجيبه ترالا لا لا لا. وهكذا بقي على ظهره طول الطريق ومواله لا ينتهي. وقالت المتكلمة متحمسة: والله هذه قضيتنا نحن الشرقيين مع الغربيين.

فأجابت مدام ن: أوليس حب الوطن حباً يستوجب الغيرة على مصالح البلاد. إذا كان الإنسان يغار على من يحبه ويكره أن يرى له شريكاً في حبه، فكيف لا نغار حين نرى الفرنساوي أو الإنكليزي يأتينا وهو ليس شريكاً لنا في البلاد فقط بل يكون أصيلاً فنصبح غرباء في بلادنا ويتم فينا وفيه قول القائل:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا   نحن الضيوف وأنت ربّ المنزل

قالت مدام س: والله لقد صدق فينا هذا القول. إذا كان هذا جزاء التناهي في الضيافة وحب الغريب وكرم الأخلاق فيا للخسارة. إذاً هيّا بنا نحن السيدات نثور على تقاليدنا هذه لنري أوروبا مثلما رأتهُ في حرب الدروز، فقد رأت كيف يثور رجال الشرق حرصاً على الشرف، فهلم نري الأوربيين أن في الشرق نساء كما أن في السويداء رجالاً. هيا بنا نوقد ثورة في طلب الحرية والاستقلال.

فقالت مدام ك: صه. لا تذكري الثورة فإن الجدران جواسيس.

فأجابت مدام س: نعم. نثور ونثور وسلاحنا التربية الصحيحة القويمة. نربي أولادنا تربية جديدة ونقلع تلك المبادئ القديمة التي ضيعت الشرق، أعني التناهي بإكرام الضيف وكرم الأخلاق ودماثة الطبع. بل نعلم أولادنا حب النفس وهو أساس كل حب.

فصاحت سيدة: بالله عليك اقصري هذا الحديث. إنني أضن بمبادئ الشرق الجميلة الشريفة، تلك المزايا الشرقية التي لا نجدها في الغرب.

فقالت مدام ن: بالله! أتريدين أن نبقى نعاجاً ومطايا والإفرنجي يغني على ظهورنا ترالا لا لا لا إلى الأبد. أما سمعت حكايات ضيوف الإفرنسيس في سوريا؟

فقلت: ما هذه الحكايات. فأجابت: علم الإفرنسيس أن الشرقي كريم يقدم

لزائره تحفة يعجب الزائر بها، وأن الشرقي يفهم أن الإعجاب براعة طلب ولا يرد طلباً. فصاروا كلما رأوا تحفة في بيت قالوا: ما أجملها. وصاحب البيت يقول: «مقدّمة» والفرنساوي ينتظر هذه الكلمة ليأخذها. وهكذا عاد كثيرون منهم بتحف سوريا إلى سوق الدلالة في باريس. قال السوريون: فرنسا حبيبتنا. فصدق الإفرنسيس، وجاءت فرنسا لتأخذ سوريا هدية من المحبين. فهل تعجبك هذه التربية؟ فإما أن نسلم بلادنا بكرم وسخاء ونبقى بلا فراش ولا لحاف أو أن نربي أولادنا ونسلحهم «بسلاح الغرب الجديد»، لكيلا يكونوا نعاجاً مستسلمة بل يكونون أسوداً تحافظ على شرفها وحقوقها في الحياة والحرية.

فقالت أخرى: ما هو سلاح الغرب الجديد؟ هل تعنين به الطيارات والدبابات... إلخ. فقد سمعت أن هذا السلاح لا يذكر بإزاء السلاح الأبيض الذي يحارب به الدروز.

فقالت: لا أعني هذا ولا ذاك بل أعني أسلحة أمضى وأرهف. وهي أن نعلم أولادنا أخلاق الغرب التي هي الطمع والأثرة وحب النفس والتضحية لأجل الوطن، والخشونة واحتقار كل ما لا يتفق مع مصالحنا. وبغير هذه التربية لا نستطيع أن نقاوم تيار الغرب الجارف الأعمى الذي لا يرى أمامه حقاً ولا إنسانية. أعني أننا نحارب الغربيين بنفس المبادئ التي يحاربوننا بها. لا نقدر أن نربي الكبار هذه التربية لأن الكبار رحمة الله عليهم سلفاً. أما الصغار فهم المنبت الجديد الذي يجب أن نربيه لكيلا يكون سمكاً لذيذاً على مائدة جمعية الأمم.

فقالت ربة المنزل: أعملن معروفاً وغيّرن هذا الحديث. إن مدام ل. إفرنجية تزوّجت سورياً وستزورني اليوم وأخاف أن تسمع هذا الحديث فتمجّه.

فقالت مدام ن: يا لله ما هذا الضعف يا مدام. لماذا لا نتكلم هكذا أمامها لكي تذهب وتحدّث قومها بما تسمع. ولماذا نخجل أن نكون أحراراً في بلادنا. اسمحي أن أقول لك أنك من أولئك الذين رحمة الله عليهم سلفاً.

فقالت: ما لي وما للسياسة، فأنا وتلك السيدة صديقتان وأحب أن نبقى صديقتين. فأجابت: إننا ندفع ثمن هذه الصداقة غالياً جداً يا مدام. فأنا لا أستصوب هذه الصداقة لأني أحب أن تبقى بلادي لأولادي. الآن كنت تقولين إنك كنت تحبين زوجك وتغارين عليه ولا تريدين شريكة لك في حبه، فكيف تقبلين صداقة هؤلاء الأجانب وهم يشاركونك في بلادك ويسلبون إرث أولادك ويحتقرونك ويذلونك. فوالله عارٌ علينا نحن السيدات أن نقبل ذلك. فهيا بنا نثور ثورتنا أيتها السيدات. وويل للمغلوب إذا نهضت السيدات الشرقيات. وهم يقولون الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم. فإذا الرجال اختاروا السلم فالنساء سيحاربن إلى الأبد.

وفيما نحن في هذا الحديث دخلت سيدة على آخر موضة وهي «تتحنجل» كأنها الحمام المحجل وقالت: دعنَ هذا الكلام الفارغ. لا شرق ولا غرب. نحن لا نعرف أن نعيش بدون غرب.

فقالت إحداهن: ما هذا الكلام يا مدام. فأجابت: نعم لا نعرف أن نعيش من غير الاستعانة بالغربيين. أمس أعطيت فسطاناً لخياطة سورية فأتلفت موضته ورميته. وأمس كلفت نجاراً وطنياً أن يصنع لي خزانة فذقت المرّ من تسويفه ومماطلته قبل أن أنجزها وكانت «بهدلة». لا لا دعينا من هذا الكلام الفارغ.

فقالت مدام س: لهذا يجب أن نثور ثورتنا. يجب أن تخلعي هذه الموضة الإفرنجية وتلبسي زياً وطنياً لا يعرف أن يصنعه إلا أبناء البلاد. إلى الثورة يا سيدات إلى الثورة.

فصفقت جميع السيدات. وعند ذلك دخلت الخادمات بالشاي والحلويات.

عيد سعيد يا مدام. يعاد عليك وأنت رافلة بحلل الاستقلال. وأظن أن الثورة انطفأت عند عتبة الباب. رحمة الله على القائل «لنا الأقوال ولهم الأفعال».

شباط 1926

السيدات والمعرض المصري

قرع جرس التلفون. خير إن شاء الله. لبيته، فإذا الطارق صديقة قديمة تقول: جئت إلى مصر لمشاهدة المعرض، فهل يسعدني الحظ أن نذهب معاً إليه. فقلت: إنه لمسعدني.

واتفق أن كان يوم زيارتنا للمعرض اليوم المختص بالسيدات. فسرّني هذا الاتفاق جداً لأني توقعت فيه ثلاث رغائب معاً: الأولى زيارة المعرض، والثانية الاجتماع بصديقة قديمة كان الزمان باخلاً بلقائي بها. والثالثة أني أستبضع بضاعة الحديث في باب «مجالس السيدات» هذا، على أمل أن تكون بضاعة نفيسة.

«بأبي الشموس الشارقات شواربا»

دخلنا إلى المعرض فإذا به يغصُّ بالنساء من كل الطبقات والجنسيات فكأنه لم يكن معرض الزراعة والصناعة بل كان معرض الأزياء والعادات. فمن جمال طبيعي إلى جمال مستعار. ومن وجوه لا تميل عينك عنها إلى وجوه لا تستقرّ العيون عليها. ومشينا بين ماشيات وجالسات وزاهرات وباهرات، ومقنعات وسافرات، وسواعد كاسيات وعاريات، وعيون فاترات ناعسات، ولواحظ نابهات ويقظات، وقدود مائسات أو مائلات، وأعناق متلعات تارة وأخرى ملتفتات، وألسنة لاغطات بعضها كأزيز النحلات اللاسعات، وبعضها كهيمنة النسمات العطرات - كذا كان المعرض جديراً بأن يدعى معرض السيدات، لا معرض الزراعات والصناعات.

قلت في نفسي إذاً لقد توفقت اليوم إلى حديث بل إلى أحاديث شيقة لقارئات مجلة «السيدات». فطفنا أرجاء المعرض وشاهدنا بدائعه وروائعه من آلات زراعية مختلفة الأشكال والأغراض، إلى حاصلات الأقطان والحبوب والخضرة والفاكهة، إلى نتاج الماشية وكلها مما يشهد بتقدم الزراعة في البلاد تقدماً محسوساً في العقد الأخير من السنين.

ثم عكفنا على قسم المصنوعات، فأعجبنا أيما إعجاب بصناعة الموزاييك البديعة من مصنوعات المدرسة الإلهامية. كما أننا دهشنا لإتقان صناعة السجاد المضاهي بجماله السجاد العجمي على أنواعه والمتفوق عليه بمتانته. ثم استغربنا كل الاستغراب إتقان صناعة الأنسجة على اختلاف أنواعها ولا سيما أنسجة معامل السيد اللوزي الحريرية - وإنما تلا هذا الإعجاب وذلك الاستغراب أسف عميق على قلة إقبال أهالي البلاد على نتاج هذه الصناعات ولا سيما صناعتي الموزاييك والسجاد اللتين لا تضاهيان في الغرب.

ثم ارتحنا في إحدى القهوات التي جعلت للاستراحة. وما هي إلا هنيهة حتى أقبلت علينا سيدتان أخريان من صديقاتنا. فقلت: مرحى أيها المعرض الجميل العظيم الجامع شمل الأصدقاء. فجلسنا بعد التحيات والأشواق وبسطنا جميعاً أبسطة الأحاديث المختلفة عن المعرض وغيره. وقالت إحداهن: لهذا المعرض فوائد جمة ومنها اجتماع الأصدقاء بعد فراق طويل، فما أبهج اجتماعنا الآن.

وقالت الأخرى: ولكن له مساوئ أيضاً. ولعل مساوئه تجمعت في هذا اليوم. فقلت: كيف ذلك؟ قالت: شاهدت اليوم أموراً كثيرة لم أكن أود أن أراها أو كنت أود أن أجهلها بتاتاً.

اندلاق النساء

قلت: عجباً ما الذي ساءك؟ قالت: ساءني أن أرى نساء بلا رجال. قلت: لله منك وماذا في ذلك؟ قالت: ما رأيت في حياتي النساء «يندلقن» كما «اندلقن» اليوم.

فاستغربت أسلوب تعبيرها وقلت لعلك تعنين أنهن يتدلعن. فقالت: بل أعني أكثر من ذلك. أعني أنهن «مائعات» دلعاً حتى أنهن تدفقن استهتاراً بالآداب والكرامة والسلوك. فكانت كل واحدة منهن تتصرف كأنها داخل غرفتها الخصوصية. فارتفعت الكلفة بينهن ونزعن براقعهن وبرانيطهن حتى أحذيتهن.

فقالت أخرى: ويك لا تختلقي. فأجابت: ثقي أني لست مبالغة. رأيت بعض السيدات يمشين بالجوارب وأحذيتهن تحت آباطهن. ورأيت بعضهن يحتذين البنطوفلي.

فقالت أخرى: اعذريهن. لعل أحذيتهن العالية الكعب آلمتهن فخلعنها.

فأجابت: بل الحذاء الواطئ الكعب استاء من إعراضهن عنه فجفاهن اليوم. فاضطررن أن يمشين حافيات إذ تألمن من علو الكعب.

فقالت أخرى: لعلهن أن حذاء الزيارات غير حذاء المعارض. فقلت: وأي حال أهم من حال العرض. فقالت: أخرى أظنهن من طبقة الخادمات اللواتي يتشبهن بسيداتهن، وليس للخادمة سوى حذاء واحد عالي الكعب تحتذيه للزيارة ولسوق الخضار وللمعرض.

فقالت صديقتي الأولى: لا تجعلي يا عزيزتي حدّاً بين السيدة والخادمة. فقد رأيت بين السيدات اللواتي تدلّ حلاهن وحللهن على أنهن من الأميرات أو أشباه الأميرات يتصرفن تصرفات لا تتصرفها حتى الخادمات. فكنّ مثلاً يلمسن بأيديهن مع أنه كتب عليها «ممنوع اللمس بالأيدي».

فقالت أخرى: لعلهن لا يعرفن القراءة. فقالت: إذاً هن كالبعير يحمل أسفاراً. وما قولك باللواتي مشين حافيات هل كنّ يجهلن أن حذاء الزيارة لا يصلح للمشي في معرض طويل عريض؟

فقلت: وهؤلاء معذورات إذا كن لا يعرفن القراءة لأن المطالعة تعلمهن ما يجهلنه. فقالت: ولكنهن لم يكن جاهلات في أحاديثهن ومجونهن وهزلهن ومزاحهن بل كن بارعات حاذقات يتفنن في النكات والتوريات القبيحة ويتخلعن في مشيهن. إذاً جهل القراءة والكتابة لم يقلل من براعتهن في الخلاعة.

النساء بلا رجال

قلت: إذاً قد أخطأت إدارة المعرض إذ خصتهن بيوم لأنها تظن أن الحريم المحجبات لا يأتين إلى المعرض إذا كان فيه رجال...

فقاطعتني قائلة: لقد أحسنت إدارة المعرض إليهن إذ أخلت لهن الجو فأطلقن لحريتهن العنان. وبدا كل ما كان مكتوماً في الصدور.

فقلت: لهذا أقول إن كل نظام يفرق بين النساء والرجال يكون وبالاً على

الآداب. ولو كان هذا الجمع العظيم الآن خليطاً من النساء والرجال لكان كل جنس يكبح جماح ابتذاله حرصاً على كرامته أمام الجنس الآخر. ففي يقيني أن اجتماع الجنسين مهذب لهما.

فقالت أخرى: لا خير في التهذيب المصطنع. فقلت: إن التهذيب الحقيقي يتغلب أخيراً على التهذيب المصطنع. فقالت صديقتي: هذا إذا كان هناك زعيمات للتربية والأخلاق كما أن هناك زعيمات للسياسة.

فقلت: تتكلمين «كأنك غريبة في أورشليم». ألا تدرين أننا في بدء نهضتنا وأن بيننا راقيات. أما رأيتن تينك السيدتين اللتين دخلتا معنا ومعهما فتاة كانت تشرح لهما المكتوب وغير المكتوب، ثم دخلت بهما إلى قاعة المحاضرات. هذه الفتاة أنموذج النبت الجديد في نهضتنا الحديثة.

ثورة البرنيطة على الطربوش

فقالت رفيقتي: حقاً إننا نحن نطلب دائماً أن نمشي بخطى واسعة. ولكن خطى حياة الشعوب قصيرة بطيئة. فقالت أخرى: ولكن ما قولك بثورة الطربوش والبرنيطة في مصر الآن؟ أليست محاولة وثبة سريعة. فقالت تلك: الحق إن موضوع البرنيطة والطربوش غريب جداً. ولا أفهم لماذا هذه القيامة على الشبان الذين يريدون خلع الطربوش ولبس البرنيطة. والسيدات يلبسن برانيط فلماذا لا يلبسها الرجال أيضاً. فقالت مدام س: من قال إن ما تفعله السيدات صواب. والله إنهن مخطئات جداً ليس من حسن الذوق أن يلبس الرجال أو النساء البرنيطة في هذه الأوان.

فأجابت مدام ك: وما قولك إذن بالأتراك الذين جعلوا لبس البرنيطة قانوناً محتوماً. فقلت إن الأتراك استقلوا استقلالاً مطلقاً على النظام الجمهوري البحت أو الحكم الذاتي وراموا أن يتمموا تطورهم بخلع كل تقليد قديم فخلعوا الطربوش والعمامة وتبرنطوا. وبغيتهم أن يسيروا في تيار أوروبا. أما نحن فما زلنا ننازع أوروبا المغتصبة استقلالنا. والآن نحن في أحرج أوقات النزاع والدماء تسيل والمساكن تهدم، فهل من حسن الذوق أن ننبذ زياً قديماً لنا وأن نضع زيهم أو

شعارهم على رؤوسنا. مهما كانت البرنيطة أفضل صحياً واقتصادياً من الطربوش، لا يحسن بنا أن نضعها على رأسنا ونرمي طربوشنا لأجلها ونحن في نزاع شديد بيننا وبين أصحابها. لقد ملأوا الدنيا جعجعة بمدنيتهم ومفاخرةً لنا بها. فإذا كنا نتهافت على أزيائهم كنا كأننا نؤمن على فظائعهم التي يرتكبونها في بلادنا وهم يعدونها تمديناً. فبيننا وبين الأتراك فرق في الموقف فإذا كان إبدال البرنيطة بالطربوش محمدة عندهم، فهو مسوءة عندنا الآن. وإذا كان للطربوش مساوئ صحية أو اقتصادية تستلزم استبداله فلماذا نستبدل به القبعة الأوروبية؟ لماذا لا نخترع لنا غطاء للرأس غيره وغير البرنيطة كما فعل العراقيون إذ استنبطوا شكل برنيطة جميل غير شكل البرنيطة الأوروبية، فما كانوا مقلدين لخصومهم ولا مقيدين بتقليد قديم. لماذا لا نفعل فعلهم؟ لماذا لا نختلق غطاء جديداً جميلاً لرؤوس السيدات أيضاً وننبذ البرنيطة الأوروبية التي تستنزف جانباً من ثروة الشرق وتصبها في أوروبا. إني أرى أن الحالة الحاضرة في الشرق الأدنى عموماً تستلزم عقد مؤتمر خاص بالأزياء يشترك فيه النساء والرجال ليقرروا أزياء جديدة عمومية لرجال الشرق ونسائه عموماً. وبذلك نثبت أننا مستقلون بأفكارنا ومستغنون عن الغرب.

فأجابت صديقتي: والله إنك لعلى حق. إن أوروبا تستعبد الشرق. والشرقيون يجرون وراءها جري الغنم وراء الجزّار. فماذا يمنعها أن تشمخ وتتفاخر وتستفحل. إن الخطوة الأولى للتملص من استعبادها هي أن نقنعها بالعمل لا بالقول أننا في غنى عنها بكل شيء. ومن الغباوة أن نظن أننا لا نستغني عن أوروبا. نقدر أن نعيش بما ننتجه وبما نصنعه مهما كان ونقدر أن نصنع عندنا جميع ما نحتاج إليه. والكلام بسرك إن شكل الطربوش أجمل من شكل البرنيطة لعلَّ الشبان لا يعلمون ذلك. فليستفتوا الشابات به قبل أن يقرروا أمراً بهذا الشأن.

نبوية موسى

عند هذا الحديث مرَّ بنا سربٌ من السيدات وهنَّ بغاية الحشمة والوقار يحففن حول سيدة جليلة المظهر، فتساءلنا عنها فقيل لنا أنها السيدة نبوية موسى. فسألت إحدانا وهي قادمة حديثاً إلى القطر المصري: من هي نبوية موسى؟

فقلت: يا لله، ألم تسمعي باسم هذه المربية المشهورة المفتشة في وزارة المعارف، ومن يجهل مقامها وقد تردد ذكرها أخيراً كثيراً في الجرائد الآن لخلاف وقع بينها وبين معالي وزير المعارف.

فقالت إحدى الصديقات: أجل هذه السيدة أصبحت أشهر من نار على علم من قبل أن يقع خلاف بينها وبين معالي الوزير. هنا يحفلون ويحتفلون ويكرمون أشخاصاً ليس لهم شيء من الفضل الذي لنبوية ولا يفطنون أن يكرموا سيدة كنبوية تبني في أخلاق الأمة.

وقالت تلك: عجباً. إذا كان لهذه السيدة هذا الشأن العظيم فكان يجب أن تطير شهرتها في آفاق البلاد العربية ويسمع بها الداني والقاصي.

فقلت: ألا تعلمين يا عزيزتي أن الجواهر الرزينة لا تطير كالريش المزخرف الفارغ القلب. ومن نكد الدنيا أن الناس تستهويهم البهارج والزخارف أكثر من الحقائق. إن السيدة نبوية عاملة بسكوت وهدوء وبلا ثرثرة ولا طنطنة فقلما ينتبه أحد لفضلها.

فأجابت رفيقتي: إن العظمة الحقيقية هي في من يعمل لأجل العمل لا لأجل التمجد والفخفخة والظهور. فقالت أخرى: إن سيدة لها هذه الصفات التي تقولان عنها تستحق مكافأة من الحكومة التي تسخو بالألقاب والرتب. فإذا غفل الناس عن استحقاقها التكريم فهل تغفل وزارة المعارف عن حقها بالمكافأة التي تستحقها.

فقلت: إن وزير المعارف رئيسها الأعلى كافأها بالإهانة وغضب عليها لتنبيهها الوزارة إلى بعض العيوب في إدارة المعارف. فقالت صديقتي: عجباً أن تجازى جزاء سنمار وتبقى سيدات القطر ولا سيما تلميذاتها والمتخرجات من تحت يدها صامتات لا يحتججن على ذلك. إننا في عصر المطالبة بالحقوق واستردادها. ومن يسكت عن حقه ضاع عليه.

فقالت أخرى: حبذا أن تتفق بعض السيدات على تأليف جمعية غرضها الدفاع عن حقوق المرأة والمطالبة بها. حتى إذا هضم حق سيدة كنبوية موسى قامت هذه الجمعية للدفاع عنها.

فرقتان من السيدات في حرب

وكانت سيدة وطنية على مقربة منا تسمع حديثنا فما تمالكت أن قالت: بارك الله به اقتراحاً. إن بعض حوادث الشرق الأخيرة أثبتت لنا أن السيدات يستطعن ما لا يستطيعه الرجال في تحصيل الحقوق الضائعة. ولذلك يجب على السيدات أن ينهضن للعمل ما دام عملهن عظيم الجدوى وإلا كنّ مسؤولات لدى التاريخ. وها الثورة السورية برهاناً محسوساً على تأثير السيدات في الدفاع الوطني. وقد عدت من الشام حديثاً ونار الثورة تتأجج بين أيدي السيدات. واليوم قرأت في إحدى صحفنا هنا تلغرافاً مفاده أن الثوار ألفوا فرقتين من النساء للقتال. فلم أستغرب الخبر. لأني وأنا هناك علمت أن عصابة من النساء تألفت بقيادة السيدة عائشة الزند. وقد قامت هذه العصابة بخدمات جليلة. وقيل أنها أرسلت أخيراً خطاباً إلى فخامة المفوض السامي ده جوفنل تقول له: «لقد أنذرت الثوار أخيراً بأنك لا تقبل صلحاً إلا على مبدأ التسليم بلا قيد ولا شرط. فإن كان شرف فرنسا يستلزم هذا الإنذار فما عليها إلا أن ترسل جنودها لمنازلة النساء. فقد رأوا من حرب رجالنا كفاية فليروا حرب نسائنا الآن».

فقالت أخرى: يا لله! ويا للعجب. إذن ما كنا نقرؤه في التاريخ عن بطولة بعض النساء كجان دارك ليس حديث خرافة أو مبالغة تاريخية. وها نحن الآن نعاصر بطلات وباسلات، لا شك أن عائشة الزند هذه جان دارك سوريا.

فقالت أخرى: لم تعرف فرنسا إلا جان دارك واحدة وأما سوريا فستعرف ألف جان دارك. أما قرأتن خطاب أخت فقيد الوطن فؤاد بك سليم لأخيها الآخر نصري بك سليم الذي يشارك في الحرب.

فقلنا جميعاً: وما أمر هذا الخطاب. قالت: لقد أعجبت بذلك الخطاب أيما إعجاب وتلوته مراراً حتى حفظت بعضه. فبعد أن بثت ما بثت من لواعج الأسى والحزن على أخيها فؤاد قالت: فليكن قدوةً لكل عربيّ يريد أن يحيا مجيداً أو يموت شهيداً. ثم قالت موجهة الخطاب لأخيها نصري: أما أنت فإني وإن أكن أصبحت أخاف عليك خوف الجبناء على أنفسهم فلا أنصح لك ولا أسمح أن تترك جهادك

المقدس. وإياك أن تغفل عن أن تعزيتي هي في بقائك محارباً بسيف أخيك لكي تبني مجداً لقومك وعزاً لاسمك - إلى غير ذلك من هذا الكلام الحماسي. فقالت أخرى: ليت الإفرنسيس يعلمون أن سوريا ليست لقمة سائغة بل هي عنب حامض، لعلهم يرعوون.

فقالت أخرى: حبذا أن يتساهل الثوار في طلباتهم تمهيداً لعقد الصلح وحقن الدماء.

فقلت: وحبذا أن يتساهل الإفرنسيس أيضاً. لقد تساهل الثوار وتنازلوا عن أشياء من حريتهم. فليتساهل الإفرنسيس بشيء من مطامعهم ولا سيما إذ رأوا أن الصلف والبلف لا يكسبان نصراً.

عند ذلك مرّ بنا موكبٌ من الطالبات ألفت أنظارنا وبتر حديثنا، فوقفنا مسرورات مبتهجات بهذا الموكب الجميل الذي كان فصل الخطاب. والله المسدد الخطى إلى الصواب.

آذار 1926

قصة للعرسان والعرائس
قبل الزواج وبعده

ـ ولماذا ترفضين قبولي زوجاً لك أيتها المدموازل؟

ـ إنني أرفض القبول لأنني أفضل العزوبة على الزواج. لأنني بالعزوبة أستطيع أن أنفع أهلي وصديقاتي والهيئة الاجتماعية وأنا سعيدة الآن، كما أنفعها وأنا تعيسة بعد الزواج. فإنني إلى الآن لم أرَ زوجاً عاقلاً ترضى به نفسي. وعدا هذا، كيف تريد أن أقبل طلبك؟ أم كيف تقبل أنت بذلك ولم ترني سوى مرتين: واحدة في الكنيسة والأخرى في التياترو؟ وقد رأيتني بمظاهري الرسمية الخارجية فقط. ألا تخاف أن يكون وراء ذلك أشواك تدمي الأصابع. وهل نظرت مني غير الإنسان الخارجي؟

قالت المدموازل فريدة ذلك ثم شخصت بنظرها إلى فريد أفندي كأنها تقرأ أخلاقه. فازدادت رغبته فيها بعد كلامها، فأجاب:

ـ تعلمين أيتها المدموازل من هيئتي أنني رجل في السادسة والثلاثين من عمري. ومن كان في سني يكون مصيباً في بعض أحكامه إن لم أقل فيها كلها. فأنا عشت إلى الآن قاطعاً كل أمل لي بالزواج، لأن ما أراه من بنات هذا الزمان جعلني أكره المعيشة الزوجية وأهابها. وذلك لما بلغته بناتنا من الإسراف والجهل. ولم أجد واحدة في الألف بين النساء أهلاً لهذه المسؤولية. فالفتاة الغنية لا تفتكر إلا في زينتها ومسراتها ولا تعلم شيئاً من واجباتها الحقيقية. والفتاة الفقيرة تنفق وقتها ومالها وتعبها بتقليد الغنية من جهة التزين والموضة، حيث لا دوطة لها، وظناً أنها بذلك تبلغ شأو رفيقتها. فما أبعد هذه الأفكار عن أفكارنا نحن الرجال خصوصاً العقلاء منا. وهذا هو السبب الذي من أجله لم أجد إلى الآن فتاة أستطيع أن أختارها شريكة لحياتي. على أني يوم رأيتك في الكنيسة واقفة في زينتك البسيطة وسط صاحباتك المتزينات بأفخر الثياب وأنت غير مخجلة لوقوفك بينهن بتلك

الثياب البسيطة، عددتك بين أصدقائي الأخصاء. وفي المرة الثانية نظرتك في التياترو فلم أنس استياءك من بعض مشاهد تلك الرواية بينما كان الجميع يقهقهون ضحكاً منها. أفلا تظنين أن هذه الأمور دلائل كافية على حسن الباطن؟

فأطرقت فريدة إلى الأرض خجلاً ثم قالت: أشكرك على حسن ظنك بي. إنما أعيد ما قلت إنني غير راغبة في الزواج لأنني تعودت الحياة الحرة الخالية من كل قيود. وإرادتي الشديدة لا تسلم بالخضوع. فلذلك لا أريد أن أربط نفسي بالزواج. إنني أذكر كلمة قديمة للروسيين في صلاة الإكليل إذ يقال للزوج «استلم الحمل الآن أيها الذئب»، فأنا لا أريد ولا أقدر أن أكون حملاً. ولذلك سأبقى قانعة ببقائي كما أنا إلى الآن.

فنظر إليها الشاب وقال: عفواً يا سيدتي أرجو أن لا أكون أنا أيضاً ذئباً.

فرفعت إليه نظرها وأجابت بحدة: من أين نعرف نحن البنات المسكينات ذلك. قلت مسكينات لأننا ننغش بمظاهركم أنتم الرجال. فإنكم تظهرون دائماً بثياب الحملان قبل الزواج. أما بعده فذئاب خاطفة. ولكن ليس اللوم عليكم دائماً لأن بنات هذا الزمان يجبرن حتى أعقل الرجال على أن يكونوا كذلك.

فأجاب الشاب: لقد سلمت نفسك بيدك. فإذا كان الحال كما تصفين من جهة البنات فإنني أظن أننا سنكون سعداء معاً. إذ لا أشك بعقلك وحكمتك. ففي يدك جعل زوجك شقياً أو سعيداً.

فتضايقت الفتاة لكلامه وقالت: إذا كان كل النساء قبلي قد فشلن من جهة سلوكهن فلا أظن نفسي أنني الواحدة في الألف القادرة أن تنجح. ولا أظن صلاة الإكليل القصيرة ستغير أخلاقي. وإنني أنظر إلى الزواج كما أنظر إلى الموت. غير أنني أموت مضطرة وأما في الزواج فإنني أتزوج مختارة. فلذلك عزمت على ترك هذا الاختيار أبداً. فأرجو أن تعدل عن عزمك ولا تزعجني فيما بعد بالكلام في هذا الموضوع.

فأجاب الشاب حينئذٍ متلطفاً: اصفحي عن تكديري خاطرك واسمحي لي أن أقول جملة فقط وهي لو كنت تحبينني لما كنت تفتكرين بالزواج هذه الأفكار السوداء ولما كنت تخافينه. إذ أن المحبة تدوس كل صعوبة.

فصبغ الحياء وجهها وقالت: لا أريد أن أحب لأنني لا أريد أن أضع سروري وراحتي تحت رحمة الغير. قد جربت ذلك مرة في حياتي فكانت حياتي شقاء. ولم أكن لأفتكر أنا بذلك لو لم يضع ذلك الشاب الذي كنت أظنه مخلصاً وفاضلاً ذلك الحب في قلبي. وهكذا صرفت مدة سنتين بالعذاب وكان هو على غاية ما يكون من راحة ضميره الميت. ومن ذلك الحين سقطت ثقتي في كل الرجال. لأنه إذا كان النور ظلاماً فكيف تكون الظلمة. وعدا عن هذا فإنني أصبحت في الثامنة والعشرين من عمري. وفي هذه السن يصعب وجود من يمكن أن أحبه لأنني صرت كثيرة الانتقاد. قل لي أين الرجال الذين تُحسد نساؤهم لحصولهن عليهم. وكم هم الرجال الذين يحترمون نساءهم احتراماً حقيقياً ويظهرون لهم الإكرام إلا أمام الناس. فهل يقف الرجل عند دخول زوجته الغرفة ويقوم يفتح لها الباب لتخرج، أو يلتقط ما كان قد سقط منها إلى الأرض إلا إذا كان في البيت زائرون. وأين استحسانه ذوقها وثيابها والرضاء عن كل ما تصنعه كما كان قبل الزواج. ألا يظهر كل هذه الآداب للإمرأة الغريبة عنه بدلاً من إظهاره لزوجته؟

فأجابها الشاب برزانة وهدوء: إنني أسلم معك بكل ما قلته، ولكن لي عليك أن تعدلي في حكمك. فأين رغبة الفتاة في إرضاء زوجها ولبسها كل ما هو جميل وصنعها كل ما هو حسن ولقائها الباش له عند دخوله البيت. هل كل ذلك بقي كما كان قبل الزواج؟ إذن الذنب مشترك. فأجابت الفتاة: لك الحق في كل ما تقول إلا بإقناعي. فاتركني بأفكاري الجميلة. وإذا كاشفتك سري فلا شك أنك تدعني وشأني. إنني سأدخل في سلك الأخوية لأكون ممرضة وأصرف حياتي بهذه الخدمة الشريفة النافعة للناس.

فضحك فريد وقال: يمكنني أن أصدق كل ما تقولينه إلا هذا. لأنه كيف يمكنك ترك بيتك وأهلك الذين لا تجدين لذة إلا معهم لتذهبي وتنضمي إلى أخوية غريبة. أنك لا تعلمين ما في هذا من الصعوبة.

فقالت: بل أعلم كل شيء قبل صنعه.

فهنا علم الشاب قوة إرادتها وإصرارها على عزمها، فافتكر قليلاً ثم قال: افعلي ما تشائين. إنما أرجوك أن تخبريني بعد انقضاء ثلاثة أشهر على هذا اليوم إذا كنت

تريدين قبولي زوجاً لك أو لا.

فأجابته: ما معنى الانتظار إلى ثلاثة أشهر وأنا قادرة أن أعطيك الجواب الآن وقد أعطيتكه.

فقال: ذلك ما نتمناه. فأرجو من أدبك ولطفك أن تفعلي هذا على الأقل.

فقالت: إذا كان هذا كل ما تتمناه فسأفعله.

وقد لجأ هذا الشاب إلى هذه الحيلة لأنه قد كبر عليه إفلات هذه الفتاة من يده لغير سبب غير الإصرار وفقدان ثقتها بالرجال. وقد تعلق بها حينئذٍ تعلقاً شديداً لأنه رآها خير امرأة تصلح أن تكون زوجة وأماً وربة بيت. ذلك إن هذا الشاب كان من العقلاء الذين يرددون دائماً في أذهانهم قول سليمان الحكيم: المرأة العاقلة من يجدها، فإن ثمنها يفوق ثمن الجواهر واللئالىء.

أما الفتاة فقد عادت وهي مشغولة الفكر. لأنها رأت في هذا الشاب ما لم تره قبلاً في الشبان من سمو النفس وحسن الأدب وكرم الأخلاق ومعرفة الحقوق والواجبات، فلبثت تفتكر فيه مدة الأشهر الثلاثة. وكانت كل يوم تزداد ميلاً للطفه وأدبه. ولما مضت الأشهر الثلاثة وأرسل الشاب يطلب جوابها الأخير وهو بين اليأس والرجاء، كان جوابها تلك الكلمة التي يحلو وقعها في أذن الشاب الطالب وهي: نعم.

فسُر الشاب بفوزه. وبعد أيام قليلة جرى عقد الزواج وانتقلت الفتاة إلى بيتها الجديد. واستغربت كيف تغير لون الزجاجة التي كانت تنظر فيها حالة الزواج عما قبل لأن كلمة الخضوع والطاعة التي وردت في الإكليل لم ترعبها كما توهمت قبلاً، بل كل شيء كان حسن الوقع في سمعها إلا وعظ عمتها لها قبل الاقتران إذ أوصتها بالاحتراز من أول نفور يقع بينها وبين زوجها فإن سعادتها في المستقبل متوقفة على كيفية هذه البداية. أما الفتاة فأجابتها: لا داعي لكل هذا الكلام لأننا متشابهان في كل الأمور. فلنا مطمع واحد ورأي واحد ومقصد واحد.

وفي ثاني يوم الزفاف قصدت العروس الذهاب للكنيسة. وحسب عادة العرائس في مثل ذلك النهار لبست أفخر ثوب وأجمل قبعة (برنيطة) كانت قد أعدتها لذلك

اليوم. فلما رآها زوجها لمح إلى عدم رضاه بذهابها إلى الكنيسة في هذه القبعة. فأجابته: عجباً لقد سمعتك تقول إن هذه القبعة تعجبك كثيراً. فأجابها: لا أنكر ذلك فإنها بغاية الذوق ولكن ليس لمحل كالكنيسة. فبكل أسف ردَّت العروس هذه القبعة وأتت بقبعة أخرى. فقال لها الزوج: ولا هذه أيضاً فإنها كثيرة الريش تستلفت الأبصار. فإنك كما يقولون عروس جديدة وأعين الجميع تكون متجهة إليك. وإنما أطلب إليك أن تلبسي ذات البرنيطة البيضاء التي نظرتك بها يوم جدالي معك بشأن الزواج فإنك تعجبينني بها كثيراً. هذه إرادتي أنا فافعلي بعد ذلك إرادتك... قال هذا ثم عاد عنها.

فوقفت الفتاة تتأمل والدموع بعينيها وتقول: إنني لا أحب الإفراط في التزين ولكن ماذا أعمل بكلام الناس. فإنني إذا لبست البرنيطة التي يريدها زوجي ربما صرت أضحوكة بين الناس. وإن لبست ما يريده الناس تكدر زوجي. فماذا أصنع يا رباه ومن أين لي قوة أدبية أستطيع أن أقاوم بها الرأي العام.

وبينما هي في هذه الحيرة، خطرت في بالها وصية عمتها قبل الزواج وهي الاحتراز من أول نفور يقع بينهما. فأسرعت بالحال إلى البرنيطة البيضاء التي طلبها زوجها ولبستها. وحين خرجت نظر إليها زوجها ضاحكاً وقال: ما أجملك الآن. ليس ببرنيطتك بل بأفكارك الجميلة الظاهرة آثارها في عينيك وعلى جبهتك وبقوتك الأدبية التي استطعت بها مقاومة عادة كهذه.

وبعد مرور سنة على زواجهما كأنها لحظة قال لها ذات يوم: أرى أنك قد برهنت في سلوكك يا عزيزتي أنك امرأة بمقام ألف. وكم أنا سعيد الآن لحصولي عليك. ولكني أتأسف على الزمن الذي مضى بدونك لأنك جعلت حياتي الآن غير حياتي قبل الزواج. وإنني أستغفرك لتداخلي بمسألة البرنيطة يوم ذهابنا إلى الكنيسة لأول مرة. ولم أكن لأفعل ذلك إلا خوفاً من وقوعك بنفس مرض النساء وهو حب الإفراط بالتزين خصوصاً في المعابد. فاصفحي عن غلطتي، وإني أعدك بعدم تداخلي فيما بعد بأمر من أمورك. فأجابته فريدة: كلا يا عيوني، فإن لك كل حق بالتداخل في أموري وشؤوني. ولست أريد أن ألبس ولا أن أعمل شيئاً بدون استشارتك ورضائك.

حزيران 1926

ثورة أدبية في مسألتين:
زواج المعلمات وإلغاء البغاء

أثيرت في الصحف المصرية مسألة حيوية طالما حاولت إثارتها من قبل فلم تنجح لأن ذوي الأمر والنهي لم يكونوا في ما مضى يحسبون حساب أقوال الصحف كما يحسبونه اليوم. أما المسألة فهي إلغاء البغاء الرسمي، أي امتناع الحكومة عن إعطاء «رخص» للمومسات تجيز لهن أن يحترفن البغاء حرفة للتعيش.

وفي الوقت نفسه أثيرت مسألة أخرى ذات أهمية أيضاً هي جواز زواج المعلمات وبقائهن معلمات حتى في عهد الزواج. ذلك لأن وزارة المعارف لا تقبل في مدارسها معلمات متزوجات.

مسألة زواج المعلمات

حبذ هذه المسألة كثيرون وكثيرات، واعترض عليها آخرون وآخرات. وأهم وجوه الاعتراضات هو أن الزوجة وهي حامل ومرضع لا تستطيع أن تقوم بوظيفة التعليم كالواجب. وأهم نقطة في الردود على هذا الاعتراض أن المعلمة المتزوجة تستطيع أن تتغيب برهة النفاس القصيرة وأن تسلم طفلها بعد ذاك لمرضع مأجورة أو لمربية.

أما نحن فنرى أن وجوه الاعتراضات أوسع مما قيل جداً. فسنة الزواج الاجتماعية في كل مكان وزمان قضت بأن يقتسم الزوجان العمل العائلي: الرجل يسعى إلى الرزق والمرأة تتولى إدارة إنفاقه. الرجل يشتغل في خارج البيت لكي يكسب المال، والمرأة تشتغل في داخل البيت لكي تدبر مهام العائلة. وكلا الشطرين من العمل متساويان أهمية، كل منهما يستنفد قوى كل من المتشاطرين. أي أن عمل الزوجة في المنزل لا يقل أهمية عن عمل الزوج، بل يفوق عليه إذا أريد إنشاء عائلة صالحة للعضوية في جسم المجتمع. إن تربية الأطفال جسداً وعقلاً كالواجب

لمهمة عظيمة الشأن تستنفد كل قوة الزوجة وذكاءها. فكيف إذا أضيف إليها تدبير المنزل؟ وما قولك أن يضاف إلى هاتين الوظيفتين الدقيقتين المتعبتين وظيفة التعليم في المدرسة أيضاً؟

أما أن تستأجر المعلمة الزوجة مدبرة لمنزلها ومرضعاً ومربية لأولادها لكي تتفرغ للتعليم فهو عمل هادم. لأنه لا يكفل تدبير المنزل كربته. ولا يضمن تربية الطفل وإرضاعه كأمه. وإذا كان يستنكر طبياً واجتماعياً على الزوجة التي في غنى وسعة أن تكل أمر أولادها إلى مرضع ومربية، فبالأحرى أن يستنكر ذلك على زوجة مكتسبة من التعليم. إن ما تكسبه المعلمة من المال أجرة للتعليم لا يغطي نفقات المرضع والمربية، والخسائر التي تحدث بسبب إهمال المأجورتين ورعونتهما. ناهيك عن أن التربية المأجورة لا تكون متينة ولا صالحة مهما كانت المربية المأجورة مخلصة وأمينة وعارفة. زد على ذلك أن الحصول على المراضع الموافقات صحة والمربيات الموافقات أخلاقاً أصعب من الصعب. والاعتماد في تربية الرضيع على الغذاء الاصطناعي خطر على صحته فضلاً عن أنه يورثه ضعفاً في بنيته في المستقبل.

إذاً لا مناص من عناية الأم بأطفالها العناية التي تستغرق كل وقتها وتستنفد كل قواها. ولذلك لا يبقى لها من الوقت والقوة ما يقدرها على القيام بوظيفة التعليم.

حسن جداً أن تتأهب الفتيات أو معظمهن لوظيفة التعليم ولأي عمل آخر شريف، لأن كل فتاة غير موسرة عرضة للاضطرار إلى الاسترزاق والتعيش من علمها إما في حالة عزوبتها أو بعد طلاقها أو في حالة ترملها. وأما في حالة زواجها ومقدرة زوجها على القيام بأود العائلة فوظيفتها العائلية كافية لاستنفاد كل قواها.

يكفي أن تحفظ وزارة المعارف حق المعلمة بوظيفة عندها فيما لو طلقت أو ترملت. وأما وقوع الزوجة في فاقة في عهد زواجها فالغالب أن مسؤوليته تقع عليها. أي أنه يجب عليها أن تحاذر من تزوج فتى غير أهل للقيام بمهام العائلة. وأما الزوجة التي يصاب زوجها بمصيبة تقعده عن العمل أو تغل يده عن الاسترزاق قضاءً وقدراً فذلك بختها وعليها أن تعتصم بالصبر. وربما وجدت من وزارة المعارف حينئذٍ رحمة بها فتستردها إلى وظيفتها. والله يساعدها في أمر منزلها.

مسألة البغاء

إن تسويغ البغاء بإذن الحكومة معرّة ليس مثلها معرّة. واهتمام الحكومة بنشر المعارف وإنماء الفضيلة وبالمحافظة على الصحة العمومية ومكافحة الأمراض والأوبئة إلى غير ذلك من مقومات المجتمع الأدبية والصحية... كل ذلك لا يتفق مع تسويغ البغاء وفيه هدم للآداب والصحة معاً. أفليس غريباً أن تبني الحكومة من جهة ثم تطلق يد البغاء والفاحشة للهدم من جهة أخرى؟

كان عذر الحكومة في تسويغ البغاء إنه «سياج للحرائر»، وهو عذر أقبح من ذنب. فقد أثبت الاختبار الطويل أن هذا السياج لم يحم الحرائر من السقوط في مهاوي البغاء. فما من بغيٍ ولدت بغياً بل كانت حرة فسقطت وصارت بغياً. وبيوت الفاحشة السرية أضعاف أضعاف بيوت البغاء. والمومسات غير الرسميات أضعاف المومسات الرسميات كما هو معلوم. فتسويغ البغاء الرسمي لم يفض إلى الغاية التي قصدت منه بل إلى عكسها. فليس له من محمدة، بل فيه كل العار وفيه شرك الرذائل. زد على ذلك أن المومسات آدميات ولهن حق العفاف والطهارة والتصون كسائر النساء الحرائر. فلماذا يتركن لغزوة الشهوات البهيمية؟ ولماذا لا يحصن عفافهن؟ ولماذا يفتح الباب لتنشيطهن وتشجيعهن على الدعارة؟ ولماذا يفتح باب للرجال لمهاجمة أعراضهن وأعراض كل حرة؟

وكيف تكون المومسات سياج الحرائر والرجال الذين يختلفون إليهن مختلطون بالحرائر ينقلون الأمراض الشنيعة من أولئك إلى هؤلاء؟

وكأن الحكومة تعتبر الرجال مطلقي الحبل على الغارب يجوز لهم أن يرتكبوا الفاحشة بلا حساب ولا عقاب. ولذلك فتحت لهم باب الفاحشة في منازل المومسات.

والواجب أن تعنى الحكومة وكل قوة إصلاحية في البلاد بعفاف الرجال أكثر من عنايتها بعفاف النساء، لأن عفافهن مترتب على عفافهم. ولولا «خبص» الرجال ما سقطت النساء. احفظوا عفاف الرجال فيصان عفاف النساء، لأن الرجال هاجمون والنساء مدافعات. فإذا ردع المهاجم سلم المدافع.

كيف يقمع البغاء

إن قمع البغاء غير الرسمي الذي تعالجه الحكومة لا يكون بتسويغ البغاء الرسمي، كما تقدم القول، بل بمكافحة أخرى غير هذه. يكون أولاً بتشديد النكير على البيوت السرية المنتشرة في جميع أحياء المدن. ويجب أن يشدد النكير على قوة البوليس، وأن تطلق يدها في تنفيذ اللوائح التي سنت لهذا الغرض. وإن كان في هذه اللوائح نقص أو عيب فيجب أن تنقح لكي يكفل تنفيذها قطع دابر الفاحشة.

ثانياً، دلت حوادث كثيرة على أن كثيرين من ذوي الأمر والنهي صغاراً وكباراً لا يخجلون أن يفحشوا، فيجب أن يسن قانون لتجريم كل من يرتكب الفاحشة وطرده من وظيفته. يجب أن يكون هؤلاء قدوة العوام في الفضيلة والعفة.

ثالثاً، يجب أن يسن قانون يجرم كل من يسطو على عرض ولو كان برضى صاحبته لكي يرتدع غازو الأعراض عن غزوهم، كما أنه يجرم كل امرأة تبيح عرضها سراً أو جهراً.

رابعاً، يحسن جداً أن تؤلف جمعية من المصلحين الغيورين على سمعة الأمة وعلى عفافها وعلى آداب الناشئة، وأن تعطي الحكومة هذه الجمعية سلطة بوليسية تقلدها لشرطة سريين يتجسسون على المنازل السرية وعلى كل مشتبه به أو بها. مثل هذه الجمعية في الولايات المتحدة ولها خدمة مجيدة لآداب تلك الأمة.

قد لا تنجح هذه الوسائل كل النجاح ولكنها تنجح كثيراً. قد لا تزول الفاحشة تماماً ولكنها لا تبقى في شكلها الفظيع الحالي، الشكل الذي يجري، كل رجل أن يتحكك بأية امرأة حتى أفضل السيدات بأساليب فظيعة تقشعر منها الأبدان. ولذلك يجب أن يسن قانون صارم للتحكك حتى يرتدع الأراذل عن المحصنات.

السيدات المصلحات

وهنا للسيدات أنفسهن عمل في مقاومة هذه الرذيلة نتمنى أن يعكفن عليه. وربما كان وحده أفعل من كل الوسائل التي أشرنا إليها آنفاً.

لا يخفى أن المرأة في كل بلد وفي كل زمان تظهر بالمظهر الذي يعجب الرجل ويلذ له ويعده جمالاً وبالتالي يستهويه. وقد أفرطت النساء في كل مكان بهذا الظهور حتى تجاوزن حدوده اللائقة إلى مدى الخلاعة والتهتك. لا بأس أن تظهر المرأة جميلة. بل يجب أن تظهر جميلة أنيقة لأن الجمال صفة عن صفات الخالق. وقد خلقنا تعالى على صورته ومثاله في الفضيلة والطهارة، وهما منتهى الجمال. ولكن الجمال الذي يليق بالمرأة هو غير التهتك. لقد تمادت النساء في أشكال اللبس حتى أبحن لأنفسهن ما يستحي الرجال أن يظهروا به. عمرك الله، هل رأيت رجلاً يجرأ أن يخرج من المنزل في قميص كقميص النوم ضيق قصير بلا أكمام؟ أنه يستحي أن يظهر كذلك. ولكن نساء اليوم لا يستحين أن يظهرن كذلك، بل أبلغ من ذلك يظهرن عاريات السواعد والترائب والساقين. وقد ضاق ذلك الثوب الممسوخ حتى برزت من تحته النهود والأرداف. فهل زيّ أفظع من هذا الزيّ يثير الشهوة البهيمية؟

يؤسفنا أن هذا الزيّ الخليع شاع حتى عم كل طبقة وكل صنف من النساء حتى المحصنات. فإذا كان قد قام فينا مصلحون من الرجال يبتغون رد الأمة عن التهور في مهاوي الخلاعة والفاحشة، فبالأولى أن تقوم في النساء مصلحات يكافحن هذه الخلاعة الخطرة.

فإلى أخواتي السيدات الفاضلات المتصونات أوجه ندائي عسى أن يؤلفن جمعية واسعة النطاق قوية اليد تعمل في محاربة هذه الأزياء الخليعة التي هي ينبوع الشر وشيطان الفحش. إن النساء وهن موصوفات بالتصون والحرص على العرض أولى من الرجال في مقاومة البغاء. وأهم عمل يعملنه من هذا القبيل هو أن يبذلن كل جهد مستطاع في إلغاء هذه الأزياء الخليعة واستنباط زي محتشم لائق بالعفاف والفضيلة ورادع للشهوات البهيمية.

وإذا لم يتسنَّ للمصلحات أن يقتلن هذا الشيطان فنستغيث بالحكومة عسى أن تسن قانوناً للأزياء، فتكون به قد مشت في مقدمة جميع الأمم في الحرص على الآداب العمومية والفضيلة.

أيلول 1926

عصر التجديد:
لا يكون التجديد مشي الهويناء
بل يكون وثبًا وقفزًا وقمزًا

السيدة ل. من السيدات الراقيات المعدودات. ومتى قلت «راقية» فلا أعني أنها غنية ترفل بالحرير الفاخر على آخر مودة وتتبرّج كأنها ملكة، وأنها بارعة في الموسيقى والتصوير والرقص إلخ... بل أعني أنها ذات علم واسع وأخلاق نبيلة وفكر ثاقب وعقل راجح إذا تكلمت فكل كلمة تستحق أن تدوّن في كتاب. أما السيدة ل. فقد جمعت كل هذه المحامد وتلك المحاسن. فوق هذا كله هي صديقة وودودة مخلصة حرّة صريحة.

زرت السيدة ل. على إثر عودتها مع أسرتها من مصيفها في لبنان. فاستقبلتني ببشاشتها المعهودة. ولما جلسنا تنهدت الصعداء، فقلت: ماذا بك؟ أراك كأنك تسرّين عن نفسك هماً ثقيلاً.

فقالت: نعم إن زيارتك تفرّج عن نفسي كرباً ضاقت به ساعتين، فقد كانت عندي الآن ثلاث زائرات لا أقدر أن أعيبهنّ بشيء. فهنّ سيدات فاضلات لطيفات ودودات. ولكن كلامهن كالبندق الفارغ «خلّي من المعنى ولكن له طقش». في ساعتين تكلمن مجلدين، ولكنك لا تستطيعين أن تحفظي من كلامهن كلمة واحدة ذات مغزى يستحق التفكير. كأن كل لسان كالفراشة أو أنه كالمذراة التي تذرّي العصافة على البيدر. إذا قلت لك إن الحديث تنقل على ألف موضوع، فلا أكون مبالغة. ولكن سليني أي المواضيع علق في ذهني؟ فلا أقدر أن أقول.

فابتسمت وقلت: أنا أقول لك كان حديثهن فلانة كانت لابسة كذا وبرنيطتها كذا وفلان خطب فلانة...

ـ أي نعم. حديث يضيّق الصدر ولم يكن لي فيه إلا بعض كلمات مسايرة. فلا

غرو أن يفخر الرجال على النساء، وإن كان بين الرجال كثيرون لا يختلفون عن النساء «في اللت والعجن». ولكن بين النساء لا تجدين واحدة بالمئة تذوق طعم الكلام وتتكلم كلاماً يستهوي السامع وتجول في موضوع مفيد. كنت اليوم أطالع كتاباً أميركياً عن تربية الأحداث. فأعجبت بما فيه من الأفكار السامية وقلت في نفسي: لا عجب أن تجاري المرأة الأميركية الرجل في كل شيء، لأن أساس التربية عندهم متين. وتمنيت أن كل امرأة في الشرق تقرأ هذا الكتاب لتتعلم كيف تربي أولادها. والله لو ربينا أولادنا على هذا الأساس لكان عندنا جيل حديث يعرف كيف يسترد حريتنا واستقلالنا مهما كان استردادهما صعباً.

فقلت: ليس شيء صعباً متى وجدت العزيمة ووجد الاستعداد، مهما كان الخصم قوياً. فنحن نستصعب الحصول على الاستقلال لأننا نجد أنفسنا أمام خصوم أقوياء ونرى أنفسنا ضعفاء...

من هم أعداؤنا

فقاطعتني مبتسمة، وقالت: أنت دائماً تبشرين بإنجيل الاستقلال ونصب عينيك خصمنا الأوروبيون.

فتنهدتُ وقلت: نعم. أليسوا ألد الأعداء وهم جاثمون على صدورنا. ينهبون ثروتنا «على عينك يا تاجر» ويحتقروننا. ونحن لغباوتنا نتشبه بهم في المظاهر الخارجية لكي نبرهن لهم أننا متمدنون مثلهم، ولكنهم يضحكون علينا حين يرون أننا في الأمور الجوهرية لسنا مثلهم بشيء. وقد استعبدونا وإن كنا نرى أنفسنا أحراراً. قيدونا وجعلوا يستنزفون دمنا. فإن نهضنا ضربوا على رأسنا. أليسوا أعداء ألداء يجب أن نقاومهم بكل قوتنا؟

فقالت: لا والله «يا ستي» ليس الأجانب أعداءنا، بل هم أصدقاء أنفسهم يفعلون كل ما فيه مصلحة لهم...

فقاطعتها قائلة: يفعلون كل ما فيه مصلحة لهم ولو كان فيه هلاكنا وفناؤنا. فأين دعواهم أنهم أنصار الحرية؟ أين جمعية حقوق الإنسان التي يتبجحون بها؟ أين الإنسانية التي يدعون أنهم ينتصرون لها؟ أنهم لمنافقون.

فضحكت وقالت: لا تسترسلي بهذا الموضوع. أنهم كاذبون منافقون. ولو كنا نقتنع أن الإنسانية والحرية وحقوق الإنسان كلام فارغ عندهم، وأنهم يبررون كل عمل لأجل مصلحتهم، لكنا نصرف الفكر عنهم ونهتم بأنفسنا ونفعل مثلهم كل ما هو من مصلحتنا ولا ننتظر منهم إنصافاً وعدلاً. أنهم يفعلون لأجل مصلحتهم. فما هم أعداؤنا. أن لنا أعداء ألد وأقوى منهم، أعداء تقتلنا قتلاً ونحن نغض عنهم النظر ولا نحسب لهم حساباً. ففناؤنا وهلاكنا يكونان عن يد هؤلاء الأعداء لا عن يد الأجانب. هؤلاء الأعداء، لا الأجانب، جاثمون على صدورنا يمنعون عنا الهواء، وقائمون في قلوبنا يمنعون عنا الولاء، ومقيمون في أنفسنا يمنعون عنا العلم والمعرفة.

قلت باسمة: فهمت قصدك؟ تعنين بهؤلاء الأعداء تقاليدنا العفنة، أفكارنا السقيمة، عاداتنا الرثة البالية.

ـ نعم نعم، هذه هي الأعداء المحتلة بلادنا منذ زمان. فإذا استطعنا أن نجلي هذا الاحتلال سهل علينا أن نجلي كل احتلال سياسي. إذا حررنا أنفسنا من هذه التقاليد العمياء تحررنا من كل عبودية أجنبية. إذا استقللنا بالعلم الصحيح والمعارف الحديثة كان لنا الاستقلال التام الذي طالما توخيته وناديت به. إن عدونا الألد فينا، والخصم الذي يقيّدنا ويستنزف دمنا هو أفكارنا السخيفة، عاداتنا العفنة، تفرقنا، جهلنا لواجباتنا نحو المجموع، خلونا من الرأي العام، عدم احترامنا الأكثرية...

فقاطعتها قائلة: عجباً! كيف تقولين «عدم احترامنا للأكثرية»؟ أما سمعت كيف يقرر برلمان الجمهورية اللبنانية الأمور؟ أما انضم مجلسا النواب والشيوخ في مجلس واحد بقرار الأكثرية؟ أما تعدل الدستور اللبناني بقرار الأكثرية؟

فقهقهت وقالت: دعينا من برلمان لبنان. نحن نتكلم عن الأحياء لا عن الأموات.

فقلت: كيف تقولين «أموات»، أما كان الكثيرون من أعضاء ذلك البرلمان يشهدون العالم عليهم أنه إذا عُدل الدستور اللبناني يهجرون البلاد؟

فقالت ضاحكة: نعم. ولكنهم لم يستطيعوا أن يبروا بقسمهم لأن الحكومة لم تعطهم جوازات سفر.

فقلت: بلى بروا بقسمهم فهجروا بيروت إلى المصايف. وثم إنك تقولين «تفرقنا» أو عدم اتحادنا. أنك متحاملة، يا عزيزتي. وأي اتحاد أمتن من اتحاد أعضاء النواب والشيوخ في مجلس واحد وقد آلى كل واحد على نفسه ألا يستعفي مهما اشتدت العواصف السياسية. فهم متحدون في الحرص على المنصب كالبنيان المرصوص. فأي اتحاد كهذا؟ وتقولين «جهلنا واجباتنا نحو المجموع». وهل في الدنيا برلمان يخدم المجموع كالبرلمان اللبناني؟ وأي برهان على نجاح لبنان ورقيه من أن ميزانيته كانت ستين ألف ليرة عثمانية، فما زالت ترتفع بسرعة حتى صارت ستمئة ألف!

التجمل حرام

قالت: إذاً لماذا نلوم الفرنساويين ونحن نعلم أن الاحتلال الذي تقاسي البلاد منه هو ضعف الأخلاق وانحطاط النفوس؟

قلتُ: الحقيقة أن الإفرنسيس لا يلامون كما يلام الأهالي. وإنما نحسبهم أعداء البلاد لأنهم هم يديرونها هذه الإدارة الخرقاء، وينسبونها إلى أصحاب المناصب من الأهالي والبرلمان. فهم يستعملون الوزراء والبرلمان كآلة لتنفيذ مآربهم.

قالت: إذاً ما زلنا نعترف أن عدو البلاد انحطاط أخلاق قادتها. لأنهم يقبلون أن يكونوا آلات. فلماذا لا يستخدمهم الإفرنسيس كآلات ما داموا راضين. فكيفما قلبنا الموضوع وجد العدو الذي يقاتلنا محتلاً أنفسنا وقلوبنا. فإذا كان الحكام والنواب من هذا الطرز من الرجال فكيف تكون الحكومة الاستقلالية؟

ـ تكون حكومة أطفال.

ـ وإذا كانت تقاليدنا المتعفنة وعاداتنا السخيفة متسلطة علينا وجاثمة على صدورنا وخانقة أنفاسنا، فكيف نستطيع أن ننفض عنا وطأة الأجنبي؟ إليك هذه الحكاية شاهداً أو مثلاً. كان جماعة من المصطافين يتمشون في الجبل والطريق صاعد صعب وكان بينهم سيدات. فتقدم أحد الشبان إلى إحداهن وقدّم لها ذراعه لكي تستند عليها. فكانت السيدات الأخريات يتهامسن مستهزئات

ويتهمنهما بالحب. فانظري ما أسخف أفكارهن وما أضيق عقولهن وما أدنأ عبوديتهن للعادات القديمة. فإذا كان السواد الأعظم من الشعب في مثل هذه الأفكار الرجعية فكيف يستعمل الحرية والاستقلال متى حصل عليهما؟

قلت: هؤلاء كبعض السيدات اللواتي كن يهزأن بسيدة كهلة لأنها قصت شعرها كأنه لا يجوز للكهلة أن تتجمل حسب الزيّ السائر، وإن كان زيّاً حسناً.

قالت: أرأيت؟ كذلك كانت زائراتي اليوم يسخرن بسيدة كهلة جليلة لأنها تتبرج وتتزين، ويقلن «إن هذه العجوز الشمطاء تريد أن تجدد شبابها لكي يعشقها الشبان». إن للمرأة زوجاً سليم الذوق يود أن يكون كل شيء في بيته مرتباً جميلاً وأن تكون زوجته قبل كل شيء في مظهر جميل. فكأن صواحبنا يحسبن الجمال معرّة.

قلت: لا تلوميهن يا عزيزتي. لا يعلمن أن سر الحياة الراقية هو الجمال، وأن معنى الرقي هو التفنن بالجمال إلى ما لا نهاية له. ترى لو كانت تلك السيدة الكهلة «تتدروش» وتظهر عجوزاً شمطاء بالفعل، فهل كن يستطعن حضورها في مجلسهن ولو كانت كسليمان حكمة وكمريم فضيلة. والله لو عشت مئة سنة لبقيت أتبرَّج التبرّج اللائق لكي تقرّ بي عيون زوجي وأولادي وأحفادي ويستطيبوا محضري ومعشري.

قالت: كم هنّ السيدات اللواتي يفتكرن هذه الأفكار الصائبة، وأين هنّ؟ فهل رأيت كيف أن الأفكار السخيفة والعادات السقيمة تقتل حياتنا الاستقلالية؟ إذا كنا نتوق إلى الحرية والاستقلال وجب أولاً أن نقاتل هذا العدو المحتل في أنفسنا. ألا تعتقدين أننا ضعاف الأخلاق جداً؟

التربية السقيمة

قلت: وضعاف التربية جداً أيضاً. لم أزل متأثرة من خبر قرأته في جرائدنا بالأمس، وكل يوم يلوح في بالي مراراً. وتحريره أن فتاة في الريف كانت تحب فتى وأهلها يمنعونها عن الزواج به. فما كان منها إلا أن دست السم في الدسم لأبويها وإخوتها وأخواتها فماتوا جميعاً. وستختم الرواية بشنقها طبعاً.

قالت: عجباً. إنها لحادثة مريعة. واستغرب أن قادة الأمة لا يقومون ويقعدون لها والجرائد لا تكتب في هذا الموضوع...

قلت: لا تستغربي لأن السبب ما ذكرته وكررته مراراً وهو ضعف أخلاقنا. إلى الآن لا نفهم أن هذا الحادث وألوف الحوادث من أشباهه التي تحدث كل يوم تدل على ضعف التربية. فأهل تلك الفتاة يستحقون السم من يد بنتهم لأنهم لم يربوها ولأنهم قيدوا حريتها ومنعوها الزواج بمن اختارته واختارها. وهي تستحق المشنقة لأنها عضو شرير مريض في جسم المجتمع يجب بتره.

قالت باسمة: والرأي العام؟ ماذا يستحق؟

قلت: آه الرأي العام يستحق... لا أدري من يعاقبه بما يستحق.

قالت: إنه معاقب. معاقب بالعبودية للأجنبي. فكيف يمكن أن يتحرر وهو عبدٌ لجهله وعاداته وتقاليده.

قلت: كيف العمل يا عزيزتي والرجعيون والرجعيات هم السواد الأعظم، وإذا شئنا التجديد وجب أن ننفض كل هذه التقاليد والعادات السخيفة. وإن تعرضنا لها قام الرجعيون يتهمونا بالكفر بالدين كأنهم يصرحون علانية إن الدين عقبة في سبيل الرقي.

التجديد ودعاته

قالت: أتأسف أن أقول لك إن الذين يدعون للتجديد هم أنفسهم رجعيون أيضاً. لأنهم ما تكلموا بالتجديد إلا افتتحوا كلامهم بقولهم: كان أجدادنا، كان أسلافنا، كان العرب، كان... كان. فهم يعنون بالتجديد أن نعود إلى علوم الأسلاف وأخلاقهم وعاداتهم. يعنون أنه يجب علينا أن نلتفت إلى الوراء فنحن إلى الوراء والأجانب إلى الأمام. الأجانب وضعوا الأجداد والأسلاف في المتحف، ونحن نضعهم في المدرسة والكتاب والصحيفة. الأجانب يستعبدوننا ويستنزفون ثروتنا بالكهرباء واللاسلكي والسينما والأوتوموبيل وكل أنواع المصنوعات والاختراعات، ونحن نصرخ ونقول إنهم ظلام غزاة نهابون سارقون كذابون، وهم يمتصون دماءنا ضاحكين على صراخنا.

قلت: والله كلما فكرت بهذا الموضوع أرى أننا لا شيء بإزاء الأجانب. ليس عندنا إلا استغلال الأرض. والأجانب يأخذون غلتنا ثمن أوتوموبيلاتهم وبنزينهم وكهربائهم وسنمائهم وأنسجتهم وسائر مصنوعاتهم. فنحن بحكم الطبع عبيد لهم. ألا يمرمرنا هذا يا عزيزتي؟

قالت: بالطبع يمرمرنا جداً. ولكن الأجانب يستثمرون علمهم ونشاطهم وتجديدهم. ونحن نستثمر جهلنا وأفكارنا السخيفة ورجعيتنا. فأصل الداء هو أخلاقنا وعاداتنا ثم جهلنا أن فينا هذا الداء. يجب أن نعرف أولاً أننا ضعاف التربية والأخلاق ثم أن نعنى بالتربية وتقويم الأخلاق. وبعد ذلك نجد أنفسنا في طريق التجديد فنتجدد بلا معاناة.

قلت: وما رأيك في العمل الجدّي لإصلاح الحال؟

قالت: لا نسمع إلا بجمعيات ونهضات وما شاكل ذلك. لا أظننا نستطيع أن نحصي الجمعيات المختلفة التي عندنا، ولكنني ما سمعت عن جمعية تحصر همها في وعظ الجمهور بتقبيح العادات السخيفة والتقاليد المنتنة ونشر التعاليم الصحيحة والحث على الآداب وتقويم الأخلاق. يجب أن تؤلف جمعية كبيرة ذات فروع في كل الأقطار العربية. يسخو فيها الأغنياء لتكون قوية جداً بالمال. فترسل من قبلها ألوف الوعاظ والمرشدين إلى جميع القرى والمجتمعات والأحياء فيجمعون الناس في أوقات فراغهم من الأعمال ويلقون فيهم محاضرات بسيطة ساذجة على قدر عقولهم، ويفهمونهم أضرار العادات السقيمة ويبينون أساليب الحياة الجديدة الصالحة للرقي. يمكن هؤلاء الوعاظ أن يطرقوا كل موضوع أدبي وعلمي وأخلاقي. ويجب أن يكون هؤلاء الوعاظ من النشء الجديد الذي نفض القديم نفضاً باتاً واعتنق الجديد. وماذا يمنع أن يطوف هؤلاء الوعاظ في الشوارع وينادوا بدعوتهم كما يفعل الأميركان في بلادهم.

قلت: الحق أن نهوضنا لا يمكن أن يكون إلا بجهاد كهذا، جهاد شديد كأنه ثورة أو انقلاب. وأما الصبر انتظاراً لأحكام الأقدار والسير في سبيل الارتقاء على مهل فلا يقدراننا على اللحاق بالأجنبي في مضمار الرقي وهو سائر بسرعة. لا يمكن أن

يكون تجديد بالاتكال على الظروف والأحوال، لا يكون التجديد إلا وثباً وقفزاً كما هو حادث في تركيا الجديدة. ولا خوف من كسر الرجل. فمن لنا أن يصرخ بالقوم صرخة كهذه.

قالت ضاحكة: فتشي عن الصارخ واخبريني.

وهنا بتر حديثنا دخول زائرات من طرز الثرثارات. فودعت صديقتي وخرجت لأخلي الجو للثرثرة.

تشرين الثاني 1927

قاسم والسيدات

كل فرد من أفراد الأمة قوة عاملة ذات أثر خالد في الوجود.
قاسم أمين

قرأت المناقشة التي دارت حول «إسم قاسم أمين» بشأن إقامة أثر تذكاري له، فليس هذا الاقتراح بغريب لأنه حق طبيعي أن يعمل تمثال لمحرر المرأة. إنما الغريب أن يصدر من جانب الرجال وقد كانوا يتخوفون من مبادىء قاسم الإصلاحية. ولا ريب أن تكريمهم الآن لقاسم يدل على شجاعة وقوة وانتفاء حذرهم من عواقب تحرير المرأة. فهذا فاتحة عصر جديد أيضاً.

كنت أقرأ مقال الأستاذ داود بك بركات واقتراحه هذا ورد الآنسة عزيزة فوزي عليه. وكان إلى جانبي سيدة أمريكية فسألتني ماذا تقول الجرائد اليوم عن السياسة المصرية. فأجبتها إنني في هذه الأيام قلما أقرأ أخبار السياسة لأن الكلام فيها عندنا أصبح تحصيل حاصل، ولذلك يحسن بالسيدات أن يوجهن عنايتهن لترقية أنفسهن وتحسين حالهن لكي يصبحن قادرات على تغيير جو السياسة المصرية، ولا طريق لتحسين الحال غير هذه.

فأحدث هذا الجواب هزة في شعور تلك السيدة، وأجابت: حقاً أن مقدرة السيدات عجيبة، ولا يبعد أن يحدث بمصر كما هو حادث عندنا في أمريكا فإن للنساء الفضل في تحسين شرائع أمريكا. فالمرأة الأمريكية لم تنل ما نالته من الحرية والمساواة منحة أو هبة من الرجل كما فعل مصطفى كال للمرأة التركية، ولا الحكومة الأمريكية سنت قانوناً بإعطاء المرأة الأمريكية الحرية والحقوق والمساواة بالرجل عفواً. بل نحن النساء نهضنا وأصلحنا شؤوننا ونقحنا شرائعنا وأضفنا إليها شرائع وقوانين بحملاتنا المتعددة المتوالية إلى أن وصلنا إلى ما نحن عليه الآن من القوة والنفوذ. وكان شعار المرأة الأمريكية في حركاتها هذه «الحق يؤخذ ولا يعطى». فإذا أرادت المرأة أن تأخذ ما لها من الحق يجب أن تقوى

بالتعليم الصحيح الذي يجعلها تعرف حقها وواجبها في وقت واحد.

فعندئذٍ قلت لها: الآن أجيبك على سؤال ماذا كنت أقرأ. كنت أقرأ مناقشة بشأن قاسم بك أمين وإقامة أثر تذكاري لهذا الرجل العظيم.

فسألت: وماذا فعل هذا العظيم؟

قلت لها: إن هذا الرجل كتب كتاباً عن تحرير المرأة، يوم كانت المرأة تعيش في ظلام دامس. يوم كانت المرأة محرومة من كل حق حتى حق استنشاق الهواء النقي والتمتع بضوء الشمس اللازمين لحياتها التي وهبها إياهما سبحانه وتعالى. يوم كان الرجل يهضم كل حق لها سراً وعلانية وكان هو صاحب السلطان والنفوذ والجبروت. وقد اضطهد قاسم بك اضطهاداً شديداً لهذا الكتاب. ومر على ذلك نحو عشرين عاماً تغيرت حال المرأة في خلالها وأخذت تتجه لتنفيذ مبدأ قاسم أمين. وفي هذا الشهر كانت حفلة تذكارية له، واقترح أحد إخواننا الرجال إقامة أثر خالد له، فردت عليه إحدى الكاتبات تقول: يُخشى أن يبدأ باكتتاب فيفشل شأن كل المشاريع الشرقية.

فكانت هذه السيدة تسمع كلامي وعلائم الاندهاش بادية عليها. وقالت: غريب كلامك هذا، وغريب أن يتسرب الخوف إلى أمة ناهضة بل إلى المرأة الناهضة ولا سيما لأن ذكرى قاسم أمين تهم المرأة لا الرجل لأنه خدمها أكثر مما خدم الرجل مما فهمت منك، وإن تكن خدمته بالحقيقة عائدة للرجل ولكن مظهرها للمرأة. وإنما بعد وقت قصير سيرى الرجال أن قاسم أمين ليس محرر المرأة بل محرر مصر، لأن البلاد لا تنتج أمة حية إلا إذا نهضت المرأة إذ تصبح قادرة على أن تربي الرجل الذي يعرف كيف ينقذ البلاد. الرجل الذي يعرف كيف تساس الأمة. الرجل الذي يعرف كيف يتقلد السلاح قوياً. الرجل الذي يعرف كيف يثبت وقت الأزمة. الرجل الذي يعرف متى يكون الموت فخراً. فعند ذلك يعرف الرجال كيف يقيمون تمثالاً لقاسم أمين في دورهم وفي أسواق بلادهم وفي مدخل مينائهم وفي قنالهم. أن أميركا لم يحررها واشنطون بل أم واشنطون. وأيضاً لنكلن لم يحرر العبيد بل أم لنكلن. فإن الأم هي التي تزرع في الصغر البذور التي لا بد أن تنبت في الكبر.

فكنت أسمع كلام هذه السيدة وأنا أقول لنفسي: ما أبعد أفكارها عن أفكارنا.

ثم سألتها: ما رأيك في طريقة جمع المال لإقامة أثر خالد لمحرر المرأة المصرية؟

فقالت: إن قاسم الذي حرر المرأة كما تقولين هو محرر البلاد. فيجب أن تشترك البلاد في إقامة هذا الأثر الخالد.

فقلت: هذا كلام ذو قيمة وثمن ولكن...

فأجابت: إنما على السيدات واجب وهو أن ينهضن ويشرعن بهذا العمل وهن قادرات على كل شيء إذا أردن. وهاك مثلاً على ذلك. في أثناء الحرب العظمى حين كان الشرق الأدنى يقاسي آلام الجوع، قامت جمعية نسائية في أميركا وطالبت أعضاءها بأن لا يأكلوا سوى الأكل البسيط الرخيص مدة أسبوع وأن يرسلوا فرق نفقات الأكل إعانة للشرق. وكان عدد أعضاء الجمعية أربعة ملايين امرأة، ففي مدة أسبوع جمعن مبلغاً وافراً كان كافياً لإقامة ميتام ومطاعم لم تزل إلى الآن في الشرق.

فأجبتها: ولكن لا تنسي عدد أعضاء الجمعية.

فقالت: ولكني أقول إن كل نساء مصر أعضاء جمعية لمبدأ قاسم أمين، فكل امرأة يجب أن تشترك بهذا العمل.

قلت: أميركا أم الغرائب والعجائب.

قالت: ومصر تقدر على أكثر. وهاك مثلاً على ما حدث بمصر منذ بضع سنوات، فإن جمعية نسائية أميركية بمصر أعضاؤها من مختلف الأجناس فكرن بأن يكون لمركز جمعيتهن بناء لا يقل ثمنه عن عشرة آلاف جنيه. فمن أين هذا المال؟ فكرن في الحال في جمع المال من مصر، فانتشرت أعضاء الجمعية بشارات على صدورهن وأوراق بأيديهن فيها نص غرضهن وطفن على المحلات والبنوك والبيوت الكبيرة. وفي مدة خمسة عشر يوماً جمعن المبلغ واشترين البناية التي هي مركز الجمعية الآن في أحسن شوارع مصر.

قلت: نعم حقاً هذا ما يجب أن نبدأ به.

وهنا أوجه النداء إلى السيدة هدى هانم شعراوي، زعيمتنا الفاضلة، عسى أن تنظم هذا الجيش وتوجه هذا الحماس إلى الشعب المصري وإلى قلبه، وتبث أعضاء جمعية الاتحاد النسائي في القطر المصري لجمع المال. وكل سيدة يجب أن تكون من جمعية الاتحاد النسائي بطريقة عامة، ولا شك أن الرجال يشتركون بالدفع. وسنجد لا شك منشطين منهم لهذا السبيل، لا سيما إذا تعين نوع الأثر الخالد الذي سيقام له. وأي أثر أفضل وأحرى بأن يساعده الرجال من إقامة معهد باسم قاسم أمين تتعلم فيه الفتاة بعد نهاية دروسها التعليم المنزلي الذي يجب أن يكون مكملاً للمرأة، ويكون هذا المعهد مدرسة للمتعلمات يتعلمن فيه فن الطبخ وإدارة المطبخ وفن الخياطة وتربية الأولاد الفعلية وتنظيم المنزل وترتيبه مع تعليمها كل ما يخول المرأة أن تكون سيدة بكل ما في معنى كلمة سيدة الواسع. وهذا النوع من المدارس هو الحديث في أمريكا وألمانيا. فأي رجل يعلم النتيجة الحسنة لهذا المعهد ولا يقبل على تعضيده.

ولا شك بنجاح عمل تقوم به السيدات إذا أعطينه كل عزمهن، لأن المرأة إذا شاءت فعلت. وهكذا تغتبط روح قاسم إذ يتم كلامه الذي فاه به ويريده وهو:

«أن يكون كل فرد من أفراد الأمة قوة عاملة ذات أثر خالد في الوجود».

وعند ذلك يكون قد أثمر عمل اتحاد النساء قبل اتحاد الرجال. ويكون هذا المعهد فاتحة أعمال المرأة الناهضة وبرهاناً حسياً على نهضتها.

ومجلة السيدات والرجال تقدم كل ما لديها من الوسائل للاشتراك الفعلي بهذا العمل، وهي تفتح اكتتاباً لهذا المشروع داعية كل مشتركاتها ومشتركيها في مصر وخارج مصر للاشتراك بالعمل... هذا عندما يتقرر الشروع بالعمل.

هيا بنا ـ إلى الأمام ـ أيتها الناهضات ولا خوف من الفشل. فإن الله مع الجماعة. فكم بالحري والجماعة سيدات وعلى رأسهن (الهدى).

أيار 1928

المرأة والاستقلال
واجبات السيدات الوطنية

خطاب صاحبة هذه المجلة في حفلة ذكرى الاستقلال والشهداء

سيداتي وسادتي

رامت اللجنة الجليلة التي اهتمت بهذا الاحتفال أن تسمعكم كلمة سيدة بين كلمات الرجال. كأنها شعرت بأن للسيدات بعض الحق في الرأي والعمل للقضية الوطنية السورية. وهذا العمل هو إحدى ثمرات الثورة الأخيرة.

أقول بعض الحق لأنها لم تختر غير واحدة من عشرة متكلمين. واحدة ضعيفة مثلي وتسعة أشداء.

وأنا على ضعفي أحتج ـ وأعتقد أن جميع السيدات يؤيدن احتجاجي هذا ـ على أنه لا يزال باقياً إلى اليوم الاعتقاد بأن النساء ضعيفات. ولذلك هن محرومات من معظم الحقوق. أحتج هذا الاحتجاج لأنه ما ظهر للمرأة السورية من الجهاد في الثورة ينقض تلك العقيدة. فقد ذكر في برنامج هذه الحفلة أسماء بعض الشهيدات، وسمعنا كثيراً عن أعمال بعضهن مما يعد فخراً لسوريا ونسائها. وجميع زعماء الثورة ورجالها يعلمون أكثر مما نعلم نحن ما فعلنه وما قمن به من الأعمال بدل الرجال المنصرفين إلى الحرب.

وإذا حسب عملهن قليلاً بأزاء عمل الرجال، فلا ننسى أن أبطال الثورة الذين دهشوا العالم ببأسهم وبسالتهم إنما هم أبناء أمهات قويات شديدات. وقد ربينهم جسماً وعقلاً وأخلاقاً. فهؤلاء البواسل خرجوا من أحضان تلك الأمهات يستلذون الموت في سبيل الحق والواجب.

ولو أتيح للمرأة الشرقية ما أتيح للمرأة الغربية من الثقافة والحرية لكان نصيبها من العمل الوطني أعظم بكثير من تلك.

مع ذلك وبعد الانقلاب العام الذي حدث منذ شبوب الحرب العظمى إلى اليوم، خطت المرأة الشرقية خطوة عظمى في الثقافة والحرية وصارت أكثر أهلية من قبل لتحمل المسؤولية وللاشتراك في العمل الوطني. صارت المرأة قوة جديدة تضم إلى قوة الرجل. صارت ذات حق بالاستقلال، وبصيرورتها هكذا صارت أيضاً ذات مسؤولية وعليها واجب العمل لأجل البلاد.

بعد ما ظهر من ارتقاء المرأة الأميركية والغربية ومنافستها للرجل في العلم والعمل والإدارة والسياسة، سقط ذلك الوهم الذي كان سائداً في الماضي، وهو أن المرأة أحط من الرجل. وثبت أنهما متساويان في العقلية والأخلاق. وليست المرأة الشرقية أقل من أختها الغربية، ولم يبق إلا الزمن القصير ليجعلها مساوية لها بمباراة الرجل.

إذاً، في وسع المرأة الشرقية أن تعمل لأجل استقلال البلاد وأن تخدم القضية الوطنية بكل معناها. وإذا كنا لا نستفيد بعملها وخدمتها كنا مجرمين للبلاد ونستحق أكثر من النفي والإعدام. هذا هو المحور الذي أحاول أن أدور حوله في خطبتي هذه الوجيزة آملة أن نضاعف المجهودات في قضيتنا الوطنية بضم قوة السيدات إلى قوة الرجال.

يقولون إن الرجل تعاونه المرأة، أما المرأة فيعاونها الله. والله يؤتي النصر لمن يشاء. هنا أسمعكم تتساءلون: وماذا تستطيع المرأة أن تعمل في الجهاد الوطني لأجل الاستقلال، وما هي قوتها في هذا الجهاد؟

أقول إذا كانت المرأة ضعيفة في القوة العقلية فما هي ضعيفة في القوتين العاطفية والعقلية. وبهاتين القوتين تستطيع أن تعمل نصف الأعمال النافعة في خدمة كل قضية وطنية. هذا إذا أراد الرجل.

فالمرأة تستطيع أن تستقل في السياسة والإدارة وفي التدبير وفي التأثير. فقد رأينا في الحركة الوطنية المصرية السيدات يعملن كالرجال في المظاهرات وفي

الاحتجاجات وفي التأثير على رجال السياسة حتى المفاوضات. وليس من ينكر ما كان لهن من الفضل في خدمة القضية المصرية. وأذكر أنه يوم سقطت إحدى الوزارات، وكان ذوو الأمر يسعون هنا وهناك في البحث عن رئيس للوزارة فلم يجدوا من يقبل الرئاسة في ذلك الحين. فذاع أن دولة ثروت باشا قد يقبلها. فتألفت جمعية من السيدات وذهبن إليه كوفد ورجونه أن لا يقبلها، فوعدهن بإجابة طلبهن. وهذا كان بدء حركات السيدات في السياسة.

وفي اليوم الذي حصل فيه الاعتصاب العام بمصر ونشر اللورد اللنبي منشوره المعروف بطرد من لا يرجع إلى عمله من الموظفين، ذهبت السيدات إلى باب الوزارات في السيارات يرجون الرجال أن لا يذعنوا. وقد نزعت إحداهن أساورها الذهبية تقدمها لمن لا يمكنه أن يستغني منهم عن ماهيته، فأثرن عليهم وبقي الاعتصاب مستمراً.

وأذكر لكم حادثاً أعظم شأناً من هذا يدل على عظم تأثير المرأة.

منذ نحو عشرين سنة وقع خلاف بين الولايات المتحدة الأميركية وبين إنجلترا على فنزويلا. اشتد الخلاف حتى أنذر بشبوب حرب عظمى بينهما. فتألفت وفود من السيدات وسعت وفودهن لدى رجال السياسة، وأقنعتهم بتلافي الحرب وحل الإشكال بالأساليب الودية. وهكذا كان.

إذاً، فالمرأة بإمكانها إبطال الحرب وبإمكانها أن تثير حرباً.

ولو كان الوقت يسمح لسردت عدة حوادث كهذه تدل على تأثير النساء في السياسة وغيرها. لا أظنكم تجهلون مقدرة امرأة القرن العشرين ونفوذها في كل شيء، ولذلك أعتقد أنه في وسع المرأة الشرقية أن تشتغل لأجل استقلال بلادها كالرجل. هذا إذا أراد الرجل وفسح لها مجالاً، فقد يكون لها في بعض الأحوال نفوذ وتأثير لا يكونان للرجال.

سادتي، أن الاستقلال الذي ننشده إنما هو نعمة للنساء كما هو للرجال، وكلا الفريقين يشتركان بالتمتع به. فلماذا يكون الرجال وحدهم مسؤولين عنه ومجاهدين لأجله؟ وإذا وجب على النساء أن يشتركن في الجهاد لأجله، فلماذا لا

يكون لهن نصيب في كل صنف من أصناف الأعمال لا سيما والمرأة قد تعودت التضحية، فهي تضحي بسخاء وتخدم بأمانة ولا خوف في أن تلعب بمصالح البلاد وتتاجر بكراسيها.

في وسع السيدات أن يعملن لأجل الاستقلال إذا دعين للعمل وإذا شجعن عليه وإذا قبلت مساعيهن فيه، وحينئذٍ نرى أن قوة الجهاد الوطني قد تضاعفت وأصبحت الأمة أقوى بكثير من قبل.

لعل البعض يستكثرون على السيدات أن ينزلن إلى ميدان السياسة. ولكن ما أعلمه من نفوذ المرأة الأميركية السياسي والاجتماعي وتأثيرها الظاهر في رقي تلك الأمة العجيبة يحملانني على مخالفة هذا الظن وعلى الثقة التامة بأن النساء إذا أتيح لهن أن يعملن لخير الوطن عملن كثيراً. وإذا أضفنا إلى مواهبهن الطبيعية الحماس الذي حصلن عليه بعد سفك دماء ذويهن الشهداء وعذاب رجالهن وأحبائهن نعلم عظم الفائدة التي تنالها البلاد. وعندئذٍ لا تضيع البلاد مجهودات رجالنا ولا تسفك دماء شهدائنا سدى رحمهم الله وجعل ذكرهم حياً يحثنا لنيل الاستقلال.

أيار 1928

الإلفة الجنسية والانتخاب الحبي

بحث في موضوع جديد في عالمنا الشرقي نستأذن الرجال أن تبحث فيه السيدات.

ليس من يجهل قوة الانتخاب الحبي في النوع الإنساني، وهي أن كلاً من الرجل والمرأة تتحرك فيه العاطفة الحبية لشخص معين دون سائر الأشخاص، أو أنها تتحرك لهذا الشخص أكثر منها لسائر الأشخاص. وليس من يشك بوجود هذه القوة لأن الحوادث اليومية تؤيدها وتقيم الشواهد غير المتناهية عليها.

ولا ترى متعاشقين أو زوجين إلا يلوح في بالك هذا السؤال: «ماذا يرى فيها؟» أو «ماذا ترى فيه؟». وجواب القارىء على هذا السؤال: «الجمال في عين الرائي». وكأن الفيلسوف يدل على هذا السر في عالم الجمال ويحصره هناك. ولكنه بهذه الدلالة أو هذا الحصر لا يكشف لنا السر بل يزيده غموضاً إذ يجعل الجمال نفسه سراً. لأنه بقوله لنا إن الجمال في عين الرائي، يعترف ضمناً أن الجمال الذي يروق لعين زيد هو غير الجمال الذي يروق لعين عمرو. ولذلك نجد أنفسنا أمام سؤال آخر وهو: «ما هو الجمال؟» فكأننا انتقلنا من سر إلى سر آخر.

الحب الروحاني والإلفة

ومهما بقي سر الانتخاب الحبي غامضاً، فوجوده الذي لا شك فيه يؤيد لنا حقيقتين جوهريتين:

الأولى: أن هذا الاختيار الحبي أو الانتخاب الجنسي ليس نتيجة النبضة الشهوانية بل هو تلبية نبضة الحب الروحاني. لأن النبضة الشهوانية إنما هي تجاذب بين الذكورة والأنوثة على الإطلاق، فحيثما وجد الذكر والأنثى أمكن حدوث هذه النبضة. وأما الحب الروحاني فلا ينبض إلا حيث توجد الإلفة بين

زوجين. وهذه الإلفة الروحية هي الحقيقة الجوهرية الثانية التي يؤيد وجودها وجود الانتخاب الحبي الذي نحن بصدده.

وللقارىء أن يسأل: لماذا يوجد هذا الاختيار أو الاستهواء الخاص في الحب الروحاني ولا يوجد في الحب الشهواني؟ والجواب أن الناس لا يتنوعون أو لا يختلفون في بنيتهم الجسمانية كل الاختلاف، وإنما يختلفون جداً في شخصياتهم النفسانية. وبعبارة أخرى أن الاختلاف الموجود بين الناس إنما هو في الأخلاق والعواطف وغيرها من كل ما هو روحاني، ولا اختلاف بينهم في البنية الجسمانية. فهم يتجاذبون في الحب الشهواني بلا انتخاب، ولكنهم لا يتجاذبون في الحب الروحاني إلا حيث توجد إلفة روحانية بين روحين متلائمتين. فحيث توجد هذه الإلفة يحدث الانتخاب الذي نحن بصدده.

وحيث لا إلفة فلا اختيار، وإن حدث اختيار كان وقتياً ومزعزعاً جداً لأن أساسه الشهوة الجسمانية. وهي غير محصورة بين طرفين معينين بل هي شائعة كما فهمت مما تقدم.

سر الإلفة

أشرنا آنفاً إلى أن سبب الإلفة الروحانية هذه هو تلاؤم بين روحين. ولكن لفظة تلاؤم لا تكشف الغطاء عن سر هذه الإلفة. ما هي إلا لفظة مرادفة لها بالمعنى الفلسفي المقصود هنا. وربما كانت أوضح من لفظ الإلفة. نعم، لا نكشف الغطاء عن السر، لأنه لا يقف الذهن عندها قانعاً بل يتطلب معرفة ماهية هذا التلاؤم وشكله أو كيفيته.

نظرية تتمة النقص

وقد حاول كثيرون من المفكرين أن يكشفوا الغطاء عن سر هذه الملاءمة أو بالأحرى عن سر هذه الإلفة. فمنهم من زعم أن كلاً من الرجل والمرأة يستوهب ويهب أليفه (أو إلفه) ما ينقص كلاً منهما من الصفات التي تكثر في الآخر. مثال ذلك أن في رجل مزيداً من القوة ونقصاً من الدعة وفي مرأة العكس، أي قليلاً من

القوة وكثيراً من الدعة، فيتلاءمان: هو يقويها بقوته، وهي تلطف مزاجه بدعتها. وهكذا يتلاءمان. وبهذا التلاؤم يتجاذبان فيأتلفان ويحسب كل منهما ألفاً، أو أليفاً، للآخر. فإن اهتدى كل منهما إلى الآخر حدثت بينهما الإلفة الروحية.

ولا يخفى عليك أن هذا التلاؤم يجب أن يكون بينهما في كثير من الصفات بل في معظمها، وإلا فإذا كانت التباينات بينهما أكثر من التلاؤمات فلا تكون ثمة إلفة بل يغلب التنافر.

هذه القاعدة نظرية عامة لا تثبت إلا إذا أمكن استقراؤها وتطبيقها في الأحوال العديدة. فهل يمكن استقراؤها وتطبيقها؟ نترك الجواب على هذا السؤال للقارىء.

نظرية توزع الذكورة والأنوثة

وهناك نظرية أخرى للعلامة الألماني ويتنجر ربما كانت أقرب إلى الصواب وهي:

«أن الذكورة والأنوثة توزعتا على الجنسين أي أن كلا الجنسين اشتركا فيهما. فللرجل شيء من خواص الأنوثة وللمرأة شيء من خواص الذكورة، كثيراً أو قليلاً. فلنفرض أن في زيد خمسه من خواص الأنوثة. ولذلك هل يتوق، عن غير فكر، ومن غير علم بهذا، إلى مرأة فيها من خواص الذكورة نحو الخمس، وهي كذلك تتوق إلى رجل مثل زيد. فإذا التقيا كان بينها إلفة شديدة تضمن شدة الحب». انتهى.

وربما وجدنا بعد التفسير والملاحظة والاستقراء صحة لهذه النظرية الغريبة. وإنما ينشأ عنها لدينا سؤال وهو: ما هي خواص الذكورة والأنوثة؟ فالناس لا يشعرون بتوزيع هذه الخواص بين الرجل والمرأة، بل بالعكس، الرجل يشعر أنه رجل بكل معنى الكلمة. وإذا نسبت إليه صفة من صفات الأنوثة إستاء. وكذلك المرأة تعد نسبة الذكورة إليها إهانة. ولعل عدم شعور الناس بصحة هذه النظرية يجعلهم نافرين منها. وهب أن النظرية صحيحة، فتحديد صفات الأنوثة والذكورة صعب. بل هو نسبي يختلف باختلاف الأمم. فالرجل الأوروبي مهما كان مسترجلاً يظهر لدى البدوي مخنثاً. والمرأة الأوروبية مهما كانت وديعة تظهر لدى المرأة الشرقية مسترجلة.

«على أن هذا التباين النسبي لا يزعزع النظرية كثيراً. إذا كان لكل شعب ولكل قوم ساحة حب خاصة يتلاقى فيها المحبون فيتناسبون، ويتكلمون بعضهم مع بعض ويتآلفون بالحب».

مناقضات العادات لسنة الانتخاب

وسواء كانت هذه النظرية أو تلك أو غيرهما أقرب إلى الصواب، ومهما اختلفت النظريات وتضاربت بهذا الموضوع، فمما لا مشاحة فيه أن في النوع الإنساني انتخاباً حبياً أي اختياراً جنسياً (بين رجل معين وامرأة معينة)، وأن هذا الاختيار منحصر في الحب الروحاني الذي يسمو على الحب الشهواني ويسمو الإنسان على الحيوان. ولا يحدث هذا الاختيار إلا حيث تمكن الإلفة الحبية وهي لا تمكن إلا بين ألفين متلائمي الروحين.

فإذاً، حيث لا توجد هذه الإلفة الروحية يكون الحب شهوانياً لا روحياً. ويكون مزعزع الأساس سريع الحبط. والزواج الذي يبنى على هذا الأساس يكون خطراً جداً ومصيره إلى الخيبة والفشل.

فإذا كنت تسلم بهذه المقدمات اليقينية الراسخة التي تعد كأوليات، فالتفت إلى عاداتنا الشرقية وما فيها من المخالفة والمناقضة لهذه الأوليات الراهنة، وما تنتجه مخالفتها ومناقضتها من الضرر والأذى للعائلة والأسرة والمجتمع.

سر نكبة الحجاب على الزواج

نرد هذه العادات المناقضة لأولية «الإلفة الروحية» إلى شكلين رئيسيين: الأول، عادة تحجب البنات عن الشبان كل مدة العزوبة بحيث لا يتعرفان إلا بعد عقد الزواج. فكيف يمكن الاختيار أو اهتداء الألف إلى ألفه؟ وإذا لم يتفق أن يكون الزوجان «ألفين» أو أليفين (وهو الغالب في حالة التحجب)، فكيف يمكن أن يكون الزواج سعيداً. أو بالأحرى لا يكون تعساً كل التعاسة؟

ألا يكفي هذا الأمر سبباً ضمنياً لتحطم الحجاب واختلاط الجنسين، ولا سيما الشبان والبنات قبل الزواج، لكي يهتدي كل «ألف» إلى «ألفه»؟

أليس الإصرار على الحجاب بعد هذا الشرح الواضح لنظرية الإلفة الروحية مكابرة؟ أوليست المكابرة في موضوع حيوي كهذا انتحاراً اجتماعياً، لأن خيبة الزواج (أي الزواج التعس) تفضي إلى ارتخاء الرباط العائلي وانحلاله؟ وكيف يمكن أن يكون الرباط الاجتماعي وثيقاً مكيناً إذا كان الرباط العائلي رخواً؟

جل ما يحتج به الحجابيون على السفور أن المرأة عندنا جاهلة أو قليلة العلم. فإذا انفك عنها نطاق الحجاب وسفرت تعرضت لخطر الفساد، إذ ليس لها من العلم ورجاحة العقل ما يقيها من السقوط. فنقول هذا هو العذر الذي هو أقبح من ذنب. علموها لكي تنجو من هذا الخطر؟ لماذا لا تعلمونها؟

هل تستطيعون النجاة من خطر التيار التنازعي المندفع من الغرب إلى الشرق بغير العلم؟ وهل خطر السفور أقتل من خطر هذا التيار؟ أليس الحجاب مفضياً بنا إلى هذا الخطر؟ فحتى متى هذه المكابرة؟ إلى مَ هذا التعامي عن الحقائق الملموسة بل عن الحقائق التي صارت تنخسنا نخساً لكي نفيق لهذا الخطر الداهم لنا؟

تصيد العرائس

أما الشكل الرئيسي الثاني من عاداتنا المناقضة لأولية «الإلفة الروحية» فهو عادة طواف الشبان على بيوت الناس للتفتيش عن عرائس، كأنهم الفرسان الطائفون على الإصطبلات للتفتيش عن جياد الخيل. ضل هؤلاء الفتيان الأغرار سواء السبيل، فما هم باحثون إلا عن غذاء شهواتهم الجسدية، ولا هم مفتشون إلا عن تماثيل أهوائهم المادية، وما هم ملبون إلا نعرات أطماعهم النفسانية. وأما نبضات الحب الروحاني فصريعة ما بين معتركات شهواتهم البهيمية وأطماعهم المادية.

مما تبسطنا به فيما تقدم تعلم جيداً أن اهتداء الأليف إلى أليفه الروحي «لا يكون بنظرة وابتسامة وسلام»، «بل بكلام وعشرة في لقاء». فالتي سباك ناظرها وخلب لبك لحظها واستهوتك ابتسامتها قد يصدك عنها مزاجها، وينفرك منها خلقها، ويقصيك عنها سقم أدبها. فكيف تستطيع أن تعلم هذه الأمور من غير عشرة؟ وكيف تتيسر لك العشرة وأنت طائف طواف الصياد أو ناقد الجياد؟

ليس ما يجعل الفتى أن يعرض عن الفتيات اللواتي عرفهن واختبرهن في العشرة الطويلة ويطوف باحثاً عن عروس إلا اغتراره بنفسه وظنه أن الفتاة التي تليق شريكة لحياته غير موجودة بين الفتيات اللواتي عرفهن وعاشرهن، فيبحث عنها بين الفتيات اللواتي يجهلهن. ويغلب أن يكتشف أخيراً (بعد أن قضي الأمر) أن الفتاة التي اختارها إنما هي دون سائر الفتيات اللواتي عرفهن لياقة. لأن الفتاة التي تقدم نفسها لأي طالب من غير اختبار هي التي صدت عيوبها عنها معاشريها.

كانون الثاني 1929

حملة ضد البغاء

هل البغاء الرسمي علاج إبطال الدعارة؟ علاجها عند السيدات

في هذا الشهر عقد في منزل سعادة رسل باشا حكمدار العاصمة اجتماع من ذوات الأقلام وذويها بدعوة من حضرة ربة المنزل لسماع محاضرة مس هجسن بموضوع إلغاء البغاء الرسمي. ومس هجسن معينة من قبل جمعية إنكليزية للدعاية لهذا المشروع وغيره من المشروعات الإصلاحية في جميع الممالك. وقد وافت إلى القطر المصري تلبية لدعوة مكتب دولي في مصر غرضه محاربة الرقيق الأبيض والبغاء. ولجنة هذا المكتب مؤلفة من سراة أجانب وأجنبيات وليس فيها وطني واحد.

وألقت مس هجسن محاضرتها مختصرة مفعمة بالحقائق والبراهين على وجوب إلغاء البغاء الرسمي (أي البغاء بإذن الحكومة وتحت سيطرتها). وفسّرت المراد بإلغاء البغاء وهو إلغاء قانونه وإلغاء نظام البوليس المنفذ له وإلغاء الرخص للبغايا. ومما قالته أنه لا يعني بالمشروع إلغاء الدعارة لأن الدعارة إثم لا جريمة. ولذلك يجب أن تصحب مشروع الإلغاء مشروعات إصلاحية أخرى لمقاومة الدعارة السرية. وذكرت أهم هذه المشروعات:

1 ـ تنقيح القانون لمحارب البغاء.

2 ـ إيجاد الوسائل المجانية لمعالجة الأمراض السرية.

3 ـ تحسين الأحوال الصحية والاقتصادية.

4 ـ مداومة التهذيب لرفع المستوى الأدبي.

5 ـ زيادة الوسائل لتلافي أسباب الدعارة كإيجاد الأعمال التي تسترزق منها الساقطات والعاهرات.

6 ـ المساعدات المالية لهذا الغرض.

وختمت محاضرتها بتلاوة العريضة التي ودت أن يوقع عليها الحاضرون لكي تقدم للحكومة في طلب إلغاء البغاء الرسمي.

وبعد ذلك جرت مناقشة بينها وبين الأستاذ خليل بك ثابت رئيس تحرير «المقطم». وكان من أقواله أن إلغاء البغاء الرسمي لا يبطل الدعارة، ولا سيما لأن أوروبا تقذف على هذه البلاد سيلاً من المومسات. فإذا كان المراد إبطال البغاء رسمياً أو غير رسمي فيجب صد ذلك السيل.

وكان سعادة رسل باشا صامتاً معظم الوقت لأن الرجل رجل عمل لا رجل كلام كما برهن في مقاومة تهريب المخدرات. ولكن حماسة المناقشة أخرجته من دائرة صمته فقال: ما دامت سوق الدعارة رائجة فلا يمكن منع ورود البغاء إلى السوق. أقفلوا السوق فيمتنع الوارد.

وقد أعجبنا بصراحة الأستاذ ثابت بك وجرأته غير المألوفتين في الجدال بين الشرقيين والغربيين في موضوع كهذا. ومحوى كلامه أن إلغاء البغاء الرسمي لا يتلافى الدعارة وهي متفشية في البيوت السرية في كل بلاد كما هي متفشية في هذا القطر.

المشروع خطير الشأن جداً هو نسائي أكثر مما هو عام. ولذلك نستهجن أن يكون له مكتب دولي مؤلف من أعضاء مختلفي الجنسية ونحن المصريين لا عضو لنا فيه حتى ولا علم لنا به. ونستهجن أن تأتي سيدة من وراء البحار لكي تحثنا على محاربة الدعارة في بلادنا. أجل نستهجن ذلك كل الاستهجان لعلمنا أن عندنا طبقة كبيرة من السيدات الوطنيات تشعر بتفاقم ضرر الدعارة وتتخوف من انتشارها وانتشار أمراضها السرية. لذلك نستهجن أن تكون هذه الحملة ضد عيب في مجتمعنا من أجانب لا من وطنيات ووطنيين. أليس عاراً علينا أن تكون الحملة لمحاربة الدعارة عندنا من أجانب وأجنبيات!

ليست الدعارة مرضاً خاصاً بالهيئة الاجتماعية المصرية بل هي مرض المجتمع الإنساني في كل مملكة. وجنود الحملة المحاربة البغاء يكافحون في كل مكان غير مختصين مصر بجهادهم هذا، فالإنسانية تشكر لهم جهادهم ونحن نثني على كفاحهم.

وإنما نلوم أنفسنا على أننا لسنا متجندين لهذه الحرب.

فالبغاء السري منتشر هنا كما هو منتشر في كل بلاد ليس فيها بغاء رسمي. حتى في البلاد التي تجعل حكومتها البغاء جريمة وتعاقب عليه كإنكلترا والولايات المتحدة، تجد الدعارة السرية منتشرة هناك كأن لا قانون وازع ولا قوة رادعة. فالبغاء الرسمي هنا لم يمنع البغاء السري ولم يقلله.

وكذلك الأمراض السرية التي تنتشر عن طريق الدعارة لم تخفف انتشارها تجربة البغاء الرسمي. فهي تنتشر عن طريق الدعارة السرية. ولا يصد انتشارها البغاء الرسمي مهما كانت مراقبة الحكومة شديدة ومهما كان الكشف الطبي دقيقاً. وكيف يحول الكشف الطبي دون انتقال المرض من شخص مريض إلى آخر سليم تعاقبا في دار مومس بعد ذلك الكشف الذي قرر سلامة المومس؟

وإذا كانت المراقبة الطبية على المومسات لا يمكن أن تحول دون انتشار الأمراض السرية، وإذا كانت تجربة البغاء الرسمي لم تخفف شيئاً من انتشار الدعارة السرية، فلماذا إذاً توصم الحكومة بوصمة تسويغ البغاء تحت ذقنها وبعلمها. أليس أشرف لنا أن نعود إلى الناموس العرفي القائل بأن الدعارة حرام في كل حال. هي إثم. ثم هي جريمة أيضاً يسوغ للحكومة أن تعاقب من تمسكه متلبساً بها؟

ومتى عدنا إلى الناموس العرفي، وهو أن الدعارة إثم في كل حال (سرية أو رسمية)، عدنا نبحث عن الوسائل الأخرى التي تخفف انتشارها إلى أدنى ما يستطاع.

فالمسألة أخلاقية أدبية أكثر مما هي سياسية إدارية. لذلك نبحث عن أسباب انتشار الدعارة، حتى إذا عرفناها بحثنا في وسائل إزالتها. فإذا نجحنا بإزالتها أو بتخفيفها نجحنا بإزالة الدعارة أو بتقليل انتشارها.

الدعارة لا تكون إلا بين شخصين غير زوجين. فلو تزوجا لانتفت بينهما، وما كان حراماً أصبح حلالاً. فلماذا هو لم يتزوج، ولماذا هي لم تتزوج لكي لا يضطرا إلى ارتكاب هذا الإثم؟

أما هي فعلى الغالب لأنها لم تجد مسترزقاً يكفيها حاجاتها المعيشية. أو لأنها لم

تجد شريك الحياة الشرعي. وشريك الحياة من جهة أخرى لم يستطع أن يتزوج، لأن الزواج أصبح في هذا العصر وقراً على صدر الزوج ولا سيما في الشرق عموماً، وهو لا يستطيع حمله لأن مسترزقه لا يكفيه للقيام بنفقات عقد الزواج نفسه ولا للقيام بأعبائه العائلية بعد ذلك.

فترى الأمر في كلتا الحالتين ـ حالة المرأة وحالة الرجل ـ ناتجاً عن العسر الاقتصادي. وهذا العسر الاقتصادي ليس علة إثم الدعارة فقط، بل هو علة معظم المعاصي الأخرى أو الجرائم التي تعاقب عليها القوانين. فالسبب الأساسي إذاً سبب عنيد جداً تتعذر إزالته ما دام نظام المجتمع الحاضر نافذاً. وفي هذا المقال لا يجدينا البحث في وسائل تغيير النظام الحالي. فنتجاوزه إلى البحث في وسائل تخفيف أعباء الزواج والعائلة.

أما عقد الزواج فلا يزال عندنا مهمة تستوجب نفقة كبيرة، لأن كل من يقدم على زواج يجد نفسه بحكم البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها مضطراً أن يؤثث بيتاً أوسع مما تستطيعه مقدرته المالية وأن يقدم الهدايا للعروس وأن يدفع مهراً إلخ.

لذلك أقول: لماذا لا يكون الزواج أمراً بسيطاً كسائر أمور الحياة كالأكل والشرب والنزهة بل كالعمل اليومي. كانت العروس في بيت أهلها فانتقلت إلى بيت عريسها. من بيت إلى بيت. هناك بيت كان مناسباً لها وهنا بيت مناسب لها، لأنها لم تتزوج إلا الكفء لها وعنده مثلما عند أهلها. فلماذا المزيد؟ ولماذا الاحتفال؟ ولماذا الفخفخة الفارغة؟

ثم أقول من جهة العائلة: لماذا لا تكون الزوجة شريكة الزوج بالفعل تقاسمه الاهتمام. فالجد في العمل من جهته، والاقتصاد والتدبير من جهتها؟

إن معظم خيبات الزيجات ناجم عن الرعونة في الأمرين المتقدمين. ولتلافي هذه الرعونة تجب الدعاية ـ الدعاية ـ الدعاية لقمع غرور العامة واندفاعهم في التشبه بالأعلى والأغنى. هذا التشبه هو أصل الداء الأساسي وهو منتشر بين جميع طبقات الأمة، وآلامه تصيب كل طبقة.

وقد مني الشرق بداء البذخ منذ شرع يقتبس المدنية الغربية، فتطرف به

حتى فاق الغرب فيه. ولو قابلنا مظهر بيت رسل باشا ببيت أي شرقي من طبقته لوجدنا بوناً عظيماً بينهما. بيت الشرقي ينم عن بذخ لا يناسب صاحبه بل يفوق طاقته. وكذلك لو قابلنا بين أي سيدة من درجة مسز رسل باشا لوجدنا كذلك فرقاً عظيماً. رأينا في مسز رسل وفي بيتها البساطة التامة مع حسن الترتيب والنظافة والذوق مع أنه في وسعها أن تبذخ ما تشاء. ولكن بساطتها لم تقلل شيئاً من قيمة مقامها بل زادته اعتباراً. وكذلك رأينا مس هجسن المندوبة من قبل جمعية محاربة الرقيق الأبيض والمشدودة الأزر من قبل جمعية الأمم كما فهمنا... رأيناها بسيطة الزي جداً. ولكن أي سيدة شرقية دونها مقاماً وقيمة وفاعلية تبذخ أضعاف أضعافها.

فالبذخ الذي مني به الشرق هو سبب من أسباب الأحجام عن الزواج، كما أنه سبب معظم الآثام والشرور التي شرعنا نشعر بنكبتها وبوجوب محاربتها.

ولذلك أتمنى أن تقوم جماعة من فضليات سيداتنا المصلحات للدعاية ضد هذا التشبه في البذخ والإسراف. وحبذا لو تألفت جمعية من فضليات السيدات غرضها الرئيسي هو بث فكرة البساطة في المعيشة والتقليل من البذخ الذي يقضم حياة المجتمع. وإذا قرن هذه الدعاية بأن يظهرن هن بهذه البساطة ليكن نموذجاً وقدوة لغيرهن، كانت الدعاية عظيمة التأثير.

بقيت نقطة جوهرية لمقاومة البغاء لا بد من ذكرها. قلنا إن المسألة أخلاقية أدبية أكثر مما هي سياسية وإدارية. ولذلك لا بد من ترقية المستوى الأدبي في البلاد عموماً لكي يحيا في نفوس كل طبقة من الأمة ولا سيما العامة الشعور بأن البغاء إنحطاط نفساني يجب أن يخجل به المرء من نفسه. وهذا يستلزم دعاية أخرى تقرن بالدعاية التي أشرنا إليها آنفاً ضد البذخ. وإذا قرنت الدعايتان بدعاية ثالثة لإظهار فظائع الأمراض السرية، كان السعي في محاربة الدعارة عظيم النجاح.

وعندي أن الدعاية الثالثة لإظهار فظائع الأمراض السرية أعظم تأثيراً ولا سيما إذا قامت بها الحكومة عن يد مصلحة الصحة، وألفت حملة للطواف في المدن والقرى لإلقاء المحاضرات المقرونة بالصور المتحركة وصور الفانوس السحري

لإظهار فظائع الأمراض الزهرية وغيرها مما يحدث بواسطة الدعارة. فإذا أتقنت هذه الحملة مهمتها واستطاعت أن تغرس في أذهان الفتيان والفتيات ويلات هذه الأمراض تهيّب الجمهور شر الدعارة.

وهناك جيش عظيم قدير يجدر بالحكومة أن تسعفه وتعاونه وهو جيش الأمهات. فهن إذا أسعفن وتدربن يستطعن مقاومة الدعارة، بل يستطعن تغيير الأخلاق الفاسدة إلى أخلاق راقية في الأدبية النفسية. يستطعن ذلك إذا تربين وتسلحن بالسلاح اللازم لمقاتلة الشرور والرذائل وتعلمن أن المثل الأعلى الذي له جرثومة في كل بشر يجب أن يحارب الخلق الأدنى. يجب أن تظهر لهن فضائل الانتصارات الأدبية بتربيتهن على مبدأ حكم الشخص لنفسه قبل أن يحكم بلده. لأن من يعرف كيف يحكم طبعه يعرف كيف يحكم مملكة.

فإلى الجهاد أيها الأمهات لتطهير البلاد من الشرور وتحريرها من العبودية للرذائل. أتت مس هجسن لتدعونا لتخليص البلاد من شرور الدعارة. ونحن ندعو السيدات لتخليص البلاد من كل شر... والسلام.

آذار 1930

المراجع

1. «قضية المرأة»، ثلاثة أجزاء. تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب. منشورات وزارة الثقافة السورية - دمشق 1999.
2. «في اليقظة العربية: الخطاب السوسيوسياسي عند فرح أنطون»، مارون عيسى الخوري. جروس برس - طرابلس، لبنان 1994.
3. «الحركة الفكرية النسوية في عصر النهضة (1849 ـ 1928)»، الدكتور جورج كلاس. دار الجيل - بيروت 1996.
4. «النساء العربيات في العشرينات حضوراً وهوية»، تجمع الباحثات اللبنانيات. بيروت 2001.
5. «نقولا حداد الأديب العالم»، سلمى مرشاق سليم. دار الجديد - بيروت 2013.
6. «فرح أنطون»، ميشال جحا. رياض الريس للكتب والنشر - لندن 1998.
7. «حوار مع رواد النهضة العربية»، عصام محفوظ. رياض الريس للكتب والنشر - لندن 1988.
8. «الهجرة اللبنانية إلى مصر - هجرة الشوام»، مسعود ضاهر. منشورات الجامعة اللبنانية - بيروت 1986.
9. «المؤلفات الروائية»، فرح أنطون. تقديم الدكتور أدونيس العكره. دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت 1979.
10. «المؤلفات الفلسفية»، فرح أنطون. تقديم الدكتور أدونيس العكره. دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت 1981.
11. «تربية سلامة موسى»، سلامة موسى. دار سلامة موسى للنشر والتوزيع - القاهرة طبعة 1958.
12. «الصحافة حرفة ورسالة»، سلامة موسى. دار سلامة موسى للنشر والتوزيع - القاهرة طبعة 1963.
13. «فرح أنطون روائياً ومسرحياً»، حسين المناصرة. دار الكرمل للنشر - عمّان 1994.
14. «نشوء فكرة سوريا الكبرى وتطورها»، جورج ن. عطيه. أطروحة مقدمة لدائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت. دون تاريخ.
15. «100 عام من الرواية النسائية العربية»، د. بثينة شعبان. دار الآداب - بيروت 1999.
16. «من مقالات وديع فلسطين في الأدب والتراجم»، وديع فلسطين. دار البشائر الإسلامية ـ بيروت 1983.
17. «موسوعة الكاتبة العربية 1873 ـ 1999» ، أربعة أجزاء، مجموعة من المؤلفين. المجلس الأعلى للثقافة - مصر، ومؤسسة نور لدراسات وأبحاث المرأة العربية ـ القاهرة 2005.
18. The Odyssey of Farah Antun, By: Donald M. reid. Bibliotheca Islamica, Inc. Minneapolis & Chicago 1975.

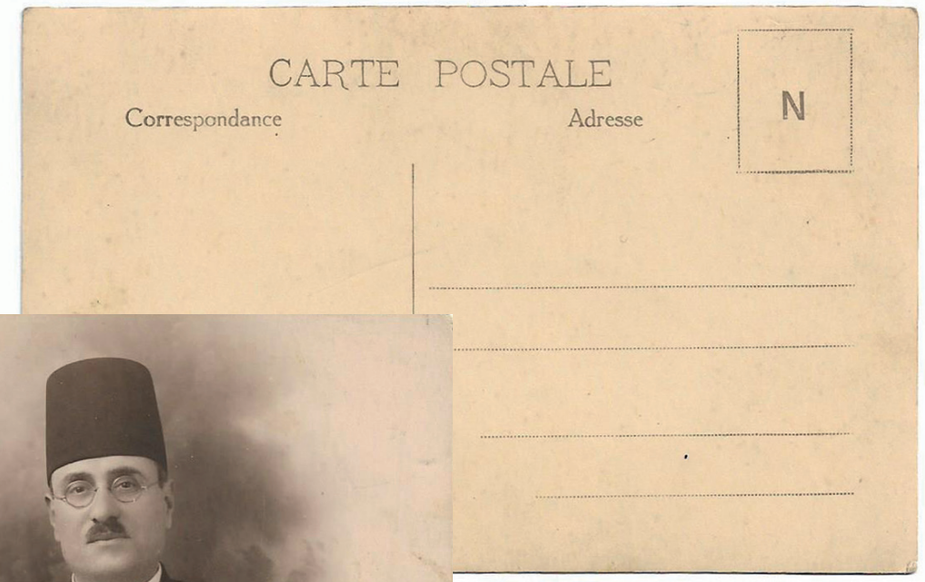

روز أنطون في مطلع القرن الماضي

فرح أنطون

نقولا الحداد وروز أنطون على بطاقة بريدية

مع إحدى الزائرات الأميركيات في القاهرة

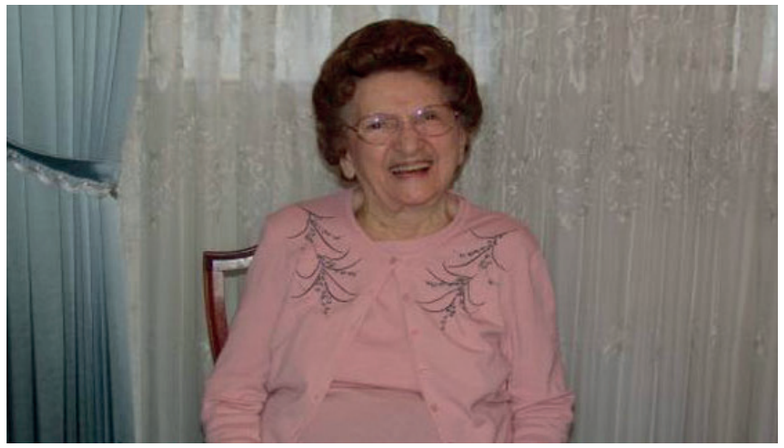

كوزيت الحداد برنس في سنواتها الأخيرة

روز جالسة وابنتاها كوزيت (إلى اليمين) ولورا

هدية من المؤلفة
السيدة روز حداد
١٩٥٤

تمهيد

تطور المرأة في القوة والضعف

منذ بدء الحياة الاجتماعية الى اليوم كان مقام المرأة في المجتمع تابعاً لتطورات السلطة المسيطرة وما تقلب عليها من الاحوال بين سلطة فردية ، وسلطة يشترك بهاافراد ، وسلطة مستمدة من قوى الجماعة ورضاها . وبين سلطة مطلقة فردية أو افرادية تارة ظالمة جائرة، واخرى اقل جوراً وعسفاً، وطوراً استبدادية وآخر نظامية . فمركز المرأة كان في جميع هذه الاحوال المتقلبة مركز الضعيف لدى القوي . بحيث تكون السلطة مستبدة عسوفه تكون المرأة اول من يقع عسف الاستبداد عليها وهي تتحمل اكثره .

ولان الاستعباد خاصة الحكم الاستبدادي او مزيته فالمرأة كانت في جميع انواع الاحكام عبدة كثيراً او قليلا . وكثيراً ماكانت أمة (عبدة) للعبد . حتى في عهود الاحكام الشعبية (الديموقراطية) (١) التي كانت سلطة الحكومة فيها مستمدة من الشعب قليلاً او كثيراً بقيت المرأة عبدة

وليس مقام المرأة تابعاً لتقلبات احوال السلطة فقط بل هو تابع أيضاً لتطورات النظم الحكومية من جهة الادب النفسي(Ethics) . وهذه التابعية كتلك – تابعية الضعيف للقوي أيضاً . فمهما كان النظام عادلا كان يضع المرأة في مقام أحط من مقام الرجل. ومهما كان القانون حقانياً كان يخول المرأة حقوقاً اقل جداً وابخس من حقوق الرجل .

حتى في عصرنا الحالي الذي يزعم انه عصر الديموقراطية حكومة وعصر الانسانية أدباً نفسياً لاتزال المرأة عند الجانب الاعظم من الامم ، حتى الامم التي هي في الصف الاول من المدنية، تقاسي أثراً من العبودية وتحرم بعض الحقوق .

فقد مر على عبودية المرأة قرون التاريخ الستون أو الثمانون ، وقبلها أضعافها ، ولكنها في بدء الانسانية الاجتماعية لم تكن كذلك، وبعد هذا العصر لن تبقى كذلك . وما طفق

(١) اللفظة يونانية الاصل مؤلفة من لفظين : ديمو ومعناه الشعب . وكراتوس ومعناه القوة والسلطة — اي سلطة الشعب

(٦١)

عسكر جيش زنوبيا وحاول ان يصده، ولكنه لم يفلح. فتقهقرت زنوبيا بجيشها الى جهة حمص حيث جرت معركة عنيفة انكسر فيها جيشها وجعل يرتد الى تدمر فتعقبه أورليان وضرب حصاراً على المدينة المحصنة ومنع الزاد عنها الى ان خار عزم ملكة الشرق ففرت هي وابنها ملتجئين الى ملك الفرس. ولكن قبض عليهما عند نهر الفرت . وسلمت المدينة، فنهبها أورليان وعفا عن زنوبيا وقتل القواد والضباط . وعاد أورليان بموكب نصر عظيم الى روما مصطحباً زنوبيا كاسيرة وأدخلها الى روما مقيدة بقيود من ذهب . ومع ذلك تقبلت زنوبيا خيبتها بانفة وشمم . وعاشت بقية أيامها في روما كسيدة رومانية .

وكانت زنوبيا تدعى أنها من سلالة ملوك مصر البطالسة . ويقال أنها من سلالة عربية. وقيل أيضاً أنها يهودية. والحقيقة مجهولة

زوجات الملوك ذوات النفوذ

مرغريت اف انجو

هي بنت رنه اف انجو ملك فرنساوى صعلوك. كانت جميلة وذكية . ولدت سنة ١٤٣٠ وزوجها هنرى الرابع ملك انجلند في السادسة عشرة من عمرها .

وكانت حياة هذه المملكة ملأى من المحن لان زوجها جن برهة من الزمان فاستلمت تقاليد الامور، حين كانت انجلند معترك دسائس بين بعض الدوقات ، وحين كانت العداوة بينها وبين فرنسا على أشدها . فسلكت مرغريت مسلك الداهية المحنكة ولكن خيباتها كانت أكثر من انتصاراتها . وفي خلال جهادها قتل زوجها وأخيراً قتل ابنها ثم وقعت أسيرة عند الملك أدورد الرابع . وفي أحيان كانت تقاسي الفقر والذل

ابزابلا ملكة أسبانيا

هي بنت حنا الثاني ملك كاستيل من زوجته الثانية ابزابلا أيضاً حفيدة حنا الاول ملك برتوغال . ولدت سنة ١٥٤١ . ولما ارتقى أخوها هنري الرابع الى العرش أخذتها أمها الى اريفالس حيث ربتها وعلمتها . ثم نقلها هنري الى البلاط حيث طلب يدها بضعة من الامراء فتزوجت فردنيند ابن ملك اراجون سنة ١٤٦٩ . ولما ثار أهالي كاستيل قدموا لها عرش كاستيل فاعرضت عنه . وفي سنة ١٤٦٨ اعترف أخوها بحقها الشرعي بارث التاج فلما مات ارتقت الى العرش سنة ١٤٧٤

فهرست

صفحة
...ر – تطور المرأة الاجتماعي . القوة ...عف ١
...رجة الاولى عهد الهمجية – قبل ...ضارة ٦
...فصل الاول – المرأة الهمجية ٦
١ – بدء علاقة المرأة بالرجل ٧
٢ – بدء العلائق الزوجية ٩
٣ – بدء العائلة ١٦
...رجة الثانية . في عهد الحضارة القديمة ٢١
...فصل الثاني – منزلة المرأة في ادوار ...ضارة الاولى ٢١
١ – النساء الاشوريات والبابليات ٢٢
٢ – المرأة المصرية في ازمنة الفراعنة والبطالسة ٢٤
٣ – المرأة الاسرائيلية القديمة ٢٧
٤ – المراة الرومانية ٢٧
٥ – المرأة عند العرب ٢٨
٦ – المرأة في عصر الاقطاع ٢٩
الفصل الثالث – استعباد المرأة الرسمي ٣١
١ – التسري في الغرب ٣٢

صفحة
٢ – التسري عند العرب ٣٤
٣ – الحريم ٣٥
الفصل الرابع – البغاء ٣٩
١ – اسباب البغاء ٣٩
٢ – البغاء في الشرق ٤٠
٣ – البغاء عند الرمان واليونان ٤٢
٤ – مقاومة البغاء في عهد النصرانية ٤٤
٥ – تنظيم البغاء بقوانين ٤٥
٦ – أصلاح النظام ٤٧
٧ – نظام البغاء الحديث ٤٨
٨ – خلاصة ٤٩
الفصل الخامس فجر نهوض المرأة ٥٢
١ – الامازونيات ٥٢
٢ – الرهبنات النسائية ٥٤
الفصل السادس – النساء النابغات في التاريخ ٥٦
١ – الملكات الحاكمات ٥٦
٢ – زوجات الملوك النافذات ٦١
٣ – زوجات ملوك متسلطات ٦٦
الفصل السابع – نابغات النساء في العلم والعمل ٧٤

صفحة
١ – نابغات العرب ٧٤
٢ – بعض نابغات الافرنج ٧٨
الفصل الثامن – تعليم المرأة ٨٣
١ – التعليم الاولى في أوروبا وأميركا والشرق ٨٣
٢ – التعليم المتعادل والمختلط ٨٨
٣ – التعليم المتعادل والمشترك في الولايات المتحدة ٩٢
الفصل التاسع – المرأة في دوائر الاعمال والادارات ٩٦
١ – المرأة في العمل ٩٦
٢ – الاندية السياسية ٩٨
٣ – الجمعيات النسائية الكبرى ٩٨
٤ – عمل المرأة في الحرب العظمى ١٠٣
الدرجة الثالثة — عهد الحضارة الحديثة
الفصل العاشر – حقوق المرأة الشرعية ١٠٦
١ – في العصور القديمة ١٠٦
٢ – الحقوق الزوجية ١٠٩

صفحة
٣ – حقوق المرأة في الولايات المتحدة ١١...
٤ – حماية العاملات ١٢...
الفصل الحادي عشر مقاومة الرقيق الابيض ...
الفصل الثاني عشر – حق المرأة السيا... التصويت والانتخاب
١ – في بريطانيا ...٢١
٢ – في مستعمرات انكلترا واملاكها ...٢٧
٣ – في أوروبا ...١٢٨
٤ – في الولايات المتحدة الاميركية ...١٢٨
الفصل الثالث عشر – النهضة النسائية في الشرق ...٣٣
١ – النهضة النسوية في مصر ...٣٣
٢ – » » في سوريا ...٣٧
٣ – » » في العراق ...٤٠
الفصل الرابع عشر – ماذا يكون شأن المرأة في المستقبل ...٤٤
مستقبل المجتمع تحت تأثير المرأة ...٧

صفحات من كتاب «مقام المرأة الاجتماعي في التاريخ»، والإهداء بقلم روز

عاشت روز أنطون (1882 ـ 1955) في ظلال عملاقي فكر وصحافة هما شقيقها فرح أنطون وزوجها نقولا الحداد، فضاعت عطاءاتها وتناستها الدراسات الصحافية والأدبية. وذابت شخصيتها في خضم الاهتمام بما أنتجه فرح ونقولا على حساب ما قدمته هي نفسها في حقل الصحافة التي مارستها عملياً منذ العام 1903 عندما ساعدها شقيقها على أنشاء مجلة «السيدات والبنات» في الإسكندرية، وأعانها في تحريرها لمدة سنتين.

وقد استمرت هذه الظلال في التعتيم عليها حتى يومنا هذا، على الرغم من توسع الأبحاث التي أزالت كثيراً من الستائر عن دور المرأة في النهضة الأدبية والاجتماعية والفكرية في النصف الأول من القرن الماضي. ولعل روز، بسبب شهرة أخيها وزوجها، كانت الأكثر عرضة لظلم مؤرخي الصحافة والأدب... إلى حد أن كتاباً موسوعياً بعنوان «قضية المرأة» الصادر في ثلاثة أجزاء (تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب) لم يتضمن أي مقال لها على الإطلاق.